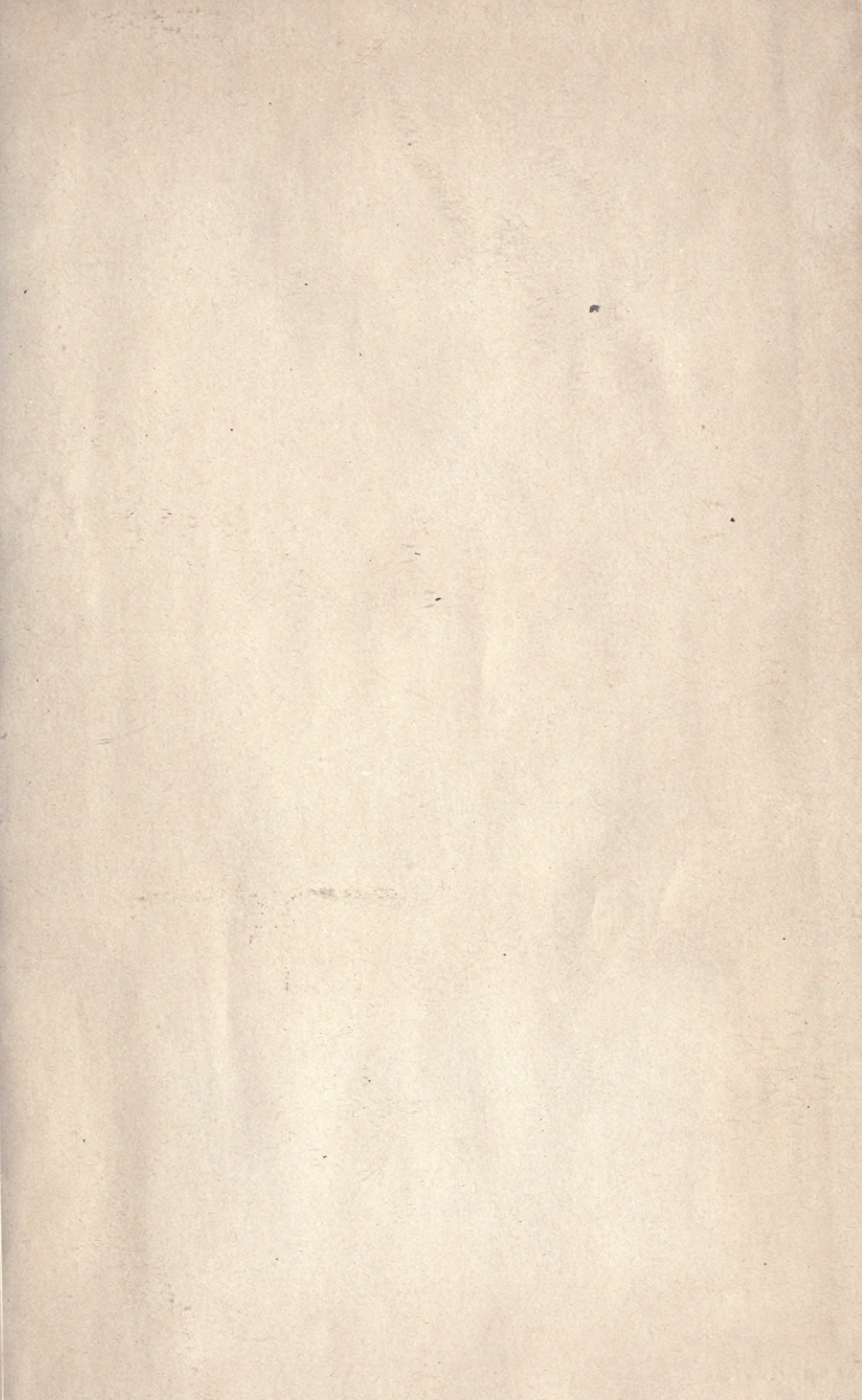










تشريف الكتاب

❀ باسم الجناب العالي الخديوي ❀

❀ عباس حلمي الثاني ❀

اذا لم يكن في دولة العلم حاجب | اميرَ النهى اذناً فاني مخاطب
خطاب فتى يرعى مقامي جلالة | اعزّهما ما لم تنلك المَناسب
احلّتك منه اللوذعية منصبا | على سنم تنحطّ عنه المناصب
فيا ملكا احيي به الله امة | لها قبله آثار مجد عوازب
بعزم يعيد الفدفد القحل روضة | وحزم يفيض الماء والصخر ناضب
وعلم كأن الصبح ينشر ضوءه | فيبدو به الخافي وتجلى الغياهب
ورأي كأن البرق مضرب حده | تودّ الظبي لو قلدته المضارب
اليك كتاباً فيه أحييت ساهراً | ليالي كانت من دجاها النوائب
وقفت عليه سهد فكري ودونه | مصائب تثنيني ودهر يحارب
ثباتي من السقم المقيم افدته | وصبري مما اكسبتني المتاعب
لو الكوكب الدرّي وهو مساهري | رأى ما اقاسي لاغتدى وهو شاحب
كتاب اعاني جمعه حيث خاطري | شتيت وبي شغل من الهم ناصب
دعاني له استكمال عهدك للمنى | ونورك لي هاد وامرك غالب
فجاء قليلا من قليل وانما | توفر فيه بحثه والمطالب

عتيق معانيه جديد سياقه … يعيد شباب الدهر والدهر شائب

يقص حديث الكون منذ ابتدائه … وما اخلفت احداثه والتجارب

وتمثل اجيال الورى فيه بادياً … خفيّ طواياها لدى من يراقب

هنالك اقوام تجيء وتنقضي … وتتبعها اطوارها والمذاهب

ممالك تبنى بالصوارم والقنا … وتهدمها اوزارها والمعايب

غرائب اديان وجنس ومشرب … وخلق واخلاق تليها غرائب

تمرّ ونور النقد يبدي خفيها … سراعا كما مرت ببدر سحائب

ولم ارَ شيئاً كالفضيلة ثابتاً … نبت عنه آفات البلى والمعاطب

ومن يصطحبها كاصطحابك راشداً … فان له المجد المخلد صاحب

سيدري بنو الايام آخر دهرهم … مناقب عباس ونعم المناقب

وتروى لهم عنه فعال جميلة … تضيء سماء الذكر منها كواكب

اطال لك الرحمن عهداً مباركا … فواتحه غنم لنا والعواقب

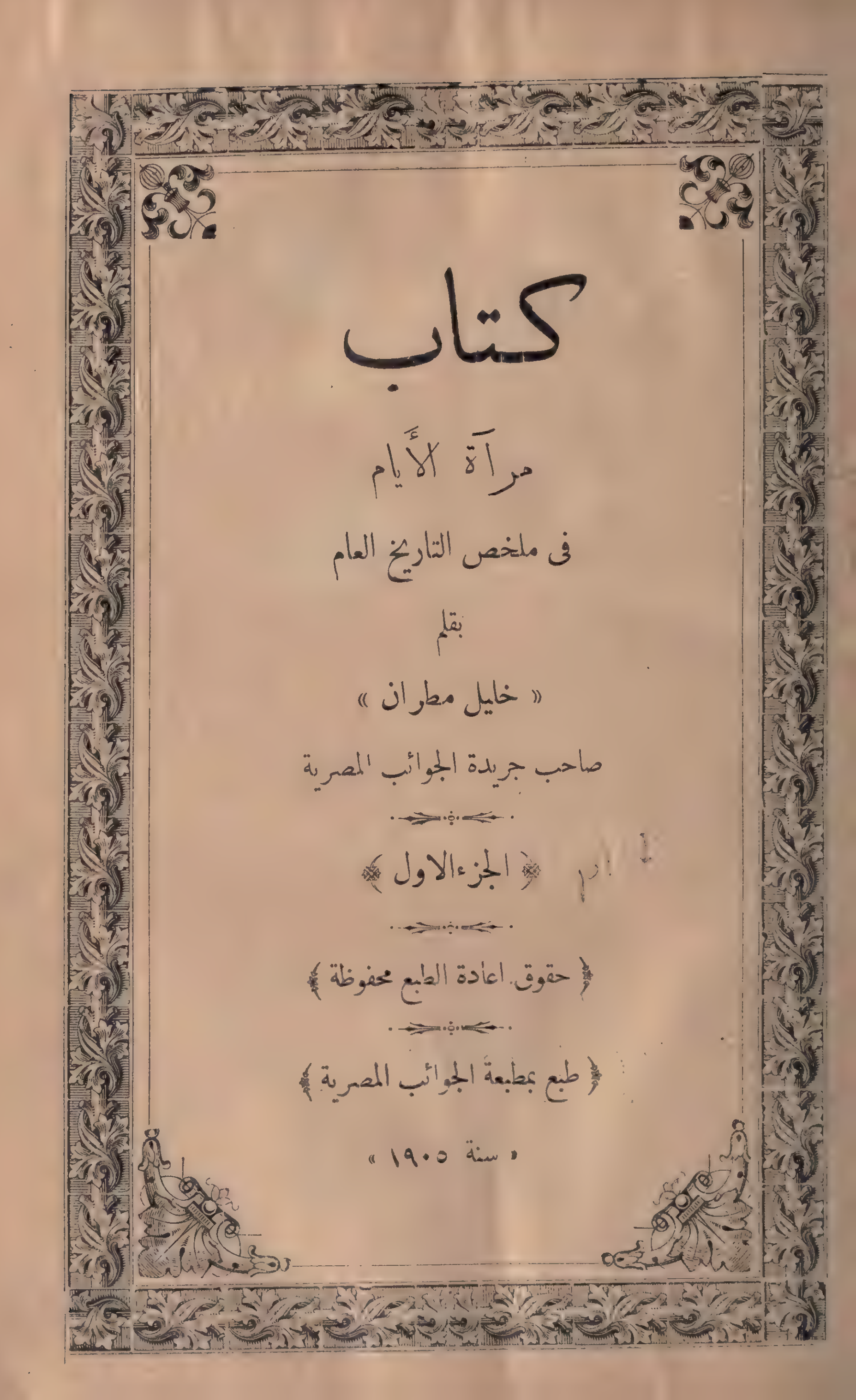
فحكمك شمس الحق فينا اضاءة … وكل مضيء ماسوى الحق كاذب

وفضلك فينا للفضائل منبت … مشارق مصر روضه والمغارب

فمن شاعرٌ منا لحمدك ناظم … ومن ناثرٌ منا لمجدك كاتب

متى تصدح الاطيار فالفجر صادح … وان تسكب الامطار فالبحر ساكب





كتاب

مرآة الأيام

في ملخص التاريخ العام

بقلم

« خليل مطران »

صاحب جريدة الجوائب المصرية

﴿ الجزء الاول ﴾

﴿ طبع بمطبعة الجوائب المصرية ﴾

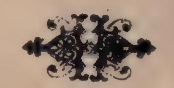
« سنة ١٩٠٥ »

بسم الله المبدي المعيد

أما بعد فاني لما رأيت مكاتبنا العربية في حاجة الى تاريخ عام ينتفع به المطالع * ويرجع اليه في تحقيق الوقائع * استخرت الله على ما عندي من قصر الباع * وضيق الاطلاع * في وضع هذا المختصر نقلاً عن أشهر التصانيف * الموثوق بصحتها بين أهل هذا العلم الشريف * وقد التزمت فيه الايجاز في سرد الحوادث وذكر مواقعها * وتجنبت ايراد الاقوال المختلفة في كثير من مواضعها * وتحريت ما امكن ان افرغه في قالب عربي يقرب من المتداول * ليكون أساس في الذوق وأدنى الى المتناول * ولم اخرج في كثير من صور التعبير عن المصطلح عليه من الالفاظ المعروفة * والتراكيب المألوفة * مخافة أن تلتبس أوضاعه على الافهام * وتخفى وجوه مقاصده تحت لثام الابهام * اذ لا يخفى ان لغتنا العربية على اتساع مناحيها * لا تزال مفتقرة الى كثير من مرادفات الاوضاع الاجنبية للتعبير عن معانيها * وذلك على امكان أخذه من اللغة الفصحى من وجه المجاز والاشتقاق والتمثيل * يقتضي ما يعنت القاريء فضلاً عن الكاتب من ضروب التفسير والتأويل *

ولذلك اجتزأت باللفظ الجاري على الالسنة والاقلام * في هذه الايام * عملا بقولهم الغلط المشهور * خير من الصواب المهجور *

وقد عقدت فصولا مسهبة أفردتها لأخبار الامة العربية وذكر أجلّ ما روي عنها * وفصلت بما وسعني من الاطالة تواريخ الدول الشرقية وخصوصاً الاسلامية منها * وذكرت من حوادث الثلاثين السنة الاخيرة ما لم يجمع في كتاب * ولم يتعرض للاخبار عنه الى الان أحد من الباحثين والكتاب * وأنا ارجو أن اكون في ذلك كله قد قاربت خطة الصواب * وقمت من هذا العمل بما يخولني رضى ذوي الالباب * اذ لم أقصد به الا أن اجعله خدمة عميمة * صادرة عن نية مستقيمة * ارفعها الى الوطن العزيز والامة المصرية الكريمة * أبلغها الله آمالها * واجمل مآلها



ملخص التاريخ العام

القسم الاول

« في تاريخ الشرق القديم »

الباب الاول

﴿ في اصول الامم والقول في اصول لغاتها واوائل أحوالها المعاشية والمدنية ﴾

فصل

(في الارض والانسان)

اختلفت اهل الاديان الأولى في صفة الله وابداع الكون وخلق الانسان . وتناول أهل العلم الحديث هذا الموضوع يكيفونه ويشرحونه بادوات الاستدلال واقيسة النواميس الطبيعية ولكن الاجمل بنا ان ندع كلا من قرآئنا يرجع في هذا البحث الى معتقده الديني او رأيه العلمي فلا نتعرض له

فصل

﴿ في الاجيال البشرية ﴾

تكاد تنوعات الجنس البشري لا تدخل تحت حصر وسببها اختلاط الاجيال وتأثير البيئات والمواطن

أما الاجيال الكبرى فثلاثة وهي الابيض والاصفر والاسود

وتلحق بكل منها اجيال فرعية متنوعة نشأت عن اختلاط الاجيال الكبرى في التخوم التي تجاورت فيها

وقد نما الجيل الابيض في بقاع ايران الاولى ومنها انتشر الى الهند وآسيا الغربية وكل اوربا . ونما الاصفر في الصين وشمال آسيا وجزائر ملقا . ونما الاسود فى افريقية واوستراليا . ويرد الهنود الحمر الامريكيون الى الجيل الاصفر . واما اللغات فتنقسم الى ثلاثة اقسام كبيرة . الاول منها يشمل المسميات بذوات الهجاء الواحد وهي المؤلفة من الفاظ اصلية كل لفظة منها هي الفعل وهي الاسم وينطق بها بصيغة واحدة وانما يختلف معناها باختلاف موضعها من الجملة وبحسب ارتباطها بالكلمات الاخرى المقارنة لها والثاني يشمل المسميات بالمذيلة وهي المؤلفة من الفاظ اصلية كالاولى لا تميز فيها بين الاسم والفعل الا بادوات وحروف تزاد على اواخرها فتتنوع بها معانيها كما تتنوع معاني الالفاظ في لغاتنا بالتصريف والاعراب

والثالث يشمل المسميات باللغات المتصرفة وهي المؤلفة من الفاظ تتنوع معانيها بتنوع ابنيتها وحركاتها ويتميز فيها الاسم عن الفعل فيفيد الاول الجنس والعدد ويفيد الثاني الزمان والحدث . وهذا القسم هو الاتم والاليق لتمثيل الفكر وايضاحه وكل اللغات التي وجدت وتوجد الآن في الدنيا ترجع الى احد

هذه الاقسام الكبرى

واكملها لغات الجيل الابيض وهي من القسم الثالث وتليها لغات التتر والترك والفينيين والتامولبين وهي من القسم الثانى وتتبعها لغة الصينيين فهي من القسم الاول ولا تزال على قديم عهدها الا فى شيء قليل اصلح منها فجعل اقرب الى القسم الثاني

﴿ فصل ﴾

في الجيل الاسود والجيل الابيض

لا يذكر التاريخ شيئاً عن الاقدمين من سكان افريقيا واوقيانيا وامريكا واما الجيل الاصفر فقد وجدت عنده اقدم سجلات الذكر وكانت له حضارة ذاتية وممالك لا تزال موجودة واشهر اقسام هذا الجيل هم الصينيون والمغول ويلحق بهم ايضاً شعوب الهند الصينية . ومنهم الاناميون والتبتيون واقدم سكان الهند والقبائل التركية والترية والهونيـة من غرب الصين الى بحر قزبين . ولعل اصل المجر من بعض تلك القبائل

﴿ فصل ﴾

في الجيل الابيض وفي الآريين والساميين

ينقسم الجيل الابيض الى فصيلتين كبيرتين . وهما السامية في الجنوب الشرقي من آسيا وفي شرقي افريقيـا . والآرية او الهندية الاوربية فى آسيا الغربيـة واوربا . والظاهر ان مهـد

الفصيلة الآرية كان في البلاد الواقعة في الشمال الغربي من نهر السند بأرض تركستان . وقد خرجت من تلك البقعة طوارئ كثيرة امتدت من ضفاف نهر الكنج الى اقاصي الغرب ويشهد بذلك ما اكتشف حديثاً من تقارب القواعد التصريفية وتشابه اصول الالفاظ الاساسية بين اللغات القديمة فثبت به ان اليونانية واللاتينية شقيقتان مأخوذتان من السنسكريت لغة البراهمة الهنديين وان السلتية والالمانية والسلافية متفرعة منها ايضاً فمن مثل هذه المباحث ثبتت القربى بين الهنود والماديين والفرس في الشرق والبلاجيين واليونانيين في آسيا الصغرى واغريقيا وايطاليا والسلتيين والجرمانيين والسلافيين فى شمال البحر الاسود وفي جبال البلقان والالب

وقبل ان تتفرق تلك القبائل الجالية كانت قد استخدمت البقر والخيل من الماشية ووضعت النير في رقابها . وكذلك استخدمت الخروف والماعز والخنزير والاوز . واخذت في حرث الارض وصنع ادوات من بعض المعادن . وبعضها اقام المنازل الثابتة . وكان الزواج في عرف تلك الاقوام عقداً دينياً وكانت الاسرة اساس كل نظام عام وكانت القبيلة مجتمعاً من الاسر { العائلات } والشعب جمهوراً من القبائل وكان زعيم الشعب القاضي الاعلى فى السلم والقائد الاول في الحرب

وقد وجد عند تلك القبائل شيء من العلم بوجود خالق الا انها افسدته بجهلها فاتخذت من القوى الطبيعية آلهة ومعبودات

اما الساميون الذين استوطنوا ما بين دجلة والبحر المتوسط والبحر الاحمر فقد كانت لغاتهم تقارب لغات الاقوام المتقدم ذكرها ولذلك يظن انهم كانوا جميعاً من اصل واحد . والذي في التوراة ان العرب واليهود والسوريين والفينيقيين من نسل ابرهيم . وان فريقاً من الساميين رحلوا عن بلادهم واستوطنوا شرق افريقيا الى مضيق جبل طارق وبقي عندهم دون سواهم الاعتقاد بالاله الواحد

ويلخص مما تقدم ان الجيل الابيض انشعب شعبتين عظيمتين امتدتا من الشرق الى الغرب اي من وسط آسيا الى البقعة الغربية من هذه القارة الى شمال افريقيا فاوربا باسرها

فصل

في المناشئ الاولى للمدنية

استمر اجدادنا الاولون في حالة الهمجية حتى وجدوا اراضي خصيبة طاب لهم استيطانها لسهولة المعيشة فيها فاستراحوا قليلاً من الجهد المستمر في البحث عن القوت وانتظم مجتمعهم واكتشفوا اقدم الصنائع واتفقوا على النظامات الاولى التي دار عليها مدار

الفتهم ونشأتهم الحديثة

ولما كان الناس بطبعهم ينزعون الى استيطان السهول التي تحصنها الجبال وترويها الانهار كما تنحدر قطرات المياه من الاماكن المرتفعة الى الاماكن المنحطة لتنشئ مجاريها فيها كان الواقف على رسم آسيا يجد فيها بلا استغراب ان المناشئ الاولى للمجتمعات البشرية المنتظمة انما كانت الصين والهند واشور لما توفر في هذه البلدان من وجود الجبال العاصمة لسهولها والانهار المحيية لتربتها. وكانها بما طوتها عليه الطبيعة من الخصب العجيب ونشرته فوق اغوارها وانجادها من حلى المزروع والمغروس مهود اعدتها مزدانة بالازهار والثمار لذوي الحداثة من الشعوب . اما مصر في افريقيا فكانت كهذه الامصار من امهات الحضارة وان خالفتها بكونها لا جبال فيها

﴿ فصل ﴾
في الكتب الاولى

تبين علماء العصر من تصفح اقدم الكتب التي استطاعوا الوقوف عليها ان الشعوب الاولى ارادت ادراك كل شيء وتفسير كل شيء فنسبت الى المفعولات ما كان لعلتها من الحياة والقوة . ولكن تدقيق البحث في تلك الكتب بالمقارنات والمقاربة بين الاصول اللغوية والانفاس الانشائية اوصلنا الى

معرفة الشيء الكثير عن تسلسل الاقوام واصل وجود معتقداتهم ومع ان هذه المعرفة لا تزال غير تامة الا انها من المكتشفات الجليلة الفوائد التي لم تكن لتخطر على قلوب اهل القرون السابقة لهذا القرن

الباب الثانى

في الصين والمغول

فصل

في اقدم عهد للمدنية الصينية

يؤخذ من مطالعة الاسفار القديمة ان كل الشعوب كانت تبعد اصلها التاريخي الى ما تشآؤه من الازمان . ومنها الصينيون فانهم كانوا يزعمون ان اجدادهم وجدوا منذ ثمانين او مئة الف سنة قبل العهد المعروف من تاريخهم وهو يرد في حقيقته الى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد . ومشهور عن هذه المملكة ان فيها اقدم سجلات التاريخ لما كان غليه ملوكها من الرغبة في تخليد مآثرهم ولكن تلك السجلات لم يشرع في كتابتها بالاستمرار الا منذ سنة ٢٦٠٠

ولسنا ندري في اي زمان او على اي كيفية تالفت هذه الامة الكبيرة وانما نعلم انها ثابتة منذ اربعة آلاف سنة الى هذه

الايام على صفات واخلاق لم تتغير وانها كانت والهنود على طرفي نقيض من حيث الحالة المعاشية فهي قاصرة شغلها على زراعتها وصناعتها واستخراج كل الرزق الذي يسعها استخراجه من الطبيعة واولئك مكتفون بما توفر لديهم من خيرات بلادهم الخصيبة لاهون بالخيالات الدينية مجتهدون في استكثار آلهتهم متوغلون فى عالم الروح والتصور

وكانت ديانة الصينيين سمجة تفضلها آدابهم الخلقية فى المعايشة والمعاملة ومن كليات آدابهم القواعد الخمس الثابتة التي وضعها لهم الامبراطور شون فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد وهي تتضمن الواجبات المتعينة على كل من الآباء والابناء والملك والرعايا والشيوخ والشبان والزوج والزوجة والصديق وصديقه وكانت المملكة لذلك العهد مقسومة الى امارات وايالات واعمال ومدائن . وكان عدد كبير من الشعوب يحملون اليها الجزية وجمهور من الامراء ينتمون اليها

{ فصل }

في السلائل الامبراطورية وحكم الشرفاء في الصين

كان الملوك الى سنة ٢٢٠٠ يولون بالانتخاب ثم تأسست الوراثة للملك ولكن عظماء القوم كانوا يختارون بين اولاد الامبراطور المتوفى اليقهم بالخلافة

واول سلالة توارثت الملك فى الصين سلالة « هيا » وكان رأسها الملك « يو » واستمر حكمها اربعة قرون ثم انقرضت على كراهة ومقت بسبب ما ركبه آخر ملوكها من المنكرات وقام على اثرها رأس سلالة « شنغ » { ١٧٦٦ } وكان ملكا عظيما ذا حكمة وذكاء وقد اطنب في مدحه الحكيم كونفوشيوس

واتفق في عهده ان حدثت مجاعة فأراد استعطاف السماء لتخفيف تلك المصيبة فاعترف اعترافاً عاما على رؤوس الاشهاد بذنوبه واقتدى به خلفاؤه كلما وقعت رزيئة عامة على بلادهم . على ان آخر ملوك الشنغيين جاء اشبه بآخر الملوك من سلالة هيا . وحدث ان وزيره انذره يوما في امرٍ فقتله شر قتلة فثار عليه الامير « وو ونج » حاكم فوتشيو ودحره فجمع مقتنياته في قصر واحرقهُ والقى بنفسه في النار فمات سنة١١٢٢ واستوى « وو ونج » على عرش الصين فأنشأ المحكمة الشهيرة المؤلفة من اعضاء غير قابلين للعزل وذلك ليكونوا ذوي استقلال ويحكموا بمقتضى الحكمة السياسية الصينية التي كانت تستوجب « احترام الاجداد والسير في المسالك الحميدة التي سلكوها » وفي عهد هذه السلالة الثالثة كثرت الممالك التي تحمل الجزية الى الصين حتى بلغت ١٢٥ مملكة ويقال ان الصينيين في ذلك الزمان شيدوا المرصد الفلكي الذي لا يزال موجوداً واكتشفوا ابرة القبلة

والمزولة وعرفوا بعض الشيء من اصول الهندسة

﴿ فصل ﴾

في السور الكبير وفي احراق الكتب وفي اتساع المملكة الصينية
في اوائل التاريخ الميلادي

وفي مدة آخر عقب من أعقـاب تشيو ازداد عدد الممالك والامارات المستقلة في الصين ولم تلبث ان خلعته فقامت سلالة تسين ووحدت المملكة التي سميت باسمها { تسين ومنهـا الصين } وكان القائم بذلك الامبراطور « تسين شي هوانغ تي » {٢٤٧ ق م} وهو الذي ابتنى السور الكبير البالغ طوله ٢٥٠٠ كيلومتر لرد صدمات التتر وانشأ الطرق وخرق الجبال · غير انه طمع في جر ذيل العفاء على ماضي الصين ليبدأ تاريخها من عهده فاحرق الكتب واوقع بالعلماء والادباء ولكنه لم يستطع افناء جميع الكتب فبقي منها ما يدل على ما كان قبله · وانقرضت سلالته سنة ٢٠٢ قبل الميلاد وقامت سلالة الهان فاعادت حالة الصين الى سكينتها الاولى فاسترجع العلماء سيادتهم ونفوذهم وبلغت الصين اوج عظمتها وتقدمت جيوشها ظافرة الى بحر قزبين تجاه املاك الرومانيين وكانت جميع الملوك والشعوب الى البحر الشرقي خاضعة لها

﴿ فصل ﴾

في غارة المغول في القرن الثالث عشر

وكان القسم الاعظم من الدنيا المعروفة في ذلك الاوان مقتسما بين المملكة الصينية والمملكة الرومانية فلما تكاثرت الخلائق الهمجية المستوطنة ما بين السور الكبير الى بحر قزبين وطمعت في اغتنام ما كان محتشدا في السلطنتين المتقدم ذكرهما من الاموال والذخائر أخذت تتجهمر وتبرح صحراءها واحدة اثر اخرى فى أزمنة مختلفة فتنبثَ يميناً وشمالاً لشن الغارة عليهما . وسنرى ما وقع على رومه من بلية هذه الاقوام اما الصين فانها قسمت بعد فتكهم بها الى مملكتين يفصل بينهما النهر الازرق

وانتقل ملك الصين في ذلك العهد الى سلائل مختلفة لا تذكر واحدة منها بمأثرة الى ان قام الامبراطور «ينغ» من اسرة «تنغ» فضم المملكتين سنة ٦١٨ ولكنه لم يتسن له ان يجعل سلطنته على ما يكفي من المنعة لصد غارات المغول

وكان المغول قاطنين شواطئ بحر قزبين . وكانت منازلهم من الاكواخ القائمة على عجل يتنقلون عليها وهم يسوقون مواشيهم وكان الرجل منهم يقضي نهاره على صهوة جواده وربما مست الحاجة فقضى ليله راكباً . يقتات من اللحم المدقوق الذى يذخره بين السرج وظهر الحصان او من اللبن المجفف ولا يخشى التعب

ولا الفاقة ويطيع رؤساءه طاعة عمياء ويحب عصابته حبا شديداً ويفاخر بها

وان زعيم احدى العصائب المغولية وكان يدعى تمودجين جمع كل تلك العصائب سنة ١٢٠٣ تحت سلطته ولقب نفسه بجانكيز خان ومعناه زعيم الزعماء ووعد خيالته الموصوفة بالبسالة والمكر بانه يقودها الى فتح الدنيا باسرها

وأول عمل شرع فيه ايقاعه بالتتر الذين كانوا ساداته سابقاً فانتزع منهم ما كان لهم من الفتوحات فى الصين الشمالية وبعث ولاة عهده لاخضاع الولايات التي كانت جنوبي النهر الازرق وكوريا ثم زحف بجيوشه على غربي آسيا واوروبا تاركا وراءه الدمار في الفرس وروسيا وبولونيا حتى وصل الى سفح جبال بوهيميا . وكان هذا الملك الجديد اوسع ملك طلعت عليه الشمس الى ذلك الزمان غير انه لم يدم الا قليل وانما بقي المغول من بعده مستبدين بالحكم في روسيا مدة قرنين الى عهد ايوان الثالث في اوائل الازمان المتأخرة في التاريخ

ولما دنت منية جانكيز خان سنة ١٢٢٧ قسم ملكه بين ولاة عهده اربعة اقسام وهي الصين ودجاغاتاي اوتركستان وبلاد فارس والكابتشاك او روسيا الجنوبية . ولقب حفيده كوبلاى بالخان الاكبر وكان مالك الصين وتبت وبيجو وكوشنشين وله

السيادة على الاقسام الاخرى الى ضفاف نهر الدنيابر غير ان هذه السيادة لم تدم الا الى اواخر القرن الثالث عشر ثم تمّ الانفصال بين هذه الممالك الاربع

﴿ فصل ﴾

في اول من دخل الصين من اهل اوربا

وكان كوبلاى خان رأس سلالة يان { ١٢٧٩ } وقد تخلق باخلاق شعبه وحافظ على تقاليده واعان على تقدم المعارف والزراعة وانتحل دين بوذا الذى نشأ في الهند ودخل الصين منها وله نحو مئتى مليون تابع من الصينيين أى أكثر من نصف السكان . وفي عهده توصل رجل من البندقية يدعى ماركوبولو الى دخول بلاطه والانتظام في حاشيته فاقام لديه ١٧ سنة الى ١٣٦٨ التي طرد فيها الاجانب من الصين بسبب ثورة أهلية حدثت . ولا يزال ماكتبهَ ذلك الرجل محفوظاً وهو من الغرابة بمكان . وعلى اثر هذه الثورة تولت الملك سلالة منج الصينية مكان السلالة المغولية واستقرت فيه الى سنة ١٦٤٤ وكان البرتغاليون قد دخلوا ماكاوه سنة ١٥١٤ ومن ذلك يؤخذ ان سقوط سلالة منج كان بعد دخول الاوربيين الى الصين بزمان طويل :

﴿ فصل ﴾

في المملكة المغولية الجديدة في اسيا الوسطى والهند

وفي هذا العهد قامت اول قائمة للاتراك الذين كان منشأهم من تركستان وكانوا ذوى قرابة للمغول ٠ وفيه ظهر تيمورلنك او تيمور الاعرج الذي جمع اليه اشتات القبائل المغولية الرحالة وافتتح من سنة ١٢٧٠ الى سنة ١٤٠٥ بلاد تركستان وفارس والهند وآسيا الصغرى ودمر المغول المعروفين بالعصائب الذهبية في كابتشاك الا انه لم يتوصل مع ذلك الى كسر شوكتها وظهر على الاتراك واسر سلطانهم فى موقعة انسير التي تعرف اليوم بانقرة ولم تبق بعد ذلك مملكة قائمة في آسيا الا مملكة الصين فزحف عليها بالجماهير التي لاتحصى من مقاتلته ولكن المنية ادركته في اثناء مسيره

وكان قد شاخ في الحروب ولم يعرف الملل ولا الكلال ولم يزل الى اليوم معروفا في التاريخ بانه اظلم فاتح اما مملكته فانقسمت بعده واضمحلت ولم يبق منها الا جزء في شبه جزيرة الكنج بالهند واستمر قائماً الى ان استولى عليه الانكليز في اواخر القرن الخالي

﴿ فصل ﴾

في الصين في الازمان المتأخرة

ولما كانت سنة ١٦٤٤ اغار التتر المندشوريون من الجنوب على الصين وكان سكانها منغمسين فى بحبوحة الترف وملوكها من آل منج مهملين امر المعدات الحربية وتنشئة الامة على خلق البسالة ففتحوها واسقطوا بيت منج المتقدم ذكره واقاموا مكانه اسرة تسين منهم وهي لا تزال مالكة الى اليوم وتخلقوا باخلاق الصينيين ليسهل لهم قيادهم وافتتحوا بلاداً كثيرة ضموها الى الصين بحيث جعلوها على ما هي عليه الآن من الاتساع

وفى سنة ١٨٤٠ وقعت بين هؤلاء الامراء وبين الانكليز حرب الافيون الشهيرة التي انتهت بفتح خمسة من الموانئ الصينية للتجارة الاجنبية . وفي سنة ١٨٦٠ دارت رحى الحرب بينهم وبين الانكليز والفرنسويين معاً وكان ختامها بانتصار الفرنسويين على جيوشهم في باليكاوة واستيلائهم على بكين عاصمتهم

ومحصل القول ان الجيل الاصفر كان ذا شأن عظيم في الدنيا فمنه الهونيون الذين كان على يدهم سقوط المملكة الرومانية ومنه المغول الذين اقاموا تحت قيادة جانكيز خان اعظم مملكة في القرن الثالث عشر ومنه المغول الاخرون الذين دمر بهم تيمورلنك عشرين مملكة واهلك شعوبا برمتها . ومنه الاتراك الذين ظهروا

على النصرانية مدة قرون طويلة ومنه الشعب الصيني الذي تمتع بالحياة المدنية خمسين قرناً متواصلة وكان من تاريخه ما ذكرناه

﴿ فصل ﴾

في كنفوشيوس والامة الصينية

تقدم لنا ذكر هذا الحكيم الشهير الذي لا تزال تعاليمه حية بين قومه وعليها مدار نظامات الصين الى اليوم ولا بد لكل طالب علم ان يستظهرها لينال في الامتحانات الشهادات التي بها يحصى بين اهل المعارف وتخوله حق الدخول في المناصب

ولم يكن لكنفوشيوس في زمانه حق وضع الشرائع لقومه بل كان ينشر الحكمة بينهم ويعلمهم اياها ٠ ومن حكمه العظيمة قوله انه « لا شيء اسهل من الجري على المبادئ التي جرى عليها اجدادنا الحكماء الاقدمون ٠ فقد كانوا لا يحيدون عن النواميس الاساسية الثلاثة التي تقوم عليها الصلات بين المالك والرعية والاب والابناء والرجل والمرأة وكانوا يتمسكون بالفضائل الخمس الاصلية وهي محبة الانسان لابناء جنسه بدون تمييز بينهم٠ والعدل اي اعطاء كل ذي حق حقه بلا تفضيل لاحد على آخر٠ والمحافظة على العادات التي رسخت والاديان التي امرنا بها حتى لا تكون للامة الا حالة معاشية واحدة يستوي الناس في التمتع بحسناتها ويتشاطرون سيئاتها ونكدها ٠ والاستقامة اي طلب الحقيقة بلا

تضليل ولا خداع . والصدق اي الاستقامة في السير والخطاب ذلك ما جعل اجدادنا مجلين في حياتهم احياء بالذكر الجميل بعد مماتهم فعلينا ان نقتدي بهم ونحذو على مثالهم . اه

ومن تعاليمه الدينية قوله « ان السماء هي المنبع الذي خرج منه كل شيء وان اجدادنا خرجوا من السماء وولدوا الذراري التالية فاول واجب يتعين على الانسان ان يقوم بمفترض نعمة السماء وثانيه ان يعرف جميل الاجداد »

فيثبت مما تقدم ان الدين والحكومة في الصين مبدأهما الحب البنوي وبعبارة اخرى ميل الموجود الى من اوجده ولذلك كان الصينيون يكرمون السماء باعتبار انها مصدر كل الكائنات ويكرمون الامبراطور ابن السماء باعتبار كونه اباً للامة . على ان قوة هذا الميل هي التي حفظت الحالة الداخلية في الصين غير متغيرة مع ما تناوب البلاد من الغزوات وتوالى على عرشها من السلائل الوطنية والاجنبية

وهي التي جعلت تلك الامة المؤلفة من اربع مئة مليون من الناس تنعم بالعيش الرغيد بلا انقطاع . واذا نظرنا بالتدقيق الى تقدم الصين من حيث الاحوال المعاشية وجدناها لا تكاد تحسدنا على شيء خلا بعض المخترعات الحديثة العظيمة . فان اهلها يستغلون القمح والبقول والثمار والقطن والحرير والكتان وكثيراً من

قشور الاشجار التي يصنعون منها الانسجة . ويستخرجون المعادن ويتفننون في النجارة وصناعة الخزف والورق والصباغة وتقطيع الحجارة وتركيب العجلات . ولا يكاد يخلو مكان في مملكتهم من الطرق والترع والجسور المعلقة التي ترتفع فوق الانهار او تصل بين الجبال ولها متانة جسورنا مع كونها اخف منها

ولهم آداب لغوية قديمة العهد ترد الى اربعة آلاف سنة . وحكمة لا تقل عن سواها من تعاليم الامم المختلفة وعلوم مخصوصة لا يحتاجون معها الى علوم اوربا وهم اول الذين اكتشفوا ابرة القبلة والبارود والمطبعة . وفي كل ذلك لم يستعينوا بالاجنبي لانهم اعتبروا بماضيهم واحترموا حكوماتهم مع تبدل الملوك الذين تولوها

ولم يوجد فى الصين قط كهنة ولا شرفاء ولا ارقاء. ولا تفاوت فيها بين الناس الا بالجد والكفاءة والمعرفة التي بها يبلغ المناصب مستحقوها بدون التفات الى الاصل والجاه غير ان الصينيين مع سلامة مبادئهم وكثرة سعيهم فى التماس الرزق لم يلبثوا ان ابتلوا بالشقاء والفاقة والنقائص التي تنشأ عن كثرة الزحام والافراط فى الترف فدخل الكذب والاحتيال فى اصلح احوالهم النظامية والمذهبية وفشا الظلم واشتدت القسوة وعمت الرشوة ولزموا الانحطاط المعنوي حتى لم تكن لهم غاية سامية ينتهون اليها

فى دين او فلسفة او فن او صناعة . بل قصروا هممهم على طلب
حاجاتهم والسعي في ادراك ملاذهم الحسية ولم يشعروا بالآلام
الفكرية التي عاناها غيرهم من الشعوب ليحرزوا مجداً خالداً او
ينتقلوا من طور الى طور اصلح لهم وارقى ومن هذا القبيل لم
يستفد العالم من الصين شيئاً فهي فيه وكانها ليست منه . واذا جلت
فيها وجدت منازلها مبنية بالخشب والاجر بناء حقيراً لا رونق
له ولا معنى والفيت صناعتي التصوير والحفر فى انحطاط شديد
ولم تظفر من المرسوم او المنقوش بشيء يدلك على الحياة المعنوية
بل كل ذلك نقل عن الاشكال الحسية السمجة ولا يؤثر فى ناظره
الا تأثير الحركات الشهوانية

الباب الثالث

في الهند

فصل

في المقابلة بين الصين والهند

الصين والهند متتاخمتان ولا تفصل بينهما الا جبال حملايا
غير ان بينهما بوناً شاسعاً في الاخلاق والفطرة . في الصين
تجد الفكر جافا بعيداً عن الخيال ناظراً الى ما لديه لا الى ما وراء
الافق وفي الهند تجد الفكر سائداً عليه الوهم . وصاحبه بعيد

الاماني مولع بغير المرئيات

والحكومة في البلادين آلة واحدة غير ان الذين يديرونها في الصين هم العلماء واما الذين يديرونها في الهند فهم الكهنة . وكل رجل في الصين يستطيع الوصول الى ارقى المقامات واما في الهند فكل يلزم الطبقة التي ولد فيها ولا يخرج منها

﴿ فصل ﴾

في اول سكان الهند

تتألف الهند من وادي السند والكنج وشبه جزيرة دقهان وكان اول ساكنيها اناساً من الجيل الاسود آخرهم القوم المسمون بالغونديين ثم قطنتها بعدهم قبائل من تركستان تعرف بالتامولية والتلنجية وغيرها وهي فرع من الجيل المغولي ثم اقام فيها اناس سمر الالوان الى الحمرة وكانت اقامتهم في الشواطئ الشرقية للبحر الهندي . وليس للهند تاريخ يعرف الا منذ دخلها الآريون وهؤلاء كانوا فريقاً من قبائل كثيرة بيضاء تقطن القوقاف الهندي في مساكن مبنية . ولما تكاثرت مع كرور الزمان اعقاب تلك القبائل حتى ضاقت بهم بقعتهم الصغيرة وقامت بينهم المشاحنات والخصومات السياسية والدينية على قدم وساق هاجرت جماهير كثيرة منهم بلادها حتى ملأت نصف آسيا والهند واوربا باسرها . فمن اولئك المهاجرين السلتيون والبلاجيون واليونيون

في آسيا الصغرى والايرانيون في ماديا والفرس والجرمانيون والسلافيون من جبال اورال الى نهر الرين

اما الآريون فقصدوا الجنوب الشرقي واجتازوا نهر السند واخضعوا بنجاب التي كانت تعرف ببقعة الانهار الخمسة بعد قتال طويل ورد ذكره في سفر «الفيدا» وهو اول الكتب المقدسة واقدم كتاب للجيل الابيض . يشتمل على قصائد دينية وصلوات ويرجح انه وجد قبل الميلاد بست مئة سنة

ثم ان الآريين الذين استوطنوا بنجاب زحفوا قبل الميلاد بنحو خمس مئة سنة على وادي نهر الكنج وتقدموا الى مصابه التي تمتزج بمصاب نهر البراهمابوترا . غير ان جبال حملايا وكثرة عدد الامم المغولية فى الهند الصينية حالت دون تقدمهم الى جهة الشرق فاخذوا يتحاربون فيما بينهم حروباً ورد وصف اشهرها فى كتاب الماهابهراتا . وهو سفر يتألف من ٢٥٠٠٠٠ بيت من الشعر وفيه ذكر المواقع الهائلة التي وقعت بين قبيلة الكورو وقبيلة البانداويين الى ظهور البطل كريشنا الذى يعتقد الهنود انه هو الاله «وخنو» هبط الى الارض متجسداً . والظاهر ان هذا الكتاب الشعري اشبه بالقصيدة المعروفة بالالياد المنسوبة الى هوميروس . والامكنة التي حدثت فيها الحوادث المروية فيه لا تخرج عن وادي الكنج واشهرها مدينة دلحي

ويوجد ايضاً كتاب آخر شعري يسمى الرامايانا وصف فيه فتح الآريين لشبه جزيرة الهند ولجزيرة سيلان وناظمه يدعى فالميكي اودعه ٤٨٠٠٠ بيت من الشعر الجميل الذى يجعل له مكانا بجانب فرجيل وهوميروس

﴿ فصل ﴾

في تاريخ الهند

لا تاريخ للهنود الا ما كتبوه عن آلهتهم . وغاية ما يعرف عنهم في اول امرهم ان داريوس افتتح البلاد الواقعة الى يمين السند . وان الاسكندر وجد على الضفة الشمالية من السند ملوكا كثيرين منهم تكسيل ابيسار والملكان المعروف كل منهما باسم فورس ووجد ايضاً شعوبا كثيرة مستقلة وكان ينوي التقدم الى «باطنه» عاصمة امبراطورية البرازيين عند ملتقى نهري الدجمنة والكنج لو لم تحل دونه ثورة جنوده عليه عند شواطىء نهر ايفاز . ويروى ان رجلا هنديا خاملا يدعى تشاندراكوبتا عظم امره واشتدت سطوته فطرد الحكام الذين ابقاهم الاسكندر في بنجاب واسقط امبراطورية البرازيين . وان فاتحاً اخر معاصراً لقيصر يدعى فيكراماديتيا ملك ايضاً على قسم كبير من شبه جزيرة الهند وأدخل في بلاطه كاليداسا اشهر شعراء الهند صاحب القصيدة المعروفة بالسكونتالا . وان ملوك الباكتريان اليونانيين ملكوا قسما من وادى

السند ولا تزال لهم فيها انواط تدل عليهم وعقد واصلات تجارية مستمرة
بينه وبين مصر . وثابت ان تجاراً رومانيين انشأوا هنـاك متاجر
وكانوا في كل سنة يأتون بنحو عشرين مليونا من الفرنكات نقوداً
ليشتروا بها الحرير واللؤلؤ والطيوب والعاج والافاويه ومن ذلك
العهد اخذت الاموال تنصرف من جميع الاقطار الى الهنـد
فتتجمع فيها وتعظم بها ثروة امرائها على الخصوص فاطمع ذلك
مسلمي بلاد فارس في فتح الهنـد وفي اول القرن الحادى عشر
زحـف زعيم تركي يدعى محموداً الخزنويدي على الهنـد ففتحها
وغنم ما استطاع من ثروتها وادخل قسما كبيراً من اهلها في دينه .
ثم استولى المغول على البلاد بعد الاتراك وكان ملوكهم يقيمـون
في دلحي وبقي لهم الحكم المعروف بحكم المغول الكبار الى آخر
القرن الماضي . واول ما وقعت صلة بين اوربا والهند مبـاشرة
كان على اثر فتح رأس الرجآء الصالح ووصول فاسكودي غاما
الى كلكوتا سنة ١٤٩٨ ثم جاءها تجار من البرتغال فكسبوا المكاسب
الجمة وعظمت سطوتهم فيها الى ان خلفهم فيها تجار من بلجيكا ثم
من فرنسا وانكلترا . والهند اليوم قسم من المملكة البريطانية ويحكم
الانكليز فيها على مئتي مليون نفس من حملايا الى سيلان

فصل

في طبقات الناس في الهند

ورد في الكتب الهندية المقدسة ان المعبود الاكبر برهمه قسم الشعب الى اربع طبقات البراهمة او الكهنة الذين خرجوا من رأسه والقساطرة او المحاربين الذين خرجوا من ذراعيه والفايسية او الفلاحين والتجار الذين خرجوا من بطنه وفخذيه والسوادرة او المحترفين والاسرى والمغلوبين الذين خرجوا من رجليه

والطبقات الثلاث الاولى هي السائدة وكانت من الآريين الفاتحين وكان محظوراً عليها مصاهرة الطبقة الرابعة ٠ وكان الذين يولدون من اهل الطبقة الاخيرة او الذين يخرقون حرمة الشرائع الدينية يعدون انجاساً ويمنعون عن سكنى المدن وعن الاستحمام فى نهر الكنج المقدس وعن قراءة الفيدا ٠ ومن مسهم فهو نجس مثلهم

وكان للبراهمة دون سواهم حق قراءة الكتب الموحاة وتفسيرها وبما ان كل علم وكل حكمة كانا متضمنين في تلك الكتب على زعم المعتقدين بها كان البراهمة معدودين اطباء وقضاة وشعراء مع كونهم كهنة ٠ وقد سادوا بالتهويل الديني وكثيراً ما حاول الابطال والراجوات وهم الملوك الذين كانوا ينتخبون من بين المحاربين ان يتخلصوا من ربقة البراهمة ففشلوا

واضطروا ان يصبروا على سلطتهم مرغمين • وعندئذ استقر نظام الهند على قواعده التي لا تزال اركانها الاساسية محفوظة الى الآن • وتوجد تلك القواعد في كتاب شرائع مانو • ومانو هذا ورد ذكره في الفيدا بانه الاب العام للبشر والشارع الاعظم لهم • وشرائعه منظومة في ٥٣٧٠ بيتاً من الشعر مجموعة في كتاب مقسوم الى ١٢ باباً

﴿ فصل ﴾

في النظام السياسي والدين

ان شرائع مانو المزعوم انها موحاة تحتوى كتوراة موسى على تاريخ خلقة العالم والنظام الكهنوتي والمبادئ التي يجب ان يجرى عليها الفرد والاسرة والمدينة وواجبات الامراء واهل كل من الطبقات المختلفة والنظام المدني والعسكري وقوانين العقوبات والقوانين المدنية

وملخص كل ذلك بقاعدتين احداهما تقضي على الامة بخضوع طبقاتها بعضها لبعض وثانيتهما تقضي على الفرد بالطهارة الحسية والمعنوية

وقد اقرت شرائع مانو جميع الالهة التي ذكرت في الفيدا ولكنها جعلت فوقها الهاً يدعى برهم هو الكائن المطلق الدائم الروحاني المستقل الذى يصدر منه برهمة • وبرهمة هو المبدأ الحي

المحرك للعالم الذى تصدر منه المعبودة براماتامه المزعوم انها حياة العالم . وهذه المعبودة باقترانها مع ماناس الذى هو المبدأ العقلى تلد الكائنات طبقات ارقاها اقربها الى برهمة واقربها اليه اكثرها حكمة وعلماً وفضيلة . وهكذا كانت الالهة عند الهنود طبقات متسلسلة والكائنات المنبثقة منها متفاوتة كتفاوتها ولكل من الآلهة والكائنات مرتبته العالية او المنخفضة فى اثناء ذلك التسلسل العام بقدر ما عنده من الذكاء وما لعمله من الشأن . فبرهم هو الكائن الاول المطلق ويليه برهمه خالق العوالم ثم وخنو مدبرها ثم سيفا معيدها على طريقة التناسخ ثم الآلهة التي تمثل القوة الطبيعية وبعدها الانسان بدرجاته ثم سائر الكائنات مع تفاوتها

وللهنود ثواب وعقاب فى الدار الاخرة فالثواب للمتناهين فى الصلاح بان تعود نفوسهم الى روح المعبود الاكبر وتلزمها غير مفترقة عنها ولسائر الصالحين بان يدخلوا جنة نعيم ذات سبعة وعشرين مكانا

والعقاب للمجرمين ان يلقوا في {النارا كا} او الجحيم وفيه واحد وعشرون مكاناً يختلف فيها العذاب شدة باختلاف جرم الذنوب ومع ذلك فالذين فى الجحيم والذين فى النعيم لا يلبثون ان يعودوا الى الارض بصور اخرى مترقين فى كل عودة ترقياً جديداً من

طبقة الى ما فوقها الى ان يولدوا كهنة فاذا ماتوا لزمت نفوسهم روح برهم ولم تنفصل عنه

﴿ فصل ﴾

في البوذية

وجد فى القرن السادس قبل الميلاد رجل يدعى ساكيموني لقب بالحكيم اوبوذا . وكان والده اميراً في قطر مجاور لنابول . ولما بلغ التاسعة والعشرين من العمر تخلى عن ملك ابيه وثروته واسرته وانفرد في القفر يطلب معرفة الحقيقة . وفي السادسة والثلاثين عاد من القفر واخذ يخاطب الجماعات على اختلافها بدون نظر الى تفاوتها في الطبقات وكان يحدثها بالامثال فيؤثر في النفوس تاثيراً عظيماً

على ان مخاطبته باسرار الدين للطبقة السفلى كان خروجا منه عن قاعدة الدين البرهمي القاضية بمنع تعليم مثل ذلك للسوادره

وكان فضلا عن ذلك يهدم اساسات الدين المذكور بتعليمه ان الناس امام الشرائع الادبية متساوون وان الفضيلة ما يفعله الانسان من خير لا ما يقوم به من الشعائر الدينية . وان كل امرئ من اي طبقة كان يحصل بتقواه وفضله على النجاة والاتحاد بالجوهر الالهي . وان كلا من غني وفقير يستطيع ان

يكون كاهناً . وان للانسان ستة مكملات العلم وقوة العزيمة على مقاومة الشهوات والطهارة والصبر وحب الناس والبر

وكان يقول لهم « اني اتيت لافرغ الحكمة في قلوب الجهلة والحكمة هي العلم والفضيلة والصدقة . والرجل الكامل لا يعد شيئاً اذا لم يغث الملهوفين . ان تعليمي لهو تعليم رحمة . ويجده السعداء في هذا العصر صعب المراس ويأنفون من الانقياد اليه لشرف اصلهم ولكن باب الخلاص مفتوح لجميع الذين يبيدون شهواتهم ورذائلهم كما يحطم الفيل كوخ القصب »

وقد انتشر هذا المذهب الحسن انتشاراً عظيما وعلى الخصوص بين السوادرة والمحاربين . واستمر صاحبه يجاهد في تأييده مع مقاومة البراهمة الى ان بلغ الثمانين . ولم يحتج قط الى الاستعانة بالقوة وكان يوصي باحترام الامراء والقيام بما يجب لهم فلم يضطهدوه . وبعد وفاته عقد تلامذته مجتمعاً اشترك فيه خمس مئة من رجال هذا الدين فتناقشوا سبعة اشهر الى ان قرروا قواعد المذهب واوضاعه ثم زادوها جلاءً وتثبيتاً في مجتمعين آخرين عقدوا احدهما في القرن الخامس قبل الميلاد والثاني قبل المسيح بمئة وخمسين سنة

وخلاصة هذا الدين انه عدل الدين الهندي القديم من حيث فتح باب النجاة للجميع على السواء وزاد على الآلهة القديمة

آلهة جعلها اطهر منها

وكان معبد البوذيين لا يوجد فيه الا تمثال بوذا يكرمه الناس تكريما ولا يعبدونه عبادة وكانت لاتقدم فيه ضحايا ولا تجري حفلات خرافية • كل ذلك قبل ان يدخل الفساد على هذا الدين

الا ان البراهمة لم يلبثوا ان اضطهدوه وامروا بقتل ذويه من سيلان الى حملايا ففازوا بمعظم امنيتهم في الهند ولكن البوذية انتشرت في تبت التي هي مركزها الاكبر الآن وفي بلاد المغول والصين والهند الصينية وسيلان

وتوجد في الهند آثار صناعات بديعة كالبناء والنقش والنحت والتصوير • وفي الجملة فقد اختص اهلها بثلاثة من الامور التي امتازت بها الامة اليونانية على سائر الامم وهي الفكر والشعر والصناعة

الباب الرابع

في تاريخ مصر

فصل

في قسمة تاريخ مصر

يقسم تاريخ مصر القديم الى عهدين العهد الابعد والعهد

الادنى ويشتمل الاول على حوادث الزمان الذي مر من تاريخ ملك مينس اول الفراعنة الى سقوط الوجه البحري تحت حكم الرعاة ويشتمل الثاني على حوادث الزمان الذي مر من تولي الرعاة الى استيلاء الفرس على القطر

وجملة الاسر التي ملكت مصر في العهدين المتقدم ذكرهما ست وعشرون منها اثنتا عشرة في الزمن الابعد والباقية في الزمن الادنى

وكانت الاهمية العظمى قبل الفراعنة لمملكتي ثيبة وثيس ثم انتقلت معهم الى مدينة منفيس او منف التي شادها ميناس على مدخل الدلتا

ويؤخذ من بعض المطالعات ان مصر كانت في عهد ابراهيم ذات حكومة منظمة وانها تلقت مبادئ المدنية والعلم من كهنة احباش هجروا وطنهم فى جمهور من اتباعهم ايام كان ميرواى قائماً بتدبير الدولة الحبشية وهبطوا اليها من النيل الاعلى ونشروا تعاليمهم فى جميع ارجائها وهم الذين اسسوا مملكتي ثيبة وتيس

﴿ فصل ﴾

في ذكر سكان مصر الاولين

ليس القطر المصري بالقطر الذي قام فيه اول مجتمع متمدن ومع ذلك فتاريخه يشمل سبعين قرنا وهو صحيح الرواية عن كثير

من الوقائع والرجال . ولا تزال اسماء جمهور من ملوكه وأفعالهم منقوشة على الابنية التي ملأوا بها البلاد وينسب تشييد هرم صقارة ذي الدرجات الى الملك الرابع من السلالة الاولى

ولم يات اول سكان مصر من الغرب هابطين اليها مع النيل كما كان يظن سابقاً ولكنهم اتوا من الشمال مارين ببوغاز السويس . وكانوا من الجيل الذى تسميه التوراة بنسل حام وكان العرب يدعونهم بالحمر بسبب لون جلودهم والظاهر انهم هم الذين عرفوا باسم الكوشيين وكانوا اول المستوطنين لشواطئ البحر الهندي بطوله وشواطئ خليج العجم والبحر الاحمر . والمحققون على انهم كانوا اهل ولايات صغيرة الى ان قام بينهم زعيمهم الشهير مينس فساد على جميع الوادي من البحر الى شلالات سيان او اصوان واصبح رأس السلالة الملكية الاولى قبل الميلاد بخمسة آلاف سنة . ولا يعرف شيء يذكر عن هذه المدة المجهولة سوى دعوى المصريين فيما بعد بان زمرة من الآلهة كانوا ملوك مصر في تلك الازمان ثم خلفهم انصاف الآلهة او الكهنة نوابهم وخلف هؤلاء جماعة من المحاربين . ذلك ما كان يدعيه المصريون جريا على عادة الاقدمين في الرواية عما جهلوه من اخبار سلفهم او عما ارادوا تعظيمه من شأنهم . واما العرب فقد نقلوا في تواريخهم عن الامم الاجنبية احاديث لا يعول على اكثرها لثبوت فساده وانما نروي هنا عنهم بعض ما قالوه

عن فراعنة مصر ونروي في غير هذا المكان شيئاً مما قالوه عن المتقـدمين من ملوك بعض الامم الاخرى على احتمال ان تكون بعض الاسماء التي يذكرونها والوقائع التي يحكونها لا يخلو من الصحة اذ لا يزال المحققون يبحثون فيه ولم يهتدوا الى نقضه او اثباته . قال ابو الفداء قال ابن سعيد واسـنده الى الشريف الادريسي ان اول من ملك مصر بعـد الطوفان « بيصر » بن حام بن نوح ونزل مدينـة منف « منفيس » هو وثلاثون من ولده واهله ثم ملكها بعده ابنه « مصر » وسميت البلاد به لامتداد عمره وطول مدة ملكه ثم ملك بعده ابنه « قفط » ثم اخوه « اتريب » واتريب المذكور هو الذي بنى مدينة عين شمس وبها الآثار العظيمة الى الآن ثم ملك بعـده اخوه « صا » وبه سميت مدينة صا وهي مدينـة خراب على النيـل من اسفله ثم ملك بعده « تذارس » ثم « ماليق » بن تذارس ثم « حرابا » بن ماليق ثم « كلكلي » بن حرابا ثم « حريبا » بن ماليق ثم «طوليس» وهو فرعون ابرهيم . اه ملخصاً

وفي عهد السلالة الرابعة اي قبل الميلاد بنحو ٤٢٠٠ سـنة ظهرت كل عجائب الحضارة المصرية وارتقت الصناعـة على الخصوص مرتقى لم تكد اعظم اعصار الصناعة بعده تبلغه . وكان ذلك منتهى ما استطاعت مصر ادراكه من العظمة والابهـة فلم

تزدها عليه القرون التالية شيئاً مذكوراً

واشهر عظماء السلالة السادسة فاتح يدعى بابو وملكة اسمها نيكوتريس كان يلقبها مانتون بالجميلة ذات الخدين الورديين وهي التي انتقمت لاخيها بدعوتها قاتليه الى مأدبة في بناء تحت الارض واطلاقها عليهم مياه النيل بغتة

ثم ان الآثار تقل من السلالة السادسة الى الحادية عشرة ومن اجل ذلك لا يذكر التاريخ عن تلك المدة شيئاً ولعل مصائب عظيمة اصابت القطر فيها فتوارى تاريخه في ظلماتها وعند تولي السلالة الثانية عشرة كان الملك قد انتقل كرسيه الى ثيبة بسبب انسلاخ قسم كبير من القطر عنه فاعاد ملوكها الدولة الى ما كانت عليه قبلاً وافتتحوا الحرب الهائلة التي وقعت بين مصر والحبشة . واشهرهم امنمحات الذي احتفر بحيرة موريس على مساحة عشرة ملايين متر مربع لتعديل الفيضان على الضفة اليسرى من النيل ولم يبق منها الى الآن الا ما يعرف ببركة القرون

﴿ فصل ﴾

في دولة الرعاة او الهيكسوس سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد

كانت مصر في عهد السلالة الخامسة عشرة تحت حكم الملك تيماوس قبل الميلاد بالفي سنة فدخلتها عصابة من الرعاة من

طريق بوغاز السويس وافتتحت الذلتا ومصر الوسطى وكانت السلالة السابعة عشرة من ملوكهم فلقبوا بالهيكسوس وجعلوا كرسيهم ممفيس وحصنوا مركز افاريس وهو الذي قام على اطلاله الآن ثغر بور سعيد وذلك ليمنعوا امثالهم من العصابات الرحالة ان يشنوا الغارة على مصر بعدهم كما فعلوا . واستتب لهم الملك خمسة قرون ثم تغلب عليهم ملوك ثيبة فردوهم الى اسوار افاريس ثم طردهم منها اموزيس سنة ١٧٠٠ فخرجوا من القطر

﴿ فصل ﴾

في عظمة مصر من القرن الثامن عشر الى القرن الثالث عشر قبل الميلاد

ومر على مصر بعد طرد الرعاة عصر تقدم استمر نحو الف سنة . وكان بدؤه على يد امراء السلالة الثامنة عشرة {١٧٠٣ — ١٤٦٢} . وفي هذا الزمان كان كبار اليونانيين يأتون مصر ليقتبسوا من علومها وصنائعها

واشهر ملوكها اموزيس الملقب بالمنقذ وتوطميس الاول الذي اقام الآثار على شواطىء الفرات والنيل الاعلى ذكراً لانتصاراته . والملكة هاتازو التي كتب ذكر غلباتها في هيكل الدير البحري بثيبة . وتوطميس الثالث فاتح آسيا الغربية والسودان وهو الذى قال فيه احد الشعراء انه جعل حدود

مصر حيث شاء . وتوجد هذه العبارة منقوشة على رأس عمود في متحف الجيزة . وامنوفيس الثالث الذي دعاه اليونانيون ممنون وهو صاحب التمثال الذي كانت تسمع له رنة عند اشراق الشمس

واستمرت هذه العظمة لمصر تحت حكم السلالة التاسعة عشرة فان احد ملوكها وهو ساتي الاول زحف الى ارمينيا وابتنى غرفة في الكرنك من اجمل مصنوعات الهندسة المصرية واحتفر من النيل الى البحر الاحمر ترعة لا تزال آثارها تدل عليها وبئراً على طريق بعض مناجم الذهب كان يخرج منها الماء كما يخرج من الينابيع او كما يستخرج من الآبار المعروفة في هذه الايام بالارتازية . وخلف هذا الملك سزوستريس الثاني الذى نسب اليه اليونانيون كل فتوحات الملوك السابقين عن خطاء . وكان مع ذلك بطلاً تشهد بفعاله آثار ابنية شادها في بيروت وقصيدة محفورة على احد جدران الكرنك . واكبر مزية كانت لهذا الملك حبهُ للبناء فقد اقام هيكلي ابسامبول بثيبة ومسالّ الاقصر . وكان يستخدم الارقاء لهذه الابنية ومنهم الاسرائيليون الذين كانوا منتشرين في الوجه البحري واضطروا ان يحفروا مقاطع الحجارة ويصنعوا اللبن ويبنو الحواجز الواقية للمدن من الفيضان . على ان شدة استبداد هذا الملك بهم

اوجدت عندهم البسالة والحزم فلم يكن عهد ابنه منبتاه حتى خرج الاسرائيليون من مصر . ولا يزال ضريح هذا الملك في وادي باب الملوك

﴿ فصل ﴾

في انحطاط مصر وذكر غارة الاحباش

كان ابتداء السلالة العشرين بملك عظيم يدعى رعمسيس الثالث . فتح عدة بلاد في سوريا والسودان ولكن مصر اخذت بعده في الانحطاط لانها ضعفت بسبب كثرة الفتوح فهي لم تكتف بالارض الخصيبة التي يرويها النيل وتذود عنها الصحراء بل تطاولت الى اخضاع آسيا وبلاد الكوشيين وبلاد الليبيين حتى جزيرة قبرص لتكون لها بذلك السيادة على البحر

ولما تولى الملوك المتقاعدون على اثر الفراعنة الباسلين دس الكهنة لهم الدسائس فاسقطوهم واجلسوا الكاهن الاكبر لعامون على سرير ثيبة وقامت في الوقت نفسه السلالة الحادية والعشرون على عرش تانيس في الدلتا . وكان انقسام مصر هذا سبباً في خضوعها لنفوذ الشعوب المجاورة لها عوضاً عن ان تكون صاحبة السيادة عليها . ومن تفنن ملوكها الساقطين في تلك الايام انهم اتخذوا لهم اسماء اشورية وادخلوا الاميرات منهم فى حرم سليمان وجعلوا حراسهم من الليبيين فلم يلبث هؤلاء ان قسموا البلاد

بين زعمائهم وملكوهم اياها . وغنم الاثيوبيون فرصة هذا النزاع فاستولوا على القطر واحرق ملكهم ساباكون ملك مصر حيا وهو بوكوريس من السلالة الرابعة والعشرين واستمر ملك الكوشيين على مصر خمسين سنة من ٧١٥ الى ٦٦٥ قبل الميلاد بعد ان كانوا خاضعين لها الازمان الطويلة . وكانت سلالتهم الخامسة والعشرين . ومن ملوكها المعروفين سباكوس او سوا الذى استعان به اوزاي على شلنمصر كما جاء فى التوراة ومنهم تراكا الذى انجد حزقيا في مقاتلته لسنحاريب . وذكر مانتون انها قامت ثورة ارجعت ثالث اعقاب الملك ساباكون مدحوراً الى بلاد أثيوبيا وانها كانت في مقدمة الثائرين اسرة اصلها من مدينة سايس الصعيدية نشأت منها السلالة السادسة والعشرون { ٦٦٥ } وقد ذكر هيرودتس في تاريخه راس هذه العائلة واسمه بساميتيخوس

﴿ فصل ﴾

في اخر الفراعنة

قال هيرودتس ان اخر الملوك الاثيوبيين رأى حلما ازعجه فعاد الى بلاده وفوض الاحكام الى كاهن يدعى سيتوس ولما توفي هذا قسم المحاربون الملك بين اثني عشر منهم وكان بساميتيخوس احدهم فاستعان بقرصان من الكاريين واليونيين على زملائه

واسقطهم

ولكثرة اعجابه بمهارة اليونانيين العسكرية احتاط منهم بعدد كبير فاغضب بذلك الجيش المصري فهاجر منه كثيرون الى الحبشة. ثم حاول ان يستعيد ملك سوريا فحاصر فيها مدينة ازوت الكنعانية ولم يفتحها الا بعد ٢٨ سنة

اما خلفه نيكاو فاستأنف حفر ترعة ساتي بين البحر الاحمر والبحر المتوسط وارسل اناساً من الفينيقيين للطواف حول افريقيا وقهر يوشيا ملك يهوذا في مجدو . ثم تقدم الى الفرات ولكن البابليين انتصروا عليه فذهبت من يده كل البلاد التي فتحها

ثم خلف نيكاو ابرياس فقاتل السيرانيين وهم طائفة من اليونان كانوا مستوطنين قطعة من افريقيا القديمة بجوار القطر المصري فظهروا عليه فسخط عليه جنوده وظنوا فيه الخيانة واقاموا مكانه رجلاً منهم يدعى امازيس وفي عهده لاح آخر بارق للعمران والحضارة في مصر . قيل كان في ذلك الزمان عشرون الف مدينة قائمة على ضفاف النيل

واهم ما عمله هذا الملك انه وهب اليونانيين مدينة نوكراتيس وعقد صلات ودادية مع ملوك ماديا وليديا وبابل وكانوا جميعاً في خوف من عصائب جبلية يدعى رجالها بالفرس نمت واشتد

باسها واتسعت فتوحاتها حتى طمعت في ممالكهم . ولم تلبث ان فتكت بهم واسقطتهم واخذت بلادهم ولم تغنهم نجدات امازيس ولما توفي هذا الملك وخلفه ابنه بسامنيت اسقطه القائد الفارسي كامبيز لستة اشهر من حكمه وفتح مصر {٥٢٧}

فصل

في مصر لعهد الفرس واليونانيين والرومانيين والعرب

ومن ذلك العهد فقدت مصر استقلالها ولم تستعده مع انها ثارت مراراً لخلع نير الاجانب عنها. وقد تولاها الاسكندر بعد الفرس وابقى فيها مدينة الاسكندرية المسماة باسمه {٣٣١} وخلفته فيها سلالة اللاجيديين نسل بطلميوس احد قواد الاسكندر فطاب حكمها مدة قرن وخبث مدة قرنين ثم خلفها الرومانيون على اثر موت كليوباترا {٣٠} والغوا الديانة الفرعونية سنة ٣٨١ بعد الميلاد فدمروا الهياكل وحطموا تماثيل الآلهة ولم يبقوا من تلك المدينة الشهيرة الجليلة الا آثاراً يبحث عنها المؤرخون فى هذه الايام

فتنصرت مصر وظلت كذلك على الرغم منها مدة قرنين ونصف قرن بلا راحة ولا سكينة وفي سنة ٦٤٠ للميلاد فتحها العرب وادخلوا اليها الدين الاسلامي فازهر كثيراً في عهد الفاطميين الذين ابتنوا القاهرة وشادوا فيها الازهر الشريف

﴿ فصل ﴾

في الدين والحكومة والصنائع في مصر

كان في مصر دينان احدهما للشعب والآخر للكهنة وكان الاول ماديا سمجاً الّهوا به بعض الحيوانات واشهرها الثور ابيس والثاني ارقى منه وكان اصحابه ينسبون كل ما يحدث من خير الى اوزيريس اله الخير ومن شر الى تيفون اله الشر . والظاهر ان هذا الدين كان في اول امره يعلم بوجود اله واحد لا مبدأ له ولا نهاية ودار اخرى بعد الحياة بدليل شدة عناية المصريين بحفظ جثث موتاهم

وفي الكتابات الباقية ما يدل على انهم كانوا يقولون بالتناسخ على طريقة الهنود . وعند ما فسدت عقيدة المصريين بالاله الواحد قالوا بوجود معبود اول هو اوزيريس او الشمس مصدر كل حياة ومعبود ثان هو ايزيس او الطبيعة ومعبود ثالث هو هورس نجلهما

اما الحكومة فكانت ملكية مطلقة كل الاطلاق وذلك لاعتقاد المصريين ان الملوك هم « ابناء الشمس » ولهم حظ من الالوهية

ولم تكن عند المصريين طبقات ممتازة كطبقة الكهنوت وطبقة الشرفاء وطبقة العامة بل كان الناس فيها على فرق

لا تتوارث ذكر هيرودتس سبعاً منها وهي الكهنة ثم المحاربون ثم الحراثون ثم الرعاة ثم التجار ثم البحارة ثم التراجمة . وكانت ايضاً توجد فرق اخرى فرعية كثيرة وكان الولد بحكم العادة لا اللزوم ينشأ على مهنة ابيه في الفرقة التي هو منها ولكن لا يمتنع عليه الترقي والخروج منها والدخول في اخرى يكون اهلا لها . وكتب ديودوروس ان الحنث باليمين او الكذب فيها كان عقابه الموت وان الذي كان يرى رجلا تحت القتل ولا يبادر لانقاذه يقتل وان النمام كان يعاقب

وكان كل مصري مكلفاً بايداع كتابة لدى القاضي يذكر فيها وجوه ارتزاقه ومن ذكر غير الحقيقة كان عقابه شديداً . وكانت تقطع يدا مصطنع النقود الزائفة ولسان الجاسوس الذي يبوح للاعداء باحد اسرار المملكة

وكان لا يجوز ان يتجاوز الربى رأس المال . واذا عجز مدين عن تأدية ما عليه فهو مسؤول عن دينه بماله ومقتناه لا بذاته . ومن شاء رهن موميا والده في دين فاذا لم يفه حرم الدفن في مدفن اهله عند مماته

وقد مهر المصريون في فنون كثيرة صناعية وبرعوا في تركيب الآلات واستخدامها ونبغوا في الهندسة وعلم الكائنات . واخترعوا الخط الهيروغليفي الذي كانت حروفه بادئ بدء تمثل

الاشياء وترسم بعض المعاني ثم اضيفت اليه لتتمته علامات صوتية كالحروف والاهجية المستعملة في لغاتنا . والمحققون على ان اللغة القبطية مشتقة من اللغة المصرية القديمة التي هي فرع من شجرة اللغات السامية

ومما خرج فيه المصريون فن التلوين الذى لا يفنيه الدهر ولا تزال الوان بعض آثارهم ساطعة ثابتة الى هذا اليوم . وكذلك كان لهم الباع الاطول في صنع التماثيل التي ضاهوا بها اليونانيين . واما ابنيتهم بفخامتها وعظمة منظرها فهي فاقدة المثل في الدنيا . تشهد بذلك هياكل ثيبة وبهو الكرنك القائم على مئة واربعين عمودا ضخماً اكثرها يبلغ ارتفاعه سبعين قدما وقطر محيطه احدى عشرة . والاهرام التي يبلغ ارتفاع احدها مئة وخمسين متراً . والمسلات والقرافات المبنية تحت الارض وابو الهول الكبير الذي تبلغ المسافة من ذقنه الى اعلى رأسه ستا وعشرين قدما . وبحيرة موريس والجسور والترع المعدلة للنيل وغيرها مما تدل جملته على انه لم يشتغل شعب بالتراب والحجر بقدر ما اشتغل بهما المصريون



الباب الخامس

في الاشوريين

﴿ فصل ﴾

في نهري الدجلة والفرات وفي مدينتي بابل ونينوى

يحد هذان النهران العظيمان بلاد ما بين النهرين وهي جبلية من جهة الشمال لكنها في وسطها وجنوبها رملية منبسطة · وكان اول سكان القسم الجنوبي منها شعب الكوشيين الذين ورد ذكرهم آنفاً واول سكان الجهات الجبلية قبائل عرفت بالتورانية يظن ان منها الرعاة فاتحي مصر واول سكان الوسط قبائل سامية بيضاء اشتهرت في التاريخ باسم الاشوريين والعبريين والعرب والفينيقيين ويذهب بعض المؤرخين الى ان الملوك الرعاة كانوا من العرب · وقد قامت فيما بين النهرين مدينتان عظيمتان احداهما بابل على الفرات والثانية نينوى على دجلة وكانتا بالتداول عاصمتي المملكة الاشورية · وليس في القدم اشهر من بابل التي كانت جدرانها تبلغ استدارتها من ١٥ الى ٢٠ ميلا او من ٦٠ الى ٨٠ كيلومتراً ويبلغ ارتفاعها من ٣٠٠ الى ٤٠٠ قدم فوق الارض · وكان الكهنة الكلدانيون يردون عهد بنائها الى ٤٠٠٠٠٠ سنة ولكن التوراة جعلته في زمان نشأة الشعب العبري وجاء فيها ان نمرود الصياد الشهير هو الذي اسسها وملكها

لخلفائه من بعده الى ان رحل الايرانيون من بلادهم رحلتهم
الكبيرة فاستوطن قسم منهم بالقرب من السند والآخر في
وسط بلاد فارس ومنها تقدم الى بابل فاخضعها ثم لم يلبث ان
طرد منها ورجعت الى سادتها الاولين ٠ ثم استولى عليها فراعنة
الدولة الثامنة عشرة مدة قرنين او يزيدان وكان يحكمها ملوك
من زعماء العرب تابعون للفراعنة وعند ما اخذت مصر في
الانحطاط تحرر الامراء الاشوريون من ربقتها واخذوا يغزون
فدوخوا البلاد من الفرات الى لبنان واستولوا على البقاع الواقعة
شرقي دجلة وجعلوا ماديا من ولاياتهم ٠ ويزعم الكاهن الكلداني
بيروز انهم وصلوا الى بكتريانا والهند ٠ ولكن تاريخ الاشوريين
لا يخرج من الظلمات الا في عهد اسورنازيبال وابنه سلمنصر
الذي ورد في التوراة ذكر محاربته للعبريين وانتصاره على آكاب
ملك اسرائيل ٠ وكان من خلفائه الملك نينوس الذي توفي عن
الملكة الشهيرة سميراميس امرأته فنهضت باعباء جميع هذه المملكة
ووسعت بابل وابتنت فيها الارصفة والحدائق المعلقة واقامت
حواليها جداراً طوله سبعون الف متر وعرضه ممشى ست مركبات
مصفوفة ٠ وكان سردانابال آخر ملك من ملوك السلطنة الاشورية
الاولى ٠ عاش عيشة انثة فاثار بها عليه القائدين فول الكلداني
وارباسيس المادي فحارباه فانتصر عليهما اربع مرار ثم فازا عليه

وحصراه في نينوى فالقى بنفسه في النار مع نسائه وامواله {٨٧٩} وهدمت نينوى

﴿ فصل ﴾

في الدولة الاشورية الثانية (من ٧٤٤ الى ٦٠٦ قبل الميلاد)

وكان الماديون قد استقلوا ببلادهم على يد ارباسيس والبابليون قد تولوا ملك اشور على يد فول زعيمهم فدفعه هذا الانتصار الى استئناف الغزو للشعوب المستوطنة غرب الفرات فظفر عليهم واضطر مناحيم ملك يهوذا الى دفع الجزية له . وبوفاته نهض الاشوريون تحت قيادة احد احفاد ملوكهم الاقدمين واسمه تغلث فلاصر { ٧٤٤ } فانتصروا على بابل واقاموا الدولة الاشورية الثانية . فعظمت جدا بفتوحات هذا الملك الذي نشر سلطته من فلسطين الى الهند وبانتصار خلفه سرغون في رافيا على سباقون الحبشي وبفتوحات سنحاريب الذي اعاد بناء مدينة نينوى {٧٠٧} واسر حدون فاتح مصر { ٦٨١ } وسردانابال الثاني مخضع آسيا الصغرى . ولكن نهاية هذه السلطنة الكبيرة كانت كنهاية الاولى من حيث اتحد الاشوريون والماديون وثاروا معاً على الملك ساراق فاقتدى بسردانابال والقى بنفسه وامواله في النار ودخل المنتصرون نينوى فدمروها من اساساتها {٦٠٦} ولم تقم بعد ذلك لها قائمة واستمرت اربعة وعشرين قرنا ونصف

قرن ممحوة من وجه الارض الى ان توصل احـد علمـاء الاثار الفرنسويين سنة ١٨٤٤ الى الوقوف فى بلاد الموصل على بعض اثارها واكتشاف اسرار الكتابة بلغتها المعروفة بالمسمارية

﴿ فصل ﴾

في الدولة الاشورية الاخيرة وفي استيلاء سيروس على بابل
(٥٣٠٠ ق م)

وخلفت بابل نينوى فعادت كرسي الملك ومن الملوك الذين قاموا فيها نبوخذ نصر العظيم الذى استظهر على نبتشاو المصري في سير سازيوم وهدم اورشليم { ٥٨٨ } وفتح صور بعد حصار استمر ١٣ سنة وأخضع القطر المصري وزين بابل بالابنية الشاهقة الجميلة . وكان الذين خلفوه اربعـة من الملوك عاشوا في الترف والعار وفي عهد آخرهم حاصر سيروس ملك فارس مدينة بابل ودخلها من عقيق الفرات وقد جففه { ٥٣٨ } وجعلهـا احدى عواصمه . ثم اقتدى به الاسكندر ولكن بعض الملوك اليونانيين الذين قاموا فيهـا بعده هجروهـا وابتنوا على الفرات مدينـة سلجوق فاستعاضوا بها عنها . وليس يرى في مكانهـا اليوم الا آثار قلما يمر بها انسي . ولما اعاد البارتيون بادئ بدء والفرس من بعدهم تشييد المملكة الشرقيـة العظمى التى لم يستطع

الرومانيون اسقاطها كما ارادوا اختار ملوكهم مدينة كتازيفون على الفرات كرسياً لهم . ثم ساد بعدهم العرب على تلك البلاد فشيدوا بغداد وجعلوها ملكة قرى الشرق ولا تزال الى اليوم احدى المدائن الكبرى تحت سلطة الخليفة العثماني

﴿ فصل ﴾

في الحكومة والدين والصنائع في اشور

كان ملك نينوى كسائر الملوك الشرقيين صاحب السلطة المطلقة على حياة رعاياه واموالهم وكان الشعب متساويا ليس بينه تفاوت بالطبقات .

وكانت العامة من الشعب تعبد بعض السمك وبعض الطير والكهنة يعبدون الكواكب واعظم الهتهم باعل او الشمس . ومما ادخلوه في اذهان الناس لاستجرار الاموال منهم ان في النجوم ارواحا تؤثر على حال الانسان ومآله . وكان لهم اشتغال مستمر بها وهم الذين وضعوا لدائرة محيط الكرة اثنتي عشرة علامة وقسموا الدائرة الى ٣٦٠ درجة والدرجة الى ٦٠ دقيقة ووضعوا حساب انخساف القمر ونظاما للوزن والقياس وسك النقود كان عليه مدار التجارة في جميع العالم القديم وانشأوا علم وصف النجوم من شدة اشتغالهم بها على سبيل الاتجار ليبيعوا للناس طلاسم وعلامات تخولهم قوة السحر .

ولم يكن الاشوريون متاخرين عن المصريين في الزراعة والصناعة فقد جمعوا بهما ثروة عظيمة للمملكة ومن مصنوعاتهم التي كان يتنافس باقتنائها الرومانيون الطنافس البابلية والانسجة والخزفيات الملبسة والمصوغات . وقد ظهر على المنقوشات المكتشفة حديثاً من براعة الاشوريين في فن النقش وقطع التماثيل ما لم يكن في حسبان احد

ويغلب على فكر المتأمل ان اليونانيين لم يقتبسوا مصدر افكارهم الدينية وصناعتهم النحتية والنقشية من مصر فقط بل من اشور ايضا بطريق سيليسيا واسيا الصغرى

الباب السادس

في الفينيقيين

﴿ فصل ﴾

في المدائن الفينيقية بين لبنان والبحر

بين الفرات والبحر الغربي (المتوسط) سهل متسع قطنه الساميون الرحالون قديماً . وجبال لبنان التي استوطنت اوديتها الخصيبة قبائل الكنعانيين الذين كان اول ظهورهم على شواطئ خليج العجم . واشهر تلك القبائل القبيلة الفينيقية التي هي فرع من العبريين . اقامت في بلاد الاردن وعلى الشاطئ الضيق الواقع بين سلسلة جبال لبنان والبحر المتوسط . وعندما فتح يشوع وادي

الاردن انحصر الفينيقيون بين لبنان وبين البحر فاصبحوا بحكم الطبع بحارة واصطنعوا المراكب واجروها فوق المياه في طلب الرزق الى ان تعاظمت ثروتهم فابتنوا المدائن الكثيرة لتوسيع نطاق التجارة ولما ضاقت بهم على تكاثرهم ارسلوا طوارئ منهم تستعمر شواطئ وبلاداً اخرى . وكانت اشهر مدائنهم صيدا المعروف اهلها بالبراعة في صنع الزجاج والارجوان وصور ذات المقام الاول بين القرى الفينيقية وارادوس وبلوس وبيرت وهي اليوم بيروت .

وجاء في التوراة وصف الترف والسعة والرخاء والدعة التي عاش بها القوم فافسدت اخلاقهم وعقائدهم حتى كانت الامهات تحرق اطفالها ضحية للاله الكبير باعل ملوك وكانت المحرمات الشهوانية محللة في تعبدهم للمعبودة استارتي

﴿ فصل ﴾

في تجارة الفينيقيين ومستعمراتهم

ولكن الفينيقيين اعاضوا الانسانية خيراً عن هذه السيئات بما عمموه من التجارة والصناعة وما انشأوه من المستعمرات التي ازداد معها انتشار المدنية . وقد استوطنوا جزائر البحر الاسود قبل اليونانيين واسسوا متاجر جمة في افريقيا واسبانيا وغاليا وصقليا وعاملوا شبه جزيرة العرب والهند والحبشة . وكانوا الى القرن

الخامس يملكون ثلاث مدن في صقليا وهي موتيا وسلينونت وبانورما . واهم المدائن التي شادوها في افريقيا لبتيس وادرومات واوتيك وقرطاجنة . ولم تلبث هذه المدينة العظيمة ان استقلت واصبحت اعظم مملكة بحرية وجدت قديما حيث اخضعت لسيادتها المستعمرات الفينيقية المجاورة لها واستأثرت بتجارة القسم الغربي من البحر المتوسط

فاقتصر الفينيقيون الاصليون على مشاطرة اليونانيين تجارة القسم الشرقي منه وجعلوا يستزيدون صلاتهم مع البلاد التي يماسها البحر الهندي واخذوا من اليهود مينائين في البحر الاحمر فكانوا يسيرون منهما اساطيلهم لاجتلاب العاج والتبر والبخور والطيوب من بلاد العرب واللؤلؤ الجميل من خليج العجم والمحاصيل الكثيرة من الهند . وكانت لهم قوافل تجتاز بابل وبلاد العرب وفارس والباكتريانا وتبت لتعود اليهم منها بالجلود المصنوعة والحرير الذي كان يباع بوزن الذهب والحجارة الكريمة . وكانوا يضيفون في تجارتهم الى هذه الاصناف مصنوعاتهم الاهلية كالزجاج والارجوان والوفا من ادوات التحلي والزينة .

﴿ فصل ﴾

في فاتحي فينيقية

وحرك هذا التقدم العظيم جشع الفاتحين فنهض فراعنة

السلالة الثامنة عشر لغزو فينيقية واستولوا عليها وبعد ان تخلصت من ربقتهم اغار عليها الاشوريون مراراً وحاولوا فتح صور فما تسنى دخولها الا لسنحاريب ثم عاد اليها نبوخذ نصر { ٥٧٤ } فاضعفها ودمرها بعده الاسكندر ٠ فانقسمت من ثم فينيقية بين الممالك الثلاث الكبرى مملكة الفرس ومملكة السلجوقيين ومملكة الرومانيين وكان شعبها قد نقل من الشرق الى الغرب كل ما استطاع اقتباسه عن مصر واشور من احاسن الفنون والصناعات والعلوم وعن بابل من طريقة الحساب الشبيهة بالطريقة المترية المعروفة اليوم وعن منفيس الكتابة المقدسة التي استخرجوا منها حروف هجائهم الشهيرة فنقلها عنهم كل الشعوب وعدلوها على ما يوافقهم وكانت من اعظم الممهدات للتقدم العقلي والاجتماعي.

الباب السابع

في اليهود

﴿ فصل ﴾

في التقاليد القديمة

ينتسب العبريون الى ابراهيم الذي اتى من بلاد الكلدان { ٢٠٠٠ قبل الميلاد} واستوطن ارض كنعان وولد له فيها ولدان اسحق ويعقوب الصالح ابو البنين الاثنى عشر الذين تالفت

منهم اسباط يهوذا الاثنا عشر . وكل يعلم قصة يوسف الذي باعه اخوته لقافلة مصرية وتوصل بحكمته ودهائه الى اعلى منصب في مصر اذ عين وزيراً لاحد الفراعنة واستدعى اليه اسرته فاسكنها ارض غسان بين النيل والبحر الاحمر

وقد نما العبريون في تلك الارض الخصيبة وتكاثروا ولم يختلطوا بالمصريين فاوقعوا الريبة منهم في قلوبهم فعاملهم المصريون معاملة الاسرى الذين كان ياتي بهم فراعنتهم من البلاد البعيده واكرهوهم على ترك رعي الانعام وسكنى القرى واستخدموهم في بناء المدائن وانشآء الترع وما ماثلها من الاعمال الشاقة ولما رأى فرعون ذلك الزمان ان عددهم فى ازدياد مستمر مع تلك الشدة الهائلة عليهم امر بقتل الذكور من اولادهم وحدث ان امرأة من سبط لاوي خبأت ولدها ثلاثة اشهرثم وضعته في تابوت وارسلته يطفو على النيل في المكان الذي كانت تغتسل فيه ابنة الملك فسمعت بكاءه فانقذته ودعي بموسى لانه نجا من الماء وربي في قصر الملوك وتلقى علوم كهنة مصر وكانت امه قد عرفته اصله ودينه سرا فلما رأى ذات يوم احد المصريين يضرب يهوديا قتله وفر الى يثرب في الحجاز وهناك رأى ما كان عليه دين ابائه من الانتشار وما كانت عليه عيشة اليهود الرعوية من الصفاء والرخاء فعزم على انقاذ قومه من «بيت الاستعباد» وارجعهم الى

الصحراء مع مواشيهم

﴿ فصـــل ﴾

في النظام الديني والمدني لليهود

وتاه اليهود في صحراء جزيرة العرب زمانا طويلا كان موسى يعلمهم في اثنائه التوحيد بالله · ثم جاءهم من جبل طور سيناء بالشريعة الدينية والمدنية وكلها حكم عالية شريفة تلطف بالفقير ولا تنزل الرقيق عن رتبة الانسان وتأمر بالاحسان وتنهى عن الاضرار حتى بالحيوان · وكان اليهود متساوين امام الله والشريعة وكانت ثرواتهم متعادلة على التقريب وذلك لانهم كانوا في السنة السبتية التي تاتي كل تسع سنين وفي اليوبيل الذي ياتي كل تسع واربعين سنة يعتقون الرقيق ويتركون الديون بعضهم لبعض ويردون الملك المبيع الى مالكه الاول · وكان كهنة اليهود من نسل لاوي دون سواه وكان الغريب لا يعتبر عندهم بمثابة عدو وكانت للمرأة كرامة تداني كرامة الرجل في البيت · ولسنا ننقل للقرآء شيئا من نخب آيات التوراة وتعاليمها لاشتهارها بما يغني عن ايرادها ·

﴿ فصل ﴾

في فتح فلسطين وفي القضاة وفي الملوك (١٠٩٧)

كان موسى قد اختار لقومه الارض التي اختارها ابرهيم لنصب خيمته فيها ولكن توفي قبل ايصالهم اليها فخلفه يوشع

وعبر بهم الاردن وهدم مدينة اريحا وقسم ارض كنعان بين
اسباط اسرائيل الاثني عشر . ولما مات انحلت عرى الاتحاد بين
الاسباط فضعفت جميعاً واصبحت حكومة الشيوخ لا تستطيع
تتمة فتح البلاد ولا رد غارات الملوك المجاورين عن اليهود
فوقعوا في الاسر قبيلة بعد اخرى ثم اخذ ينقذهم منه رجال
ذوو بأس ودهاء يخرجون منهم فكانوا كلما تم لهم الانتصار على
الاعداء عينهم الشعب قضاة عليه وكانت لهم سلطة الملوك دون
القليل منها واللقب . واشهر اولئك القضاة اوثونيال وآهود
وسمجار والنبية دبورا وجدعون الذي انتصر على جيش كبير
بثلاث مئة مقاتل ويفتاح الذي ضحى ابنته قربانا لنذر نذره
وشمشوم المعروف بشدته العجيبة والكاهن الكبير عالي الذى
اخذ الفلسطينيون في ايامه صندوق الشهادة او تابوت العهد
وكانت فيه الوصايا العشر وصمويل الذي عدل بين اليهود وقرن
الحكم بالحكمة ومع ذلك اراد منه الشعب تتويج ملك عليهم
فاجابهم مكرهاً الى سؤلهم واختار لهم شاول من نسل بنيامين
{ ١٠٩٧ } لما كان عليه من سلامة الطوية وسهولة القياد مع كونه
ذا بأس وبسالة فمسحه ملكا وافرغ على رأسه الزيت المقدس ثم
اودع له في تابوت العهد وصية بما له من الحقوق وما يتعين
عليه من الواجبات . فكان شاول في اول امره عند حسن ظن

النبي به وانصف واعتدل في سيره وانتصر في غزواته ثم غره الفوز فطغى وتجبر وأقام ٣٠٠٠ جندي لحراسته واستعلى على الكاهن الاكبر صمويل فغضب ومسح في السر راعياً عبريا يدعى داود وادخله القصر ليستخلف به الملك العاصي ولما قتل داود جليات الجبار الفلسطيني اعجب به قومه فوقعت الغيرة منه في قلب شاول فحاول مراراً ان يطعنه برمحه فلم يصبه ثم قتل شاول في احدى معاركه مع الفلسطيئيين سنة ١٠٥٨ وخلفه داود فخضع له سبطا يهوذا وبنيامين اولا ثم سائر اسباط يهوذا فنمت في عهده المملكة اليهودية الصغيرة وفتحت صهيون { القدس } ونكلت بالفلسطينيين والموآبيين ووسعت حدودها شمالا الى الفرات وغربا الى البحر الاحمر . ووضع داود في اوقات السلم قواعد للعبادة ولادارة شؤون الدولة واقام جيشاً عظيماً كان العشر منه دائماً مسلحاً وجمع الادوات والمعدات لتشييد الهيكل وعقد معاهدات تجارية مع صور غير انه اثم في اواخر سني حياته بقتله القائد اوريا فتنغص عليه عيشه وزادت نكده ثورة ابنه ابشالون . ولا تزال الكنيسة ترتل ما انشأه في ذلك من الزبور ذات المعاني السامية

وخلفه ابنه سليمان { ١٠١٩ } ولم يكن بالرجل الحربي بل احب الحضارة والعمران وحكم من داخل قصره جريا على عادة

امراء الشرق . واول ما شرع فيه تاييد سلطته بتعذيب معانديه وقتلهم . ثم شيد هيكل اورشليم العظيم وانفق عليه مالا طائلا . واشتهر بالحكمة البالغة وسداد الرأي العجيب ولا سيما بعد الحكم المعروف الذي فصل فيه بين امين تقاضتا اليه في ولد كانت كل منهما تدعيه . واسس تدمر في وسط الصحراء وانشأ المراكب واجراها على البحر للملاحة وعاهد صور ومصر على التجارة وعظم صيته حتى ان ملكة سبا اتت تزوره . غير ان سليمان جنى على نفسه بعبادته للاوثان فاضعف بذلك شوكته ومهابته ثم اثار عليه السوريين والآدوميين وسائر رعاياه بما حملهم من شدة الضرائب ولما ادركه اجله كان الشقاء عاما في شعبه

﴿ فصل ﴾

في الانقسام (٩٧٨) والاسر (٥٩٩)

وتولى بعده ابنه رحبعام فابى تخفيف اثقال الضرائب فانفصلت عنه عشر قبائل وبقيت بنيامين ويهوذا خاضعتين له ﴿٩٧٨﴾ ومن ثم وجد شعبان يهوديان يهوذا وملكه رحبعام واسرائيل وملكه يوربعام بن ناباط وكان الثاني اكثر عدداً واوسع ملكا والاول اغنى واعلى مقاماً اذ كان لديه تابوت العهد . وكان جميع اليهود في كل عام يزورون هيكل اورشليم ويأتونه بالهدايا فحاول

يوربعام ملك اسرائيل ان يمنع شعبه عن الذهاب الى مملكة يهوذا والاستيطان فيها واقام لهم مذبحين يقربون عليهما فانفصلوا عن الهيكل الاصلي وكان ذلك تمهيداً لرجوع اسرائيل الى الوثنية بما كان له من الصلات المستمرة مع السوريين . اما يهوذا فاحتفظ بالشريعة الموسوية ولكن الوثنية لم تلبث ان دخلت فيه ايضاً فقام الانبياء تباعا يقاومونها ويبعدون الشعب عنها تارة بالوعيد وطوراً بالمواعيد الى ان فازوا بما ارادوا

على ان انقسام المملكة العبرية الى قسمين آل بها الى الضعف والانحطاط حتى انحصرت حدودها في فلسطين بعد ان بلغت الفرات ولم يكف ذلك انذاراً لها بل اخذ كل من فريقيها يحارب الآخر حروبا هائلة مع انهما محوطان بالاعداء فما عتما ان وقعا في الفوضى وساد عليهما البابليون . وفي سنة ٧٢١ سقطت مملكة اسرائيل وقبض ملك نينوى سرجون على الملك يوشه في السامرة . وفي سنة ٥٨٨ سقطت مملكة يهوذا واستأسر نبوخذ نصر الملك صدقيا وجره الى بابل مكبلا بالقيود وفقأ عينيه بعد ان ذبح بنيه وزعماء شعبه بمرأى منه



﴿ فصل ﴾

في اليهود تحت حكم الفرس واليونانيين والرومانيين

﴿ من ٥٣٨ قبل الميلاد الى ٧٠ بعده ﴾

واستمر اسر اليهود سبعين سنة اي منذ خراب اورشليم سنة ٥٩٩ الى صدور امر كورش آذنا لهم باعادة بناء الهيكل فرجع ٤٢ الفاً منهم بقيادة زوروبابل الى البقعة التي كانت فيها مدينتهم المقدسة فاخذوا يشيدون الهيكل وحالت غيرة السامريين ودسائسهم حيناً دون انجازه وذلك في عهد كمبيز ملك فارس غير ان اليهود عادوا اليه في عهد داريوس الذي تسميه التوراة احشورش فاتموه سنة ٥١٦ . وفي عهد ارتكسزرسيس المعروف بطويل اليد قدم اورشليم المعلم الشهير اسدراس في مقدمة عدد كبير من اليهود وعلم الناس احكام الشريعة الموسوية الصحيحة وفي هذه الاثناء رفع نحميا اسوار المدينة غير انه كان بين سكانها جماعة من المفسدين فطردهم منها اسدراس ونحميا فلجأوا الى السامرة واقاموا هيكلا يناظر هيكل القدس . وعاش اليهود آمنين في عهد الفرس وكذلك في عهد الاسكندر فانه بعد فتح صور دخل اورشليم وقرب الى الله على مذبحها واعفاهم من الضرائب في السنة السبتية . وبعد وفاة الاسكندر خضع اليهود لملوك مصر قرناً كاملاً ومن مآثر احدهم بطلميوس

فيلادلفوس انه وضع كتاب العبريين في مكتبة الاسكندرية بعد ان كلف اثنين وسبعين عالماً بترجمته ودعيت هذه النسخة المترجمة بالسبعينية . غير ان الملك فيلپاتور نكل بهم واضطهدهم ولكنهم في عهده انتقلوا الى حكم ملوك سوريا . وكان منهم سلجوق الرابع الذي ارسل وزيره هليودور فنهب هيكل اورشليم وانطيوخوس الرابع الذي اقام تمثال المشتري الاولمبي على مذبح الهيكل فابى كثيرون من اليهود ان ياكلوا اللحم النجس المقرب له فماتوا في اشد العذاب . فكان من ذلك ان اوغرت صدور جميع اليهود فثاروا بقيادة آل مكاب المشاهير ببسالتهم وتحرروا من الربقة الاجنبية غير انهم قضوا قرنين في اشد الاضطراب تارة يسود عليهم الرومانيون وطوراً يمزقهم التحزب الداخلي ومعاركه الى ان حكمهم هيرودوس في عهد اغسطس قيصر فقويت مملكتهم وازهرت ولم تمس رومة استقلالهم الداخلي وفي ذلك الزمان ولد المسيح وقبل وفاة طيباريوس قيصر باربع سنين اخذ ينشر تعاليمه ولم يلبث الرومان ان استولوا على اليهودية وجعلوا شعبها من رعاياهم فخضعوا لهم الى اواخر ايام نيرون ثم ثاروا جهاداً في سبيل الوطن والدين فقتل منهم ١٣ مئة الف نفس ودمرت اورشليم وهدم الهيكل وتفرقوا من عهدها شذر مذر في الارض . ﴿٧٠ بعد الميلاد﴾ ولم يكن اليهود على شيء من فن

او علم او صناعة ولكن شريعتهم كانت اطهر الشرائع القديمة وافضلها . وقد حفظوا اعتقادهم بوحدة الله على صحته مع كل ما عانوه من الآلام والاضطهاد

الباب الثامن

في الماديين والفرس

﴿ فصل ﴾

في دين المجوس

تقدم لنا القول ان قبائل من الجيل الابيض نشأت في بلاد البكتريانا والسوجديانا ثم هاجر قسم منها عرف بالآري الى الجنوب الشرقي نحو السند وقسم آخر عرف بالايراني الى بلاد مادي وفارس . ولعل سبب افتراق هذين الفرعين الكبيرين كان الاختلاف الديني لان مذهب الماديين والفرس لا ينطبق في شيء على المذهب الذي انتشر فيما بعد بين الهنود على ضفاف الكنج

وكان اولئك يعتقدون ان صاحب شريعتهم هو زورواستر الذي يرجح انه وجد قبل الميلاد بخمسة عشر قرنا . وتعاليمه مكتوبة في الاويستا وهو كتاب الفرس المقدس

وملخص تعاليمه التي هي اشرف واطهر تعاليم اديان الشرك

في القدم ان زروان اكريني هو المبدأ الاول لكل شيء الابدي الازلي الثابت غير المتحرك خلق اورموزد سيد العلم والحكمة ابا الخير والعدل مصدر الحياة والنور كالشمس وهي مثاله للناس . وكذلك خلق اهريمان عدو اورموزد ومبدأ كل شر مادي وادبي

ولكل من هذين الالهين جنود من الارواح العالية والسفلى تسعى في توسيع دائرة ملك سيدها غير انه لا بد ان يأتي يوم يدحر فيه اهريمان فيعود ويصعد الى اورموزد تائباً ويتنعم بالحياة السعيدة مع جميع الذين تبعوه وذلك لان رحمة اورموزد فوق عدله

والانسان بمقتضى الدين المجوسي خلق ذا نفس حرة غير فانية هي جزاء الفائز في تنازع مبدئي الخير والشر . وكما ان الارواح الخبيثة تحدق بها لتدفعها الى السوء من قبل اهريمان فكذلك اعطاها زورواستر شريعة اورموزد لتحفظها في دائرة الصلاح

وهذه الشريعة تفصل حقوق الانسان وحقوق السماء وتدعو الى الايمان والعمل وتريد الصدقة وطهارة النفس والجسم وتسمح للمتعبد بالاشتغال في الامور الدنيوية ليكون له فضل اعظم بمقاومته للتجارب

وقد جاء في الاويستا « من اكل استطاع ان يسمع ويستوعب القول المقدس ومن لم ياكل فلا قوة له على عمل طاهر » وجاء فيه من حيث اعتبار الشغل امراً مقدساً « احرث ارضك وازرعها ومن زرع بطهارة قام بكل ما تقضي به الشريعة . وان من يعطي الارض بذاراً حسناً لاكبر ممن يقرب الف قربان » ويؤخذ من هذا الكتاب المقدس ان المؤمن ينبغي عليه ان تكون عنايته بماشيته كعنايته بارضه ويؤخذ منه ايضاً ان الزواج كان عقداً مقدساً وان كثرة البنين بركة

ومن مقتضيات الدين المجوسي الصلاة بالنهار والليل « قم في منتصف الليل واغسل يديك واوقد النار التي ينبغي ان تسطع للدلالة على ان اورموزد موجود في كل منزل » وكان بعض الصلاة اعترافاً بين يدي الخالق بالذنوب « اعترف امامك ايها الاب بذنوبي التي ارتكبتها فكراً وقولاً وفعلاً . ياالهي اشفق على نفسي وجسدي في هذه الدنيا وفي الاخرى واني اندم على ما فرط مني بالكلمات الثلاث واتوب »

وكانت الصلوات ترفع الى الله والى بعض الارواح السموية كاللات والعزى . واما القربان فكان يقدم من لحم الحيوان وعصير بعض النبات ونوع من المعجونات المشوية . وبعد التقدمة ياكله الكهنة والحضور . وكان الكهنة يلزمون ايقاد النار المقدسة

ويصونون ادوات التقدمة وملابس العبادة

ولا يعرف شيء عن البعض الذي بقي من تلك القبائل البيضاء على ضفاف الاوكسوس في بكتريانا وسوجديانا اما الماديون فقليل ما يعرف عنهم ماخوذ من تواريخ اليونانيين والمنقوشات المسمارية واما الفرس فهم منذ الحروب المادية بمثابة الرابطة بين اسيا واوربا الى هذا اليوم

﴿ فصل ﴾

في الماديين

غاية ما اتصل بالمؤرخين من اخبار مادي ان ارباسيس حاكمها بالنيابة عن ملوك اشور ثار على الملك ساردانا بال { ٧٨٩ قبل الميلاد } فاستقل بالبلاد ولكنه ابقى احكامها في حالة الفوضى ولما تولاها الملك ديجوسيس {٧١٠} شيد اكباتانا المعروفة اليوم بهمذان وحكم بالعدل والسلم ٥٤ سنة . ثم خلفه ابنه فراورت فضرب الجزية على الفرس { ٦٥٧ } ولكنه قتله ملك نينوي فخلفه ابنه سياكسار

فزحف على نينوى اخذا بثار ابيه وقتل من جيوشها مقتلة عظيمة ومع ذلك لم يتسن له افتتاحها لاضطراره الى العودة عنها مهرعاً لما علمه من هجوم بعض العصائب السكيثية على مملكته

وكانت هذه العصائب قد انقضت على اسيا الغربية فاعملت

في ارجائها السيف والنار وادارت في اطرافها السلب والنهب
مدة ثمانٍ وعشرين سنة . وكان من امر سياكسار معها انه
احتال على زعمائها فامنهم ودعاهم الى مأدبة فذبحهم عن اخرهم ورد
عصائبهم خاسئة خاسرة وقفل راجعاً الى نينوى ففتحها سنة ٦٠٦
وفتح اسيا الصغرى الى نهر هاليس ثم اخذ يتهيأ لمقاتلة الليديين
فاتفق ان انكسفت الشمس ذات يوم انكسافاً تاماكان قد تنبأ به
طاليس الفيلسوف فراعه ذلك وعقد الصلح مع الليديين

وقام بعده على السرير الملك استياج وبسقوطه كان سقوط
تلك الدولة الواسعة . وذلك ان هذا الملك كان قد زوج رجلا
يدعى كمبيز من زعماء الفرس بابنته ماندانا فرزقهما الله ولداً دعي
كورش قال هيرودتس وحلم استياج ان حفيده سيوقعه عن
عرشه يوما فامر ارباغوس وزيره ان يقتل الطفل فلم يفعل ولكنه
دفعه الى راع لميتيه فرباه سراً ثم وقف الملك على ما كان فاقر
بحفيده ولكنه عاقب ارباغوس بان دعاه الى مأدبة واطعمه فيها
لحم ابن صغير له فكظم الوزير غيظه واجل ميعاد انتقامه

﴿ فصل ﴾

في حكم كورش (٥٥٩ ــ ٥٢٩) وفي فتح اسيا الغربية

ولما كبر كورش عرض نفسه لقيادة الفرس ومحاربة الماديين
معهم فاجابوه الى سؤله وظفروا على اعدائهم بخيانة من ارباغوس

فعلها انتقاماً من الملك ثم انتصروا عليهم في موقعة اخرى واسروا استياج نفسه

وانتقلت بذلك السيادة على اسيا من الماديـين الى الفرس {٥٥٩} ثم تقدم كورش الى البلاد المجاورة للقوقاف ففتحها وزحف على الليديين الذين كانت تمتد سلطتهم من نهر هاليس الى البحر الاسود فدحرهم واسر ملكهم كريسيوس {٥٤٤} ثم فتح بابل بعد ذلك بثماني سنين {٥٣٨} وضم الى املاكه جميع البلاد التي كانت تابعة لهتين المملكتين وهي المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى وفينيقية وفلسطين غربي الفرات ٠ ثم حارب التتر او السكيثيين لغارة شنوها على ولاياته الشمالية فظهر عليهم اولا ولكنهم قتلوه في الموقعة الثانية {٥٢٩} ولزموا حدودهم دون ان يخرجوا منها على مملكة الفرس لقلة عددهم وعددهم ٠ وجلس كمبيز على عرش ابيه كورش

﴿ فصل ﴾

في الفرس في عهد كمبيز (فتح مصر سنة ٥٢٧)

صرف هذا الملك مطامعه الى فتح افريقيا فبدأ بمصر وكانت آخر مملكة كبيرة تركها كورش واقفة فامتلكها على اثر موقعة واحدة {٥٢٧} واراد ان يضرب قرطاجنة فابى عليه الفينيقيون الاسطول الذي طلبه منهم لذلك ٠ وكان قد ارسل

جيشين احدهما لفتح واحة آمون فهلك في الرمال وآخر للزحف على الاحباش فقتل الجوع اكثره وعاد الباقي ذليلا . فاثر هذا الفشل في عقله فاضطهد كهنة مصر وقتل اخاه واخته وعذب ذويه ثم بلغه حدوث ثورة في آسيا فعاد . واصابه في الطريق جرح وهو يركب جواده فمات على اثره {٥٢٢}

فصل

في الفرس في عهد دارا

اما الثورة التي كان كمبيز راجعاً لاخمادها فكان الماديون القائمين بها لاسترجاع السيادة من الفرس وكان زعيمهم فيها مجوسي يدعى سمرديس ادعى انه اخو كمبيز فاجتمع سبعة من اشراف الفرس عازمين على اطفاء الثورة قبل ان تتأجج نارها وقتلوا المجوسي بطعنة خنجر ونصبوا احدهم ملكا وهو دارا ابن هيستاسب . ويؤخذ من تفسير كتابة مسمارية كشفت حديثاً ان دارا اشتغل بقمع ثورات كثيرة في بدء حكمه ومن ذلك انه ارسل رجلا يقتل اوتانيس حاكم سرده عاصمة ليديا لانه كان يتصرف فيها تصرف الملك . ومنه ايضاً ما رواه هيرودتس عن عصيان بابل فقد بتر زوبير احد خدم دارا عضواً من اعضائه وخدع البابليين بانه مظلوم يريد الانتقام ثم خانهم وسلم المدينة لسيده {٥١٧}

وقسم دارا المملكة الى عشرين ولاية لتسهل عليه جباية الضرائب ويتسنى له تأليف الجنود المنظمة ثم عاد ففتك بالتتر الاروبيين لا الاسيويين واجتاز البسفور فالدانوب على جسر من مراكب بناه وحرسه له اليونانيون الاسيويون فلم يدرك التتر فعاد وترك ٨٠ الف مقاتل في بلاد التراس لاتمام افتتاحها وافتتاح مقدونيا وارسل حملتين اخريين فاخضعت له احداهما بلاد سيرينايك في افريقيا القديمة والاخرى البلاد الواقعة غربي السند

وبلغ اذ ذاك ملك فارس منتهى عظمته فكانت حدوده من السند الى البحر المتوسط ومن الدانوب والاراكس الى البحر الهندي وصحراء شبه جزيرة العرب وصحراء افريقيا

ونوى دارا ان يزحف بالف الف مقاتل على بلاد اليونان فحدثت الحروب الشهيرة بالمادية التي اظهرت ماكان تحت تلك الفخامة الظاهرة من الضعف الخفي

ولاستيفاء سلسلة ملوك الفرس نقول ان دارا خلفه ابنه اكزيرسيس وسيرد ذكر ماكان له من الوقائع مع اليونانيين وخلف اكزرسيس ارتخشياش الثاني وهو الذي انتزع اليونان منه المستعمرات اليونانية في آسيا الصغرى ومنعوه عن تسيير اساطيله في بحر الارخيل الرومي بمقتضى معاهدة صلح عقدها

مع سيمون رئيس جمهورية اثينا ثم عاد فتغلب عليهم واسترجع آسيا الصغرى وجزيرة قبرس {٣٨٧} وتوارث الملك من بعده رجال لا يخلقون بالذكر الى ان قام دارا الثالث {٣٣٦} فدحره الاسكندر المقدوني واستولى على مملكته الواسعة ٠ واستمرت الفرس تابعة لليونان بعد غلبة الاسكندر يحكمها قائد منهم الى ان طردهم منها طائفة البارتيين وتولاها ملوك منهم فاستبدوا فيها الى سنة ٢٣٠ ق م وكان فيها ظهور ازدشير بابكان رأس دولة الاكاسرة الساسانية ومن خلفائه كسرى انوشروان الشهير بمغازيه وعدله في احكامه ومنهم هرمز الذي انتصر على القيصر طيباريوس ومنهم يزدجرد آخر الاكاسرة وفي عهده استولت العرب على بلاد العجم {٦٣٠ للميلاد} فحكموها الى سنة ١٢٥٨ وخلفهم التتر الى سنة ١٥٠٠ وفيها قامت من الفرس ملوك عليهم ولقبوا بالشاهات وهم يتوارثون الملك الى الآن

فصل

في وصف ما كانت عليه حكومة الفرس قديماً

كانت الحكومة استبدادية تلطفها سلطة المجوس عند الماديين وسلطة الولاة عند الفرس وقد جعل دارا عدد الولاة عشرين فغلط اذ قل بذلك تزاحمهم وعظمت قوتهم ٠ ولكن الملك كان لا يحكم بالفعل بل بالقوة وكان لا يلتفت الى المملكة

ما دامت تؤدي ما عليها من المال والخراج

ولم يترك الفرس من الابنية ما هو خليق بالذكر غير ان الاقدمين كانوا يصفون فخامة مدينة همذان او اكباتان التي كانت لها سبعة اسوار . وقد اعجب بعض السياح المتأخرين بما رأوه من جمال آثار برسوبوليس احدى عواصم الفرس القديمة وهي الملقبة بذات الاعمدة الاربعين[١]

الباب التاسع

في بلاد العرب

﴿ فصل ﴾

في تقسيم العرب

ان الامة العربية من اعظم الامم شأناً واجلها مكانة غير انها لم تصبح كذلك الا بعد الاسلام وكانت قبله منحصرة في بقعتها ليس لها في الخارج عنها كبير فعل ولا ذكر ولا في داخلها من الحكمة او السياسة او الصناعة او الدين ما تمتاز به عن الامم القديمة مثلها . وبلاد العرب يحدها شمالاً الشام وفلسطين والجزيرة وشرقاً العراق والجزيرة او ما بين النهرين وخليج

---

١ يبلغ قطر كل من تلك الاعمدة مترين وارتفاعها ٢٤ مترا ويظن ان قبر دارا اكتشف في جبل بالقرب من برسوبوليس

العجم وجنوبا المحيط الهندي وغربا مضيق باب المندب وخليجه والبحر الاحمر وبوغاز السويس . وكانت تنقسم الى اقسام اشهرها اليمن والحجاز وتهامة ونجد واليمامة وبلاد البحرين والعراق . اما العرب فكان المؤرخون يقسمونهم الى ثلاثة اقسام بائدة وعاربة ومستعربة وجاء في كتاب حقائق الاخبار[1]

اما البائدة فهم العرب الاولى الذين ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لقدم عهدهم وانقطاع اسباب العلم بآثارهم وهم عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الاولى وكانت مواطن عاد باحقاف الرمل بين اليمن وعمان الى حضر موت والشحر ولما انتحلوا عبادة الاصنام ابادهم الله واما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم في الجبال وكانوا اهل كفر وبغي واما جديس وطسم فكانت ديارهم باليمامة وهي اذ ذاك من اخصب البلاد واعمرها واكثرها ثماراً وحدائق وقصوراً واما جرهم الاولى فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالعبرانيه فكانوا على عهد عاد وكانوا يعاصرون بعضهم بعضاً وبعد ان سالمتهم الايام احقاباً قلبت لهم ظهر المجن كما هو الحال في جميع الامم البائدة فاندثروا بتمامهم واما جرهم

---

١ هو كتاب جليل ظهر حديثاً لمؤلفه العالم الفاضل الميرالاي اسماعيل بك سرهنك ناظر المدرسة الحربية

الثانية فهم من ولد قحطان وبهم اتصل اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام وكانت مساكن بني قحطان بالحجاز ولما اسكن ابراهيم الخليل ابنه اسماعيل عليهما السلام في مكة نشأ بينهم وتزوج منهم وصار يطلق على اولاده العرب المستعربة لان اصل اسماعيل عليه السلام ولسانه كان عبرانيا ولذلك قيل له ولولده العرب المستعزبة واما العرب العاربة فهم بنوسبا واسم سبا عبد شمس وقالوا انه لما اكثر الغزو والسبي سمي سبا وهو بن بشجب بن يعرب بن قحطان وكان لسبا عدة اولاد منهم حمير وكهلان وعمر واشعر وعاملة بنوسبا وجميع قبائل العرب باليمن وملوكها التابعة من ولد سبا المذكور وجميع تابعة اليمن من ولد حمير بن سبا خلا عمران واخيه موزيقيا فانهما ابنا عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلب بن مازن بن الازد والازد من ولد كهلان بن سبا وفي ذلك خلاف وقيل لهم عاربة لنزولهم بالبادية مع العرب البائدة وتخلقهم باخلاقهم

اما من حيث المعتقد في الجاهلية فكانت العرب اصنافا فصنف انكروا الخالق والبعث وقالو بالطبع المحيي والدهر المفني كما اخبر عنهم التنزيل { وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيي وما يهلكنا الا الدهر } وصنف اعترفوا بالخالق وانكروا البعث وهم الذين اخبر عنهم الله بقوله تعالى { افعيينا بالخلق الاول بل

هم فى لبس من خلق جديد ﴾ وصنف عبدوا الاصنام وكانت
اصنامهم مختصة بالقبائل فكان ود لكلب وهو بدومة الجندل
وسواع لهديل ويغوث لمذجج ولقبائل من اليمن ونسر لذي
الكلاع بارض حمير ويعوق لهمدان واللات لثقيف بالطائف
والعزى لقريش وبنى كنانة ومناة للأوس والخزرج وهبل اعظم
اصنامهم وكان على ظهر الكعبة وكان اساف ونائلة بين الصفاء
والمروة

وكان منهم من يميل الى اليهودية ومنهم من يميل الى النصرانية
ومنهم من يميل الى الصابئة ويعتقد في انوآء المنازل اعتقاد المنجمين
في السيارات حتى لا يتحرك الا بنوء من الانواء ويقول مطرنا
بنوء كذا وكان منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الجن
وكانت علومهم علم الانساب والانواء والتواريخ وتعبير الرؤيا وكانت
الجاهلية تفعل اشياء جاءت شريعة الاسلام بها فكانوا لا ينكحون
الامهات والبنات وكان اقبح شي عندهم الجمع بين الاختين وكانوا
يعيبون المتزوج بامرأة ابيه ويسمونه الضيزن وكانوا يحجون البيت
ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها
ويرمون الحجارة وكانوا يكبسون في كل ثلاثة اعوام شهراً
ويغتسلون من الجنابة وكانوا يداومون على المضمضة والاستنشاق
وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الاظفار ونتف الابط

وحلق العانة والختان وكانوا يقطعون يد السارق اليمنى وغير ذلك مما يعلم من المفصلات

﴿ فصل ﴾

في ذكر علوم العرب وآدابهم

وجاء ايضاً في الكتاب المشار اليه مانصه . فاما علم العرب الذي كانوا يتفاخرون به فعلم لسانهم واحكام لغتهم ونظم الاشعار وتأليف الخطب وكانوا موسومين بين الامم بالبيان في الكلام والفصاحة في المنطق والذلاقة في اللسان وكان لهم مع هذا معرفة باوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بانواء الكواكب وامطارها حسب ما ادركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك في اسباب المعيشة لا على طريق تعلم الحقائق وكان الشعر ديوان خاصة العرب ومنتهى حكمتها والمنظوم من كلامها والمقيد لايامها والشاهد على حكامها به ياخذون واليه يصيرون وكانوا لايهنئون الا بغلام يولد او شاعر ينبغ او فرس تنتج

قال الصفدي ما كان للعرب ما تفتخر به الا السيف والضيف والبلاغة وكانوا كل حول يتقاطرون على سوق عكاظ ويتبايعون ويتنا شدون ويتعاكظون ولقد بلغ كلف العرب بالشعر وتفضيلهم له ان عمدت الى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة فقيل لها مذهبات ويقال لها معلقات

لانها علقت في استار الكعبة اما الكتابة فحكوا ان ثلاثة نفر من طي كانوا على دين عيسى فوضعوا الخط وقاسوا هجآء العربية على هجآء السريانية فتعلمه قوم من الانبار وجاء الاسلام وليس احد يكتب بالعربية غير بضعة عشر انسانا ولقلة القرطاس عندهم عمدوا الى كتف الحيوان فكتبوا عليها وكان الناس فرقتين اهل كتاب والاميين وكان هؤلاء من اليهود والنصارى والاميون بمكه

﴿ فصل ﴾

في ذكر ملوك العرب قبل الاسلام

قال ابوا الفداء اول من نزل اليمن (قحطان) بن عابر بن شالخ المقدم الذكر وقحطان المذكور اول من ملك اليمن ولبس التاج ومات قحطان وملك بعده ابنه (يعرب) بن قحطان وهو اول من نطق بالعربية على ما ذكر ثم ملك بعده ابنه {يشحب} بن يعرب ثم ملك بعده ابنه { عبد شمس } بن يشحب ولما ملك اكثر الغزو في اقطار البلاد فسمي { سبا } وهو الذي بنى السد بارض مأرب وفجر اليه سبعين نهراً وساق اليه السيول من امد بعيد وهو الذي بنى مدينة مأرب وعرفت بمدينة سبا ولما مات سبا ملك اليمن بعده ابنه { حمير } ولما ملك اخرج ثمود من اليمن الى الحجاز ثم ملك بعده ابنه { وائل } ثم ملك بعده ابنه

{السكسك} ثم ملك بعده {يعفر} ثم وثب على ملك اليمن{ذو رياش}
وهو عامر بن باران بن عوف بن حمير ثم نهض من بني وائل
{النعمان} بن يعفر بن السكسك بن وائل بن حمير واجتمع عليه
الناس وطرد عامر بن باران عن الملك واستقل النعمان المذكور
بملك اليمن ثم ملك بعده ابنه (اشمح) ثم ملك بعده { شداد }
بن عاد بن الماطاط بن سبا واجتمع له الملك وغزا البلاد الى ان بلغ
اقصى المغرب وبنى المدائن والمصانع وابقى الآثار العظيمة ثم ملك
بعده اخوه {لقمان} بن عاد ثم ملك بعده اخوه { ذوسدد } بن
عاد ثم ملك بعده ابنه { الحارث } بن ذي سدد ويقال له الحارث
الرايش وقيل ان الحارث الرايش المذكور هو بن قيس بن ضيفي بن
سبا الاصفر وهو تبع الاول ثم ملك بعده ابنه ذو {القرنين} الصعب
بن الرايش وقد نقل بن سعيد ان بن عباس سئل عن ذي القرنين
الذي ذكره الله تعالى في كتابه العزيز فقال هو من حمير وهو
الصعب المذكور فيكون ذو القرنين المذكور في الكتاب العزيز
هو الصعب ابن الرايش المذكور لا الاسكندر الرومي ثم ملك
بعده ابنه { ذوالمنار } ابرهة بن ذي القرنين ثم ملك بعده ابنه
{ افريقس } بن ابرهه ثم ملك بعده اخوه {ذو الاذعار} عمرو
بن ذي المنار ثم ملك بعده { شرحبيل } بن عمر بن غالب بن
المنتاب بن زيد بن يعفر السكسك بن وائل بن حمير فان حمير

كرهت ذا الاذعار فخلعت طاعته وقلدت الملك شرحبيل المذكور
وجرى بين شرحبيل وذي الاذعار قتال شديد قتل فيه خلق
كثير واستقل شرحبيل بالملك ثم ملك بعده ابنه {الهدهاد} بن
شرحبيل ثم ملكت بعده ابنته { بلقس }بنت الهدهـاد وبقيت في
ملك اليمن عشرين سنة { وتزوجها سليمان بن داود } عليهما السلام ثم
ملك بعدها عمها { ناشر النعم } بن شرحبيـل وقيـل ان ناشر
النعم اسمه مالك بن عمرو بن يعفر بن عمرو من ولد المتاب بن
زيد الحميري ثم ملك بعده (شمر يرعش) بن ناشر النعم المذكور
وقيل شمر بن افريقس بن ابرهه ذي المنار ثم ملك بعده ابنه ابو مالك
ثم عمران بن عامر الازدي وغيرهم من التبابعـة الذين نضرب
صفحاً عن ذكرهم الى عهد ذي جدن فقد استولت فيه الحبشـة
على اليمن فملكها منها اربعة ثم من الفرس ثمانية ثم صـارت الى
الاسلام . وكان للعرب فيما سوى ملوك اليمن ملوك اخرون لا
محل لاستقصاء اخبارهم منهم ملوك الحيرة وملوك غسان بارض
الشام وكانوا عمالاً للقياصرة عليها وملوك جرهم ومـلوك كنـدة
وغيرهم

﴿ فصل ﴾

في اجمال القول عن اصل العرب وحالتيهم الاجتماعية والدينية
وصورة حكومتهم

كان العرب من النسل الارامي الذي يرد اليه اليهود والسوريون ولم تكن لهم وحدة دينية ولا سياسية . واستمروا الى ماقبل ظهور الاسلام على اخلاقهم واصطلاحاتهم القديمة وكانوا منقسمين الى قبائل وعشائر وما دونها ولكل فريق منهم زعيم او امير يطيعونه ويجرون على مطلق ارادته وكانت القبائل تتناظر ويغزو بعضها بعضاً في طلب الغنائم . وكان منهم الامة اهل العمران والامة الناجعة الخيام لسكناهم والخيل لركوبهم والانعام لكسبهم يقومون عليها ويقتاتون من البانها ويتخذون الدفء والاثاث من اوبارها واشعارها ويحملون اثقالهم على ظهورها . يتنازلون حللاً متفرقة ويبتغون الرزق في غالب الاحيان من القنص وتخطف الناس من السبل . وكانت القبائل المجاورة لخليج العجم على دين المجوس وفريق من سكان اليمن على مذهب نسطور المسيحي والسواد الاعظم من العرب عامة عبدت اوثان مختلفة كما تقدمت الاشارة الى ذلك . وكان اعظم معابدهم الكعبة يشتمل على ثلاثمئة صنم والحجر الاسود الشهير . وكانت مفاتيح الكعبة بايدي قريش وهم اشرف قبيلة بين العرب واشهرهم آل هاشم الذين ولد منهم النبي محمد سنة ٥٧٠ كما سيأتي ذكر ذلك ببعض الاسهاب في عرض تاريخ القرون المتوسطة

القسم الثاني

في تاريخ اليونانيين

الباب العاشر

في الازمنة الاولى

﴿ فصل ﴾

في السكان الاولين وذكر البلاجيين والهيلينيين

ان بلاد اليونانيين المعروفة باغريقيا احدى اشباه الجزائر الثلاث التي تنتهي بها اوربا من الجنوب • وهي مع جزرها اصغر مساحة من البرتغال • غير ان شواطئها حسنة التقطيع مستطيلة تزيد بالامتداد على شواطئ اسبانيا وتصلها مقدونية من الشمال بجبال الالب الشرقية • ولها من الجنوب ثلاثة رؤوس ممدودة في البحر المتوسط • ويفصلها البحر عن ايطاليا غرباً وعن اسيا شرقا •

وبعبارة اوضح كانت بلاد اليونان قديماً تشتمل على اقاليم مقدونية والبانيا وابيروس وتساليا وشبه جزيرة المورة وعلى جزائر الارخبيل اليوناني وجزائر البندقية وكانت لها مستعمرات باسيا الصغرى وبجزيرة صقليا وبايطاليا وغيرها وكانت بلاد الاغريق تسمى قديما بهيلاس

والظاهر من الاستدلالات والقرائن التاريخية ان اول سكان هذه البلاد كانوا البلاجيين واليونيين الذين تقدم لنا ذكرهم بين فصائل الجيل الابيض . وهم الذين انتشروا في اسيا الصغرى واغريقيا وايطاليا واوجدوا المدنية في هذه الامصار وشادوا ابنية لاتزال تنسب اليهم وتدل عليهم

ويؤخذ من روايات شعرية مشكوك في صحتها ان بعض الطوائف جلت عن اسيا وافريقيا الى اغريقيا واتتها بالحضارة وعلمت اهلها الفنون النافعة ودينًا اصح من دينها

فمن ذلك ما يروى عن قوم يعرفون بالتيتانيين من الاقوام الفينيقية جلوا الى بلاد الاغريق في عصر ابراهيم وعنهم اخذ اليونانيون معارفهم الاولى وعبادتهم للكواكب السيارة التي كان يعبدها الفينيقيون ويقال ان هؤلاء الجالية شيدوا في اغريقيا جملة مدائن اقدمها بيوم سنة ٢٠٨٩ قبل الميلاد ثم لم يلبثوا ان انقرضوا لكثرة غزوهم فادخلهم اليونانيون في مصف آلهتهم

ومن ذلك ما يعزى الى سكروبس المصري من انه بعد استيطانه في الاتيك جمع اهلها في اثنتي عشرة قرية اصبحت اثينا عاصمتها فيما بعد . وانه علمهم غرس الزيتون واستخراج الزيت وحراثة الارض ووضع قانونا للزواج واسس محكمة الاريوباج الشهيرة لدفع المظالم بالاحكام العادلة

وفي عهده فطن اليونانيون لما يربحه الفينيقيون من التجارة البحرية فاخذوا يبتنون السفن ويتمرسون بآفات البحار مبتدئين بالملاحة في مياه الشواطئ المجاورة الى ان برعوا فيها وباروا بها الصيداويين

وينسب الى قدموس في بيوسيا أنه ادخل اليها الحروف الفينيقية وبنى مدينة قدمه التي قامت حولها ثيبة

ويذكر عن دانايوس انه ادخل الى ارغوس شيئاً من صناعات مصر وعن بيلوبس الفريجي انه استوطن في اليدة ثم خرج منها ابناء جنسه وانتشروا في شبه الجزيرة كلها وسموها باسمه «بيلوبونيز»

كل ذلك مرويات لايوثق بها من حيث الرجال الوارد ذكرهم فيها ولكن الصحيح فيها وجود الصلات قديماً بين اغريقيا وشاطئ اسيا المواجه لها

واهم حادثة حدثت في تلك الازمنة المتقدمة هي ان الهيلينيين الذين كانوا مستوطنين في شمال اغريقيا اغاروا منه على سائر اقسامها وانتشروا في جميع ارجائها فضاع بينهم البلاجيون الى ان فقدوا

﴿ فصل ﴾

في عهد الابطال وفي حرب طرواده سنة ١١٨٤ على ما يقال

يروى ان اليونانيين في تلك الايام كانوا منقسمين الى اربعة اقسام. اثنان منهما لم يكن لهما عمل يذكر وهما اليونيون والدوريون واثنان كانا هما السائدين ويعرف احدهما باليوليين والاخر بالآخيين . ولا يعرف شيء عن ذلك الزمان سوى انه وجد فيه ابطال يقال انهم كانوا يجوزون البلاد من كل جانب لينقذوها من اللصوص والظالمين والسباع الضارية ولذلك اعلاهم الشعب الى رتبة انصاف الهة وكرمهم على ما كان عندهم من خلات ومعايب . ومن هؤلاء هرقل وتازاسي والزعماء السبعة الذين حاصروا ثيبة لمعاقبة ملكها اديب على سيئاته التي دنسها بها

ولكن بين الحوادث المحكية عن تلك الايام حادثة صحيحة وهي الحرب الاولى التي وقعت بين اغريقيا واسيا . وكانت في ذلك العهد طروادة عاصمة مملكة قوية واقعة في الشمال الغربي من اسيا الصغرى وهي آخر بقية من دولة البلاجيين . وكانت بين اهل هذه المملكة وبين اهل اغريقيا عداوة جنسية . واتفق ان باريس احد ابناء بريام ملك طرواده نزل ضيفاً على منيلاس البيلوبونيزي ملك سبارطه فتعشق امرأته هيلانه وفر بها فاثرت هذه الخيانه في جميع اليونانيين فتحزبوا لمنيلاس وتألبوا يداً واحدة للانتقام له فجمعوا من العدة ما استطاعوا ونزلوا على شواطئ بلاد

طرواده تحت امرة اغاممنون ملك ميسين وشقيق منيلاس ٠
واستمر اليونانيون الذين كانوا يدعون بالاخائيين عشر سنين
وراء اسوار العاصمة ولم يقاتلوا اعداءهم قتالاً يذكر وكان هؤلاء
متحصنين في المدينة تحت قيادة هكتور بن بريام لا يبالون ولا
تنفد مؤونتهم الى ان قتل اشيل البطل اليوناني الامير هكتور
ومع ذلك استمر الطرواديون غير جزعين فيئس الاخائيون
واحتالوا عليهم بان تظاهروا بالنكوص على اعقابهم وتركوا حصانا
مصنوعا من الخشب ذا ضخامة عظيمة كانه قربان منهم لآلهة
اعدائهم فادخله الطرواديون الى مدينتهم وكان في داخله خيرة
ابطال اليونان فخرجوا منه واستولوا على المدينة وقتلوا بريام
تحت مذبح احد الهياكل واسروا امرأته وبناته ثم عاد الامراء
الاخائيون الذين لم يقتلوا في تلك الحرب الى اوطانهم ومنهم
اجاكس واشيل وباتروكل فاصابتهم مصائب عظيمة في رجعتهم
هذه اذ مات بعضهم في الطريق وتاه احدهم عولس سنين كثيرة
قبل ان يدرك مملكته ووصل اغاممنون الى مملكته فوجد تخته
وسرير امرأته في ايدي بعض الغاصبين فقتلوه للتخلص منه ٠
ومنهم جماعة حكم عليهم بمهاجرة مسقط رأسهم بعد وصولهم
اليه ومنهم ديوميدس وايدومناي {سنة ١١٧٤ على ما يقال}

وفي القصيدتين الشهيرتين بالالياد والاوديسة المنسوبتين

الى هو ميرس الشاعر اليوناني الشهير تفاصيل هذه الحادثة مع ما اضافته اليها العامة من الخيالات المؤثرة والتصورات الوهمية الجميلة

﴿ فصل ﴾

في غارة الدوريين (١١٠٤) وفي المستعمرات اليونانية ووصف هيئة الحكومة العمومية

وبعد اخذ طرواده قضى اليونانيون ثمانين سنة يتحاربون وكان الفوز في النهاية للدوريين فزحفوا تحت قيادة ابناء هرقل واستولوا على بلوبونيزا { ١١٠٤ } ثم على لاكونيا واخذوها مداهمة وطردوا اليوليين من مسانيا والاخائيين من الارغوليد واخضعوا قرنثيا وميغار وتقدموا الى آثينا وكان قد لجأ اليها الهاربون . فتنبأ متنبئ بان الظفر يكون في جانب الفريق الذي يقتل ملكه فذهب ملك اثينا متنكراً الى معسكر الاعداء فقتلوه ثم علموا بالامر فرجعوا على اعقابهم

على ان هذه الثورات والحروب دفعت الناس الى الهجرة فذهبت منهم طوارئ الى شواطئ اسيا الصغرى واخرى الى شواطئ افريقيا واخرى الى شواطئ صقليا وايطاليا وكان حلول السواد العظيم منها في المدائن كازمير وفوسه وافسس وسرينا ومسينا وسرقوصه وتارنته ونابولي وسيباريس . وجعلت هذه

البلاد اعمر من وطنها الاصلي وعلى الخصوص الاسيوية منها فقد كانت فيها النشأة الاولى للحضارة اليونانية التي نمت وازهرت بعد ذلك في اثينا

وحفظ اليونانيون مع هذا التشتت وحدة جنسهم وكانوا كابناء الاسرة الواحدة بجامعتي اللغة والدين وكانوا يتوافدون من جميع الجهات الى هيكل دلفس في ميعاد معلوم ليسمعوا اجوبة الآلهة على الاسئلة التي كانو يطرحونها عليها لمعرفة المستقبل

ومن اشهر الوسائل التي كانوا يستخدمونها لادامة ارتباطهم الاجتماعات التي كان يعقدها نوابهم الاثنا عشر في الترموبيل او في دلفوس للتباحث في المصالح العامة ومعاقبة الذين يجنون الجنايات الماسة للشرف او المضرة بالوطن

ومنها الالعاب الاولمبية التي كان يجتمع لها خلق لا يحصى فيتبارى فيها المتبارون ومن فاز منهم شرف تشريفاً كثيراً . وكانت هذه الحفلات تعقد مرة كل اربع سنين وفي سنة ٧٧٦ جعلوا يكتبون اسم الحائز لقصب السبق ليخلد في سجل مخصوص وكان يسلسل تاريخ الحوادث من تاريخ كل مباراة تقع بعده



الباب العاشر

في دين اليونانيين الاقدمين واخلاقهم

﴿ فصل ﴾

في وصف حرية افكار اليونانيين وتأثيرها على نظاماتهم

كان استقلال الفكر من اول فضائل اليونانيين واعظمها فملوكها ليسوا الا زعماء عسكريين ولا يقضون قضاء الا بمشورة الشيوخ ولا دخل لهم سوى القسم الاكبر من الغنيمة ونصف لحم الذبائح وما يتبرع به الناس عليهم . ولم تكن عندهم طائفة معينة من الكهنة ولا كتاب مقدس بل كان كل اب هو الكاهن في بيته . وكذلك لم تكن عندهم طبقة مخصوصة للشرفاء بل كان الانشط والاشجع والاكمل بفضله وصفاته هو الشريف المنعوت ولم يكن الشرفاء يحتجبون عن العامة كثيراً . وكان الملك يجلس في الساحات العامة للنظر في شؤون المملكة ويجلس حواليه الشرفاء على مقاعد من حجر مصقول ويليهم الاحرار من العامة واقفين لا يشتركون في المداولات ولكنهم يؤثرون بعلامات استحسانهم او استهجانهم على ما كان يراد تقريره

وكان الرقيق يعامل كالاجير في المنزل . وكان الزواج بامرأة واحدة وكانت بنات الملوك تملأ آنيتها ماء من الينابيع كنوسيقى الجميلة او تقوم ببعض خدم المنزل كاندروماك تقدم العلف لجواد هكتور

وكان اليوناني لايتشاره بالطعام وا لشراب ويكثر من الرياضة البدنية كالالعاب والرقص ويكرم ضيفه ولا يرحم عدوه في غضبه كما لا يضن بالعفو مع الاستعطاف ويحب الصداقة ويحرص عليها ولكنه مع هذه الاخلاق قابل للرشوة بسبب فقره مختال لكثرة اعدائه البرابرة حواليه

وخليق بالذكر ان هذا الشعب على ما كان عنده من الصفات الجليلة لم تكن عنده المهارة والدهاء في السياسة ولا المزايا التي تقوم عليها عظمته ثابتة للامم

﴿ فصل ﴾

في دين اليونانيين

كان دينهم طبيعياً محضاً يعبدون الغابات والرياح وسائر القوى الطبيعية . ويؤلهون ابطالهم وينسبون اليهم مع ذلك الخصومات والآلام والمعايب البشرية ولكنهم لم يلبثوا ان عينوا وظائف معبوداتهم فانتحل اكثرهم دين الالهة الاثنى عشر الذين كانوا في جبل الاولمب وكان رئيسهم المشتري . وكان من هذه المعبودات المنصف والمعاقب والمنتقم والمؤنب للضمير وكان المجرم يعذب في الدار الاخرة . وللصالح جنة يتنعم فيها بما كان يحبه في الحياة من اللذات

وكان يوضع في وسط الهيكل تمثال احد الآلهة وحوله

تماثيل الآلهة الثانوية التي يقبل ان توجد بجانبه . وهذه كانت بمثابة القديسين والاولياء عندنا وكانت تنسب الى كثير منها ومن الآلهة عجائب مخصوصة كأن يكون احدها لشفاء الرمد وآخر لشفاء الزكام وما شاكل ذلك مما كان الشعب يكافئها عليه بالهدايا الثمينة من منذورة وموقوفة . وكانت الذبيحة تقسم بين الآلهة والكهنة والشعب فيأكلونها . وكان الآلهة يستشارون ويسألون فيجيبون تارة بالعلامات الجوية التي تفسرها طائفة من المجاذيب كما تشاء وتارة على لسان امرأة متكهنة كانت تصوم ثلاثة ايام ثم تأتي هيكلا كهيكل دلفس الذي كان اشهر ما يجري من ذلك فيه فتطرح السؤال على الاله ثم تختلج اختلاجاً عصبياً كأن الاله حل فيها وتنطق بما يخطر في فكرها المضطرب جواباً على سؤالها

وفي الجملة فان معبودات اليونانيين لم تنر اذهانهم ولم ترفع عقولهم الى اسمى من تلك المعتقدات المضحكة ولكنها اعاضتهم عن ذلك بالمواضيع الشعرية واعانتهم على جعل منحوتاتهم اجمل صناعة وجدت في الدنيا

الباب الحادي عشر

في ذكر ليكورغس وسولون

﴿ فصل ﴾

فيما كانت عليه سبارطه قبل ليكورغس

جل ما يعرف عن سبارطه في خلال القرنين اللذين تقدما عهد ليكورغس ان عصابة من ابطال الدوريين قليلة العدد فتحتها واستباحتها ومع ذلك لم يهجرها ساكنوها فكان الدوريون فيما بينهم ابداً مستعدين للنزال كانهم جيش معسكر فى ارض اعداء وكانوا منحصرين في المدينة وضواحيها ولهم وحدهم فيها حق حضور المجتمعات العامة وتولي المناصب وهم الذين يعرفون في التاريخ بالسبارطيين وكانوا على مساواة تامة فيما بينهم وكان الشعب الخاضع لهم فريقين احدهما يعرف باللاكونيين وهم المقيمون في المدن التي لها اتصال بالخارج وكانت ممنوحة لهم الحقوق المدنية والآخر يعرف بالهليوت وهم المستعبدون القائمون في البرية على حراثة الارض يستغلونها لساداتهم ولم يلبث السبارطيون بعد مضي زمن على ما اقتسموه من غنائم البلاد واموالها ان وقع بينهم الشقاق والنزاع لما ازداد من ثروة بعضهم ونقص من مال الآخرين فتحاربوا وضعفت بذلك قوتهم في الداخل وسطوتهم في الخارج

فصل

في الكلام على ليكورغس (٨٣٢ على مايقال) وعلى قوانينه السياسية

من اغرب ماجاء في التواريخ ان سبارطه كان يتولى احكامها ملكان من بيتين مختلفين في آن واحد ودام ذلك من عهد نشأة جمهوريتها الى نهايتها قبل الميلاد بمئتين وخمس وثلاثين سنة . وكان لكيورغس الذي افردنا له هذا الفصل شقيق بوليدكتس احد الملكين في تلك الايام فلما توفي بوليدكتس في خلال الحوادث التي مر ذكرها عرضت ارملته على ليكورغس ان تتزوج به وتستخلفه على سرير اخيه ان كان يقتل ابنها فابى ذلك وتولى الحكم وصياً على الملك بن اخيه فاغضبت حكمته وحسن ادارته كبراء القوم فابعدوه عن وطنه فساح ثماني عشرة سنة يطالع قوانين الشعوب الاخرى ونظاماتهم الاجتماعية ثم عاد الى سبارطه وكانت تسمى ايضاً لسيدمونيا واستعان بوحي من كليمة دلفس على وضع دستور جديد لبلاده . وجعله ذا شطرين سياسي ومدني فاما السياسي فكان يقضي باستمرار السبارطيين على ماكانوا عليه من السيادة واللاكونيين على ما كانوا عليه من التابعية لهم . ويبين حقوق الملكين وحقوق مجلس الشيوخ وكان مؤلفا من ٢٨ عضواً كل منهم في سن الستين على الاقل . وحقوق الجمعية العامة وكانت تتألف من جمهور السبارطيين ولها ان تقبل

او ان ترفض المشروعات المعروضة عليها من الملكين ومن مجلس الشيوخ . وحقوق جمعية القضاة وكانت تفصل المشاكل التي يرفعها اليها المتقاضون . وكان الملكان يرثان التخت والرئاسة الدينية ويقودان العساكر وينفذان الاحكام التي تصدر من مجلس الشيوخ ويوافق عليها الشعب بتمام حريته

واما الشطر المدني فكان الاتم والافضل وبمقتضاه قسم ليكورغس الاراضي الى تسعة وثلاثين الف سهم فاعطى منها ثلاثين الفاً للاكونيين وتسعة الالاف الاخرى التي كانت افضلها واخصبها واوسعها للسبارطيين . وحظر على السبارطيين مبيع حصصهم لسواهم فاخطأ بذلك اذ كان عدد السبارطيين يقل على توالي الايام بسبب الحروب حتى لم يبق منهم الا الف نسمة لعهد ارسطوطاليس وانحصرت تلك الاموال الطائله في ايديهم على حين كانت املاك اللاكونيين تتناقص وتقل بسبب ازدياد عددهم فنشأت عن ذلك ثورات متوالية لم تلبث ان ضعضعت اركان الدولة وقربت اجلها

ثم ان ليكورغس بالغ في العناية بحفظ المساواة فمنع استعمال الاشياء الكمالية والنقود الذهبية والفضية والتجارة والصناعة والاشتغال بالآداب . وامر ان يطعم الناس في مآدب عامة لا تقدم لهم فيها الا المآكل الضرورية للقوت . وقضى على الجميع

بالرياضة البدنية الشاقة وكان قصده من كل ذلك ان يعد للوطن منهم حماة اشداء

ومما سنه من القوانين المؤدية الى تحقيق هذه الامنية الشريفة انه جعل الوطن احق بالاولاد من والديهم ولذلك كان يقتل الولد الذي يخلق ذا علة او خلل او عيب في جسمه . واما سائر الاولاد الاصحاء من ذكور واناث فكانوا يعودون منذ الطفولية على الحركات الرياضية المقوية للابدان الملينة للاعضاء وكانوا لا يعلمون الا مبدئين وهما احترام الشيوخ والقانون واحتقار العذاب والموت

﴿ فصل ﴾

في حروب سبارطة ومسانيا (٧٤٣ — ٦٦٨)

وكان من نتيجة هذه الوسائل المفيدة والتربية الشديدة ان خرجت سبارطة من انقسامها وتفرق كلمتها عزيزة مرهوبة الجانب فاتمت ما كانت شارعة فيه قبلا من فتح لاكونيا وزحفت على بيلوبونيزا فبدأت بالمسانيين وهم قبيلة دورية كانت قاطنة غربي تايجات . فوقعت بين الفريقين حربان احداهما استمرت عشرين سنة { ٧٤٣ — ٧٢٣ } والاخرى سبع عشرة سنة { ٦٨٥ — ٦٦٨ } وكان مقدام الحرب الاولى ازيستوديم يروى عنه انه ذبح ابنته اجابة الى ما صدر اليه من ايعاز بعض الآلهة

بلسان احد المتكهنين ثم انتحر كي لا يرى اذلال السبارطيين لشعبه بعد سقوط مدينة ايثوم التي دافع عنها عشر سنين

وكان مقدام الحرب الثانية ارستومين . ويحكى عنه انه دحر السبارطيين ودخل ليلاً الى مدينتهم وعلق علامة انتصار له في احد هيا كلهم ولكنه انكسر بعد ذلك واسر ثم نجا وعاد يقاتل اعداءه مستعيناً بملك الاركاديين فخانه حليفه ودحر ثانية فاعتصم بجبل ايرا ودافع عن نفسه احدى عشرة سنة ثم سلم مضطراً فخيره اعداؤه فتخير النفي على الاستعباد

وعلى اثر الحربين المتقدم ذكرهما هاجر جماعة من المسانيين بلادهم فاسسوا مدينة مسينا في صقليا والذين بقوا منهم استعبدوا كالهيلوتيين حراث الارض . وحارب السبارطيون بعد ذلك التيجاتيين والارجيانيين فلم ينزعوا منهم ملك بلادهم ولكن غلباتهم عليهم زادت في ابعاد شهرتهم حتى انهم كانوا يعدون في القرن السادس اول شعب حربي في اغريقيا

﴿ فصل ﴾

في ذكر ما كانت عليه اثينا الى عهد سولون

بعد وفاة الملك قودروس استعاضت اثينا عن الملك بمجلس اراكنه وكان اعضاؤه دائمين في سنة ١٠٤٥ ثم جعلوا قابلين للتغيير كل عشر سنين في سنة ٧٥٢ وفي سنة ٦٨٣ جعل انتخابهم سنويا

وعددهم تسعة . وعلى هذه الصورة انقلبت الحكومة الاثينية من استبدادية الى دستورية ذيمقراطية ولكنها لم تجد حيلة لدفع الفواحش والمنكرات التى كان يرتكبها الشرفاء ولا لاعادة الامن المفقود والراحة المنشودة بكل ما احدثه الشعب من التغيير فى هيئة حكومته . فانتدب رجل من الاراكنة يدعى دراكون لسن قانون يصلح به تلك الحال السيئة فجعله في نهاية الشدة حتى قيل انه كتبه بالدم فلم يقبله الشعب اذ كان من مقتضياته ان الذي يرتكب جنحة يعاقب بالقتل واستمرت الفتن والمفاسد جارية فى مجاريها

﴿ فصل ﴾

في الكلام على سولون (٥٩٤)

وفي سنة ٥٩٤ عهد الى سولون وكان معروفاً بقصائد نظمها ان يصلح القوانين وشكل الدستور فوضع نظاماً سهل به وفاء الديون على المدينين وافرج عن المحبوسين منهم ولكنه ابى اجابة الفقراء الى ما طلبوه من تقسيم الاراضي وتوزيعها على الشعب للمساواة بينهم وقسم الناس الى اربعة اقسام بحسب ثرواتهم . وخص الاقسام الثلاثة الاولى بحق تولي المناصب وعمم للجميع حق حضور جمعيات الشعب والتصدر للحكم في المحاكم وحظر على الاراكنة التسعة تولي المناصب العسكرية . وجعل مجلس الشيوخ

مؤلفاً من اربع مئة عضو ينتخبون من الاقسام الثلاثة الاولى ويمتحنون امتحانا مدققاً قبل تعيينهم وكان هذا المجلس يتداول قبل جمعية الشعب في الاقتراحات ثم يعرضها عليها . وكان الشعب يثبت القوانين المقترحة او يرفضها ويعين في المناصب ويتناقش فى احوال الدولة وامورها ويجتمع في المحاكم للفصل في الدعاوى الكبيرة

واعاد سولون محكمة الاريوباج فقرر ان يختار اعضاؤها من الاراكنة الخارجين من مناصبهم وان تكون هي المجلس الاعلى للحكم في الدعاوى الكبرى ولمراقبة الاخلاق والحكام والقضاة وكان لها ان تنقض ما ابرمه الشعب . وفي الجملة فان دستور سولون كان يدخل جميع الوطنيين في تقرير الشؤون العامة ولكنه يخص الفريق المتأدب منهم بادارتها . اما قوانينه المدنية فكانت تحدو بالناس على العمل والجد وتختلف عن قوانين ليكورغس من حيث لا تطلب من الرجل الواجب الوطني دون سواه ولا تقتل حكمة الاخلاق فدى للسياسة

فصل

في ذكر البيزيستراتيين والكلام على كليستنيس وتميستوكل

وبعد ان وضع سولون قوانينهَ واجراها فى مجاريها ابتعد عن أثينا لاستزادة خبرته ومعارفه القانونية والنظامية بزيارته

للامم الشرقية القديمة ووقوفه على احكامها وادارتها • فلما رجع في سنة ٥٦٥ وجد لأثينا ملكاً تنصب فيها على اثر تجدد الخصومات والفتن التي كان يتوهم قبل سفره انه اباد جرثومتها • وكان الملك يدعى بيزيسترات • لم يلغ الدستور ولكنه بتحببه الى الشعب حصل على نفوذ في المدينة رجح على نفوذ القضاة بل ازاله • وكان لين الجانب محباً للاداب والفنون • وفي سنة ٥٦٠ زعم ان بعض الناس حاول قتله فاذن له باتخاذ الحراس • وقد نفي مرتين ثم عاد مدعوا واستمر مالكا الى آخر عمره وشرف ملكه بحسن ادارته وتقدم البلاد على يده

وخلفه ابناه هيباركوس وهيبياس {٥٢٨} فحكما معاً وفي سنة ٥١٤ قتل بعضهم هيباركوس بطعنة خنجر فاجتمع الملك كله لاخيه وانقلب من ذلك الحين ظالماً شرساً • وكانت اسرة كبيرة واسعة الثروة تعرف بالالسيمونيدية قد هجرت أثينا فراراً من وجه الاسرة المالكة واخذت تترقب الفرصة لاسقاطها فلما رأت ما آل اليه امر هيبياس من كره الشعب له استنجدت بسبارطه عليه ورشت كليمة دلفس لتبدي الموافقه على خلعه فلم يلبث ان جاءها جنود من الدوريين فدخلت معهم الى أثينا ففر منها الملك ولجأ الى بلاد فارس {٥١٠} • وعادت المدينة بعد تحريرها من ربقة الاستبداد فوقعت في الفتن الداخلية • وتنازع فيها السلطة

كليستنيس وايساغورس المتقدمان في الشعب ففاز الاول على الثاني الذي لم يجده امداد سبارطه . واراد كليستنيس ان يكافئ شعب أثينا على انتصاره له لحور الدستور تحويراً زاد به نفوذ الشعب وقرر ان كل منتخب يقترع له بستة آلاف صوت فما فوق ينفى عشر سنين بتهمة انه يخشى منه على استقلال المدينه

وفي هذا العهد كانت أثينا قد فتحت جزيرة اوبه وشبه جزيرة التراس وجزيرة لمنوس فطلب تمستوكل انشاء مئتي سفينة بايراد مناجم الفضة التي كانت تستخرج من لوريون فاجيب الى ما اقترحه

الباب الثاني عشر

في الحروب المادية (٤٩٠ ـ ٤٤٩)

فصل

في ثورة اليونانيين الاسيويين على الفرس (٥٠٠)

كان داريوس قد اخضع اسكيثيا والتراس بدون ان يتنبه اليونانيون الاغريقيون لخطر مجاورته . وحدث في العهد الذي نروي تاريخه ان اليونانيين الاسيويين ثاروا للتحرر من ربقة الفرس وكانت مدينة ميلة وهي احدى مستعمرات أثينا مركز الحركة فالتمست الانجاد من سبارطه فابته عليها فطلبته من أثينا

افاجابتها اليه وارسلت اليها سفائن وجنوداً اعانوها على اخذ سرديس واحراقها ﴿ ٥٠٠ ﴾ ثم رجع الاثينيون من هذه الحملة فالتقى بهم الفرس في الطريق وكسروهم فعاف الاثينيون هذه الحرب ووقعت مصيبة الفرس كلها على رؤوس الاسيويين اذ نكلوا بهم تنكيلا واستولوا على ميلة واسترجعوا جميع المستعمرات اليونانيه الاسيوية ثم عبأوا جيشاً جراراً بقيادة مردونيوس فسيروه الى اوربا لمعاقبة حلفاء العصاة وارسلوا بجانبه اسطولا ضخماً

﴿ فصل ﴾

في الحرب المادية الاولى وفي ذكر موقعة ماراتون والقائد ميلتياد (٤٩٠)

واتفق ان نوءاً شديداً حطم الاسطول الفارسي بقرب جبل اثوس وكان اهل التراس قد ظهروا على مردونيوس وقتلوا عدداً كبيراً من جيشه فعاد الى آسيا . وارسل داريوس حملة ثانية عظيمة قائداها داتيس وارتافرن تحت امرة هيبياس الملك الخائن لبلاده . فسيرت الجيوش على سفائن في البحر ومرت من خلال جزائر الارخبيل فاخضعتها ثم انزل مئة الف مقاتل منها الى ماراتون وكان فيها ١٠٠٠٠ اثيني والف مقاتل من بلاته ﴿ بيوسيا ﴾ يقودهم ملتياد فالتقى العدوان واشتد بينهما النزال الى ان فازت الفئة القليلة ﴿ ٤٩٠ ﴾ وكان هيبياس في جملة القتلى من

الفرس . وحاول الاسطول الفارسي ان يداهم اثينا ففشل وقفل
راجعاً الى آسيا . ثم تقدم ملتياد لاسترجاع الارخبيل فدحره
العدو امام باروس فاتهم بالخيانة وحكم عليه بغرامة لم يكن في
وسعه ان يؤديها فسجن ومات في السجن من جراحه . واصبح
النفوذ الاول في اثينا لتميستوكل فادرك ان الفرس لا بد ان
يعودوا الى القتال فاخذ ينفق جميع ايرادات اثينا في زيادة عمارتها
البحرية بينما كان داريوس مشتغلا بقمع ثورة قامت عليه في مصر

﴿ فصل ﴾

في الحرب المادية الثانية وذكر موقعة سلمينه (٤٨٠)

ولم يمهل داريوس في اجله حتى يخمد هذه الثورة فأخمدها
زركسيس الذي خلفه { ٤٨٥ } ثم حشد جيشاً من جميع اطراف
سلطنته الواسعة وقاده بنفسه الى فتح اغريقيا وكانت قوته مؤلفة
من مليون رجل وفي رواية مليونين والف ومئتي سفينة حربية
و٣٠٠٠ سفينة نقل . فلما وصل من سوز الى ابيدوس اجتاز
البوغاز على جسر واحتفر قناة امر منها سفائنه كي لا تقع في
خطر الطواف حول رأس اثوس . ثم ملأ التراس ومكدونيا
وتساليا برجاله فخضعت له صاغرة ولم يصادف مقاومة الا فى
مضيق ترموبيل وكان يحميه ليونيداس ملك سبارطة فى ثلاثمئة
سبارطي وبعض التسبيين . الا ان خائناً من اليونان دل الفرس

على طريق غير طريق المضيق فساروا عليها وقد انفرجت كربتهم واحدقوا بسرية ليونيداس الصغيرة فلم تولهم اكتافها مع كثرتهم بل قاتلتهم حتى قتلت عن آخرها وتقدم الفرس الى اثينا فدخلوها وتوهموا ان الحرب انتهت مع ان اهل اثينا كانوا قد نزلوا الى مراكبهم فتراجعت بهم الى جزيرة سلمينه عند ما علمت باخذ مضيق ترموبيل . أما تمستوكل فلم يدركه اليأس مما وقع وبعد ان جعل الاثينيين فى مركز موافق لهم فى البحر اخذ يحتال على زركسيس حتى حمله على اصدار امر بمنازلة اليونانيين فى البحر ظناً منه انه يجهز عليهم واستصنع ملك الفرس عرشاً شامخاً على شاطىء البحر ليشاهد بعينه القتال فرأى تحطم عمارته { معركة سلمينة ٤٨٠ } وعاد فاجتاز بوغاز الدردنيل فاراً ذليلاً بعد ان مر به قبل ذلك بستة اشهر غانماً عزيزاً الا انه ترك ٣٠٠ ألف مقاتل فى اغريقيا تحت قيادة مردونيوس فاجتمع لمقاتلتهم في بلاته مئة الف يوناني تحت قيادة بوزانياس ملك سبارطة وفتكوا بهم فتكا هائلاً حتى لم ينج منهم الا الذين فروا قبل النزال وفي ذلك اليوم عينه ظهرت العمارة اليونانية على عمارة الفرس في ميكال على شواطىء آسيا {٤٩٧} فتم بذلك انقاذ القارة الاوربية من الاجانب وخلا البحر لاثينا

﴿ فصل ﴾

في انفراد اثينا في انجاز الحرب وذكر ما وقع لها مع حليفاتها

ظهر مما تقدم ان الفخر الاعظم في دفع الغارات الفارسية كان لاثينا . وقد انفردت بانجاز الحرب بعد ذلك سوى انها استعاضت من حليفاتها عن الرجال بالمراكب والمال . وكان الباعث على امتناع سبارطه عن الاشتراك في تلك الحرب ما حصل عندها من السآمة والكدر بسبب خيانة ارتكبها احد قوادها بوزانياس وذلك انها عهدت اليه ان يذهب الى التراس ليطرد جنود الفرس منها فكان منه ان كاتب زركيس سراً ووعده بتسليم البلاد له على ان يزوجه ابنته ويوليه تلك البلاد بالنيابة عنه

ومع انفراد اثينا فانها هي التي بادأت الفرس بالحرب فاستولت على امفيبوليس ثم على قسم من التراس ارسلت اليه عشرة الاف من ابنائها لاستعماره وبعد ذلك شرعت تحرر اليونانيين الاسيويين

واتفق لقائدها سيمون بن ملتياد انه فاز براً وبحراً في يوم واحد بقرب شواطئ الاريمدون ﴿ ٤٦٦ ﴾ فاولاها بذلك السيادة المطلقة على البحر ثم انتزع من الفرس مفتاح اوربا باستيلائه على كاليبولي . وكان رئيس الاراكنة في اثينا لذلك العهد اريستيدس الصديق

فصل

في اخر انتصارات اليونانيين وذكر سيمون (٤٤٩)

ولما جلس ارتاكزرسيس المعروف بذي اليد الطويلة على سرير فارس كانت المملكة فى انحطاط عظيم فثار عليه المصريون فى طلب استقلالهم وامدهم الاثينيون بالجنود فقاوموه سبع سنين { ٤٦٣ — ٤٥٦ } . وحدث ان سيمون نفي عن وطنه بسبب كثرة الاصوات التي اصابها فى الانتخاب الثاني وان اثينا اشتغلت فضلا عن ذلك بمحاربة سبارطه لما وقع بين المدينتين من نفرة التناظر فاصلح ارتاكزرسيس بعض شؤونه فى هذا الفترة وتجهز لاستئناف الحروب الا ان سيمون لم يلبث ان اعيد الى منصبه فاصلح ما بين العاصمتين وعاد فبادأ الفرس بالقتال فظهر عليهم براً وبحراً بقرب قبرص وعلى شواطئ اسيا واتى بذلك على الحروب المادية

وكان ملك الفرس قد اصبح يخشى سقوط مملكته نفسها فوقع على معاهدة صلح قضت عليه باعادة الحرية لليونانيين الاسيويين ومنع عمارته من دخول البحر الاسود وجيوشه من التقدم نحو الشواطئ الاعلى مسيرة ثلاثة ايام منها { ٤٤٩ } . وتوفي سيمون فى هذا الفوز العظيم

الباب الثالث عشر

في عصر بريكايس

﴿ فصل ﴾

في ذكر بريكايس

هو رجل خليق بالذكر على انفراد في جريدة اسماء الذين شرفوا وطنهم . وهو ابن كزانتيب وصاحب الانتصار في ميكال . كان شريف المولد متهما بنية الاستئثار بالسلطة ولذلك عاش زمانا مبتعداً عن الاعمال ثم تولى رئاسة حزب الشعب . واكسبه حسن سيرته وجليل خدمته النفوذ الاعظم في المدينة فاستخدمه لهداية العامة وكبح جماح شهواتها وارسل طوارئ كثيرة من اليونانيين الى المستعمرات لا لينشئوا فيها مدنا مستقلة كالسابق بل ليكونوا فيها بمثابة حراس في خدمة وطنهم

﴿ فصل ﴾

في اجتماع اعاظم الرجال في اثينا

ولم يكتف بريكليس بان تكون اثينا ذات ثروة وبطش بل دعا اليها جميع الرجال العظام المتفرقين في بلاد اليونان فاجتمعوا فيها واصبحت بذلك عاصمة النور والحضارة . وكان الناس يأتون اليها من كل فج ليتمتعوا فيها بالملاهي الادبية والمسرات العقلية والمشاهد الشائقة من طبيعية وصناعية ويحضرون الحفلات التي

ترتل فيها الاشعار الدينية وتنشد القصائد الوطنية ويشهدون في الملاعب تمثيل بعض الحوادث من تاريخ الالهة او الابطال

ودعي ذلك العصر بعصر بريكليس وبلغت فيه أثينا اعظم مبلغ من المجد وقد اجتمع فيها في آن واحد سوفوكل واوريبيد اكبر الشعراء الذين نظموا الروايات التمثيلية الفاجعة الى ايامنا هذه وليزياس الخطيب المصقع وهيرودتس الراوية الشهير وميتون الفلكي وابقراط الملقب بابي الطب وارستو فان اول شعراء الروايات الهزلية التمثيلية في الازمنة القديمة وفيدياس ابرع الناحتين وابولودور وزكسيس وبوليكنوت وبارازيوس امهر الرسامين وانا كزاغورس وسقراط اعظم فلاسفة الارض

ولو اضيف الى هؤلاء المشاهير اشيل الذي توفي في بدء زمان ظهورهم ثم توسيديد وكزنوفون وبلاطون وارسطوطاليس الذين جاءوا بعدهم بقليل لادرك القارئ السبب الذي من اجله لقبت أثينا في ذلك العصر بمدرسة اليونانية وفيما بعده بمدرسة العالم اجمع

الباب الرابع عشر

في تناظر سبارطه وأثينا وثيبه

فصل

في غضب الحلفاء على أثينا

كانت أثينا بعد انتصارها بسلمينه قد تولت الرئاسة على ما

سمي باتحاد اليونانيين الاغريقيين والاسيويين لاستتمام محاربة الفرس فلما تعب حلفاؤها من القتال اكتفت بمالهم بدل جنودهم وبقيت تقاتل عنهم ٠ ولما انتهت الحرب استمرت تتقاضى الجزية منهم بدعوى انها تستعد لردغارة جديدة فرأوا انها انما تاخذ اموالهم لزيادة ابنيتها واقامة حفلاتها الشائقة فتظلموا فلم تكشف ظلاماتهم وردتها بكبر وغلظة فشكوا سراً الى سبارطه وكانت عندها غيرة كمينة من اثينا فاخذت تسعى في تأليف محالفة لتقاومها بها براً وبحراً ثم جرت بين الفريقين مناوشات لا يعتد بها من سنة ٤٥٧ الى سنة ٤٣١ اما الحرب الكبيرة فلم تشهر الا على أثر فتح الثيبيين حلفاء سبارطه مدينة بلاته

﴿ فصل ﴾

في حرب المورة (بيلوبونيزا) الى عقد مصالحة نيسياس (٤٣١ ــ ٤٢١)

لم تكن هذه الحرب فى بدء امرها على ما اشرنا اليه آنفاً الا غارات يشنها السبارطيون فى كل ربيع على الاتيك ومناوشات بحرية تسطو بها مراكب اثينا على شواطىء المورة ٠ وفي السنة الثالثة من ابتداء هذه الحروب توفي بريكليس بالطاعون {٤٢٩} وخلفه زعماء غير اكفاء لا يستطيعون كبح جماح الشعب فنجمت عن ضعفهم نتائج وخيمة منها انه قتل فى مقتلة واحدة الف ومئتان من العصاة الذين ثاروا على اثينا فى جزيرة متلين

وعند ما افتتحت الحرب المنتظمة لم يستقر فيها الفوز لاحد الفريقين من سنة ٤٢٩ الى ٤٢٦ . وقد تغلب البيوسيون في خلالها على مدينة بلاته فهدموها وتغلب الأثينيون على بوتيده فاستولوا عليها . وفي سنة ٤٢٤ دخل برازيداس القائد السبارطي مدينة امفيبوليس ودخل ديموستين القائد الأثيني مدينة بيلوس وحرر الهيلوتيين وهم الطبقة المسترقة من الشعب . وكان ٤٠٠ سبارطي قد اتوا لانقاذ بيلوس فاسرهم اعداؤهم في سفاكتيريا وانتصروا بعد ذلك على القرنثيين والبيوسيين والميجاريين وحلفائهم غير انهم عادوا فانكسروا في دليون وقتل رئيس اراكنتهم كليون امام بوتيده وقتل برازيداس ايضاً في الموقعة نفسها . ثم علت كلمة انصار الصلح بين الفريقين { ٤٢١ } ووقع نيسياس على معاهدة الصلح التي عرفت باسمه

فصل

في حملة صقليا وذكر السيبياد (٤٢٥ ــ ٤١٣)

وجاء هذا الصلح معارضاً لمطامع السيبياد بن اخت بريكليس وكان يريد الحرب ليترقى في المناصب فاقترح مناوأة صقليا فاجيب الى ذلك ولكنه اتهم في خلال الحرب بانه ارتكب ذنباً دينياً منكراً فعزل من منصبه بسببه فلجأ الى سبارطة وانتظم في جيشها ليقاتل فيه وطنه قتالاً يقضي به عليه . وكانت في هذه الاثناء جنود

حملة صقليا قد تهاونت في حصار مدينة سرقوصه الذي تولى ادارته نيسياس بعد عزل السيبياد ففاز اهل المدينة عليهم وسحقوهم براً وهدموا عمارتهم بحراً وذبحوا زعماءهم الذين وقعوا احياء بين ايديهم وباعوا العساكر بيع الارقاء

وكان هذا الفشل العظيم ضربة قاتلة لاثينا وباعثاً شديداً لسبارطة على استئناف محاربتها فحصنت لذلك مدخل الاتيك واستعانت بالفرس عملاً بمشورة الخائن السيبياد غير ان اثينا قاومت العدوين جميعاً . واتفق ان السيبياد ابعد عن سبارطه لجريمة اخرى اتهم بها فلجأ الى آسيا وتقرب من تيسافرن عامل ملك الفرس على آسيا الصغرى بما ادخله في ذهنه من ان دوام هذه الحرب بين الدول اليونانية مفيد للمملكة الفارسية . وكان لاثينا جيش في ساموس فاتصل السيبياد به واغراه بمواعيد الاعانات من الفرس فولاه قيادته

وحدث على اثر ذلك ان شعب اثينا قلب حكومته وغير صورتها ودستورها فانشىء بمقتضى النظام الجديد مجلس عال مؤلف من اربعمئة عضو مكان مجلس الشيوخ وجمعية مؤلفة من خمسة آلاف عضو مندوبين مكان الجمعية التي كانت ابوابها مفتوحة للشعب كافة { ٤١١ } ولما علم جيش ساموس بهذا النظام ابى الخضوع له فلم يدم اربعة اشهر حتى الغي وابقيت منه جمعية

الخمسة الآلاف . ثم عقد الصلح بين الشعب وجيش ساموس على ان يعاد السيبياد الى وطنه فاذن بالعودة وعهد اليه ان يدير رحى الحرب على سبارطه فانتصر في موقعتين بحريتين في بوغاز الدردنيل {٤١١} وفي معركتين برية وبحرية بقرب سيزيك {٤١٠} واستولى على بيزانس اوبيزنطه { ٤٠٨ } فايد سيادة اثينا على التراس وايونيا وعاد الى وطنه غانماً مكرما {٤٠٧} الا انه غلب بعد ذلك باشهر في بعض غزواته الصغيرة فخامر النفوس ريب من امره فجرد من سلطته وفر لاجئاً الى آسيا فقتله الفرس فيها

﴿ فصل ﴾

في تحالف سبارطة والفرس وفي سقوط اثينا (٤٠٤)

كان سيروس اخو الملك ارتكزرسيس الثاني متولياً قيادة الجيش الفارسي في آسيا الصغرى طامعاً في اسقاط اخيه ليخلفه فرأى أن يستعين بالسبارطيين على بلوغ مأربه فامد ليساندر القائد السبارطي بمال ورجال فغلب الاثينيين في موقعة آغوس بوتاموس الشهيرة التي افقدتهم السيادة البحرية { ٤٠٥ } ثم استولى على اثينا نفسها { ٤٠٤ } فدمر جدرانها وجعل بحريتها لا تزيد عن اثنتي عشرة سفينة واستبدل حكومتها بثلاثين رئيساً أقامهم عليها . فاستبدوا وظلموا الى حد انهم قتلوا بلا

ذنب احدهم لانه اقترح عليهم العفو عن بعض المحكوم عليهم فلم يطق اهل اثينا هذا النير وانضموا الى رجل شهير منهم يدعى ترازيبولس كان منفياً وعاد لمقاتلة الظالمين فانتصر عليهم واسقطهم واعاد دستور سولون {٤٠٣} وبعد مضي هذه الحادثة باربع سنين صدر الحكم المشهور على سقراط ابي الفلسفة بشرب الشوكران لما اتهم به من افساد التعاليم الدينية فمات شهيد الخرافات التي كان اول محارب لها

فصل

في عظمة سبارطه وذكر حملة العشرة الآلاف (٤٠١) وذكر اجزيلاس

ظهر مما تقدم ان الرئاسة في اغريقيا انتقلت من اثينا الى لسيدمونه غير ان هذه لم تحسن شيئاً من فن او علم ولم يقم فيها الا زعماء ذوو مطامع وجشع

وكان سيروس قد استنجد بالسبارطيين لاتمام مقصده فامدوه بثلاثة عشر الف مقاتل فتقدم الى جوار بابل وانتصر على جيوش اخيه في كوناكسا ولكنه توفي على الاثر {٤٠١} فاحدق الفرس باليونانيين من كل جانب فتراجع اليونانيون متقهقرين وهم كالبناء المرصوص متحركاً واستعملوا ما شاء الله من الحكمة والدهاء وعانوا ما لا يطاق من المشاق وحيروا اعداءهم باقدامهم طوراً واحجامهم حتى نفذوا من طوقهم وجدوا المسير لا يدركهم

تعب ولا تستوقفهم العقبات وكانت رجعتهم الشهيرة هذه بقيادة كليارك السبارطي بادئ بدء ثم بقيادة المؤرخ الشهير كزنوفون الاثيني الذي وصفها في كتاب من انفس ما كتب في عصره . وكانت جملة ما اجتازوه الفاً وستمائة كيلومتر من الارض الوعرة والجبال التي لم تطرق لها مسالك وذلك في القسم الاعلى مما بين النهرين وفي ارمينيا والبنطس الى ان ادركوا البحر الاحمر . وقد دلت هذه العودة التي عرفت في التاريخ بعودة العشرة الآلاف على ما كان في المملكة الفارسية من الضعف الداخلي تحت ظاهر القوة والبأس وهي التي حدت باجزيلاس ملك سبارطه سنة ٨٩٦ على الشروع في فتح مملكة فارس وكان من امره في هذه الحرب انه ظهر على ولاة آسيا الصغرى واستثار المصريين واخذ يستعد لمواصلة السير ولكنه استوقفته دسائس ملك الفرس بما توصل اليه بالرشوة من جمع كلمة قرنثيه وثيبة وارغوس ثم اثينا وتساليا على سبارطه فعاد اجزيلاس مهرعا من اسيا وانتصر على اعدائه المتحالفين في كورونه فوطد بذلك دعائم السيادة البرية لسبارطه عليهم غير ان كونون الاثيني تولى قيادة اسطول فينيقي ودمر به اسطولها وافقدها السيادة البحرية واقام اسوار اثينا بامداد من اموال الفرس

﴿ فصل ﴾

في معاهدة انتالسيداس (٣٨٧)

فتخوف السبارطيون من تجدد نشأة أثينا وانفذوا انتالسيداس الى ملك فارس ليعقد معه صلحاً من مقتضاه ارجاع اليونانيين الاسيويين الى سلطته وقبول ما يشرطه على سبارطه

وانما وصلت اغريقيا الى هذه الدرجة من التذلل والتزلف لان المال قام فيها مقام الفضيلة وكان ملك الفرس ذا ثروة عظيمة ينطق برشوته الخطباء في تلك البلاد ويحرك الجنود والاساطيل والمدائن كما يشاء

﴿ فصل ﴾

في تنازع سبارطه وثيبة وفي ذكر ابامينونداس (٣٨١ ـ ٣٦٢)

وكانت سبارطه قد القت المدائن اليونانية كلها على قدمي ملك الفرس لتستمر قائمة وحدها فيما بينها واخذت تستبد بها استبداداً لا يطاق فهدمت مانتينه بلا موجب واسقطت اولينتيا لغيرتها منها ونفت جماهير من الوطنيين لتوقع الرعب في قلوب الباقين وحدث ان فيداس احد قوادها داهم قلعة قدمه فاستولى عليها { ٣٨٢ } مع انها كانت ملك ثيبة حليفة سبارطه واستبقاها لقومه فنهض بيلوبيداس الثيبي في مقدمة جمهور من مواطنيه المنفيين مثله وحالف جميع مدائن بيوسيا لمحاربة سبارطه

وكان قائد جيشها ابامينونداس فلما لقي جيش السبارطيين سحقه سحقاً في موقعة لكتر { ٣٧١ } ودخل المورة وتقدم الى اسوار سبارطه نفسها غير انه لم يدخلها وشيد على جوانبها قلعتي ميغالوبوليس ومسانه ليلجأ اليهما الاركاديون والمسانيون حلفاؤه عند مسيس الحاجة {٣٦٩} فاستعانت سبارطه بالاثينيين والفرس ودنيس ملك سرقوصه لاسقاط ثيبة فدخل ابامينونداس الموره ثانية واستمال ملك الفرس اليه فخالفه ثم انشأ عمارة مؤلفة من مئة سفينة امد بها رودس وشيوس وبيزانطه وقد ثارت جميعها على اثينا ولكن نكد الطالع غلب على سعد ثيبة فتوفي ابامينونداس في غزوته الثالثة للمورة وهو منتصر على اعدائه في موقعة مانتينه وسقطت بموته دولة ثيبة

الباب الخامس عشر

في فيليب المقدوني وديموستين (٣٥٩ ـ ٣٣٦)

فصل

في ذكر فيليب (٣٥٩)

ان مقدونيا بقعة متسعة شمالي تساليا والبحر الاسود . حكمها ملوك من اول عهدها ولكنهم كانوا محوطين بالشعوب البربرية ومقيدين بسلطة شرفاء بلادهم فلم يكن لهم شأن يذكر .

وقبل ان يتولاها فيليب كانت تدفع الجزية للايليريين وكانت الاحكام فيها فوضى بسبب تداخل ثيبة واثينا في شؤونها . وكان فيليب في صباه قد ارسل الى ثيبة رهناً على انفاذ بعض الشروط التى قضت بها ثيبة على مقدونيا فربي في بيت ايامينونوداس وتلقى على يديه فنون الحرب والدهاء وعلم منه كيف يستطيع رجل واحد ان ينقذ بلاده . ثم لم تمض *سنتان على بلوغه الملك حتى انجى وطنه من تداخل الاجانب فيه واعتداء مجاوريه عليه

﴿ فصل ﴾

في فتح امفيبوليس وفي احتلال تساليا

ثم اخذ يسعى في توسيع مقدونيا وادخال اغريقيا كلها تحت ولايتها ففتح بوتيده ووهبها لجمهورية اولينتيا ليكتفي بذلك معارضتها له في انفاذ مأربه الكبير ثم فتح امفيبوليس ولم ينجدها الاثينيون لاغترارهم بما وعد من جلائه عنها بعد حين واخضع سائر البقعة الواقعة بين نستوس وستريمون وفيها وقع على ما يحتاج اليه من الخشب لابتناء المراكب وعلى مناجم للذهب كان يرده من تعدينها مال كثير في كل سنة . وتقدم من تلك البلاد الى التراس فاستولى على جانب منها ونوى الزحف على بيزنطه فصده الاثينيون عنها . فتحول عن هذه الجهة الى غيرها وتداخل في امور تساليا فاسقط الذين كانوا عليها من الحكام

الظالمين وقوى بذلك نفوذه فيها ثم حدث ان الفوسيديين حرثوا حقلا مقدساً ليستغلوه فحكم عليهم مجلس الامفيكتيون الكهنوتي بعقوبة لم ينفذوها فتصدر فيليب لحماية الدين وقاتل اهل فوسيده قتالاً عظيماً دحرهم به { ٣٥٢ } فعرف التساليون له هذا الفضل ووهبوه ثلاثا من مدائنهم فوضع فيها حوامي مقدونية وجعلهم بذلك مباشرة تحت سلطته ثم زحف على مضيق الترموبيل فحال الاثينيون دون استيلائه عليه كما حالوا قبلا دون اخذه لبيزانطه وللاوبه

﴿ فصل ﴾

في ذكر ديموستين

وكان في ذلك العهد الخطيب الشهير ديموستين يكشف الستار عن مطامع فيليب ويحذر اليونانيين منه . غير ان خطبه على بلاغتها لم تقف في وجه ذلك القوي المحتال فما عتم حتى فتح اولينتيا وكانت اشد حائل دون اتساع مقدونيا { ٣٤٨ } وتقدم منها الى الاوبه ومنها الى الاتيك وانتصر على الاثينيين فعقدوا معه صلحاً اشار به ديموستين نفسه لقضاء الضرورة القصوى به في ذلك الاوان

﴿ فصل ﴾

في الحرب المقدسة الثانية (٣٤٦) وفي موقعة خرونيا (٣٣٨)

وبينما كانت اثينا لاهية باعيادها وحفلاتها اجتاز فيليب الترموبيل وفتك بالفوسيديين وانتزع منهم ما كان لهم من العضوية في مجلس الامفيكتيون { ٣٤٦ } واخذ يستخدم المجلس المشار اليه في جميع اغراضه . غير انه لم يكثر من الفتوحات في تلك الجهة مخافة ان ييأس اهلها وينهضوا لمصادمته نهضة تقضي عليه او عليهم فحول وجهته الى نهر الدانوب وادخله في تخوم مملكته ثم انقض على التراس فرد فوسيون الاثيني الشهير غارته عن المستعمرات اليونانية بشواطئ الدردنيل وفى هذه الاثناء عزم اليونانيون على القيام بجهاد آخر ينتقمون به لدينهم من اللوكريين فنصبوا فيليب قائداً عاماً لادارة هذه الحرب فلم يلبث ان وصل الى اغريقيا الوسطى واخضع ايلاته فنهض ديموستين يقاوم سيف الفاتح بلسانه القاطع وحالف بين اثينا وثيبة لتدافعا الدفاع الاخير عن الحرية اليونانية وكان ملتقى الجمعين في خرونيا {٣٣٨} فانتصر الملك انتصاراً باهراً على اعدائه ولكنه عامل محاربيه بالحكمة والاعتدال تحبباً اليهم ثم حمل مجلس الامفيكتيون على تعيينه قائداً عاماً لليونانيين في محاربة الفرس وكان يريد بذلك اظهار سلطته بمظهر شرعي . غير ان رجلا شريفاً يدعى بوزانياس قتله بايعاز من الفرس وقيل من امرأته { ٣٣٦ } فتوفي في السابعة والاربعين من عمره وقد جعل مقدونيا مملكة

عظيمة تمتد تخومها من الترموبيل الى الدانوب ومن شواطىء الادرياتيك الى البحر الاسود · وكانت قد نجت من مخاوف الاجانب في خارجها ومن فتن الاعيان وغيرهم في داخلها

الباب السادس عشر

في الاسكندر المقدوني (٣٣٦ ـ ٣٢٣)

﴿ فصل ﴾

في خضوع اغريقيا للاسكندر (٣٣٦ ـ ٣٣٤)

عند ما علم اليونانيون بوفاة فيليب وبان الذي يخلفه شاب في العشرين من العمر تحركوا للثورة فهب الاسكندر لتسكينهم فاخضع التراس وايليريا ودمر البرابرة على ضفتي الدانوب ثم بلغه ان اهل ثيبة ذبحوا الحامية المقدونية فقدم في ثلاثة عشر يوماً من ضفاف الايستر الى بيوسيا وقال ان ديموستين دعاني ولداً حين كنت في ايليريا ودعاني شاباً حين وصلت الى تساليا وسأريه اني رجل حين ادرك اسوار اثينا

واستولى الاسكندر على ثيبة وذبح ستة آلاف من سكانها وباع ثلاثين الفاً منهم بيع الرق فخاف بأسه اليونانيون ومنحوه في قرنثية لقب القائد العام لمحاربة الفرس اجابة الى طلبه ونزولا على حكمه

﴿ فصل ﴾

في حرب الفرس (٣٣٤) وذكر استفتاح الساحل الاسيوي ومصر

فاجتاز الاسكندر الدردنيل في ثلاثين الف راجل و ٤٥٠٠ فارس وانتصر بقرب نهر الغرانيك على مئة وعشرة آلاف من جنود فارس واستمر يتقدم لازما السواحل ليمنع بذلك عمال الفرس من الوصول الى اغريقيا واثارة الخواطر فيها عليه . فتصدى له دارا في مدينة ايسوس باسيا الصغرى فاستظهر الاسكندر عليه {٣٣٣} ورده على اعقابه ولم يتبعه للتنكيل به بل لزم خطة سيره واستأنف التقدم على الشواطىء وكان يحتل جميع الثغور الى ان بلغ مدينة صور فحاصرها سبعة اشهر حتى نزلت على حكمه ثم انقلب منها الى مصر ففتحها وقضى فيها سنة وضحى لآلهتها ليستميل بذلك الشعب اليه واسس مدينة الاسكندرية واستمنح كهنة آمون لقب ابن الآلهة وكان هذا اللقب لا يمنح الا للفراعنة قبله {٣٣٢}

﴿ فصل ﴾

في فتح بلاد فارس وذكر وفاة دارا ومقتل كليتوس (٣٣١ ـ ٣٢٧)

ثم استأنف الاسكندر حروبه الاسيوية حتى اذا اخضع جميع عمالات الفرس البحرية اجتاز فلسطين وسوريا ثانية وقطع الفرات ودجلة دون ان يصادمه الفرس مصادمة تذكر وادرك

دارا في صحراء اربل فسحق جيشه فقر دارا في شرذمة بقيت له نحو عمالاته الشرقية واما الاسكندر فدخل بابل وقرب فيها قرباناً للاله بيلوس وشيد هيكله الذي كان اكزرسيس قد هدمه وافتتح سائر عواصم دارا وهي سوسه التي كانت تحتوي على اموال طائلة وبازرجاد التي كانت بمثابة بيت مقدس المملكة وبرسوبوليس او مدينة فارس وهذه العاصمة احرقها الاسكندر اعلاناً للشرق بان فاتحاً جديداً جلس على سرير كورش. ثم اخضع بنفسه وبقواده جميع سكان الجبال المجاورة لتلك البلاد وتقدم الى اكباتان فوصل اليها بعد فرار دارا منها بثمانية ايام فاقتص اثره وكان على وشك ان يظفر به حياً فما ظفر الا بجثته لان ثلاثة من رجاله كانوا قد قتلوه . وكان من القاتلين له قائد يدعى بيسوس حاول اتخاذ مركز لمقاومة الاسكندر في باكتريانا فلم يمهله الاسكندر بل اجتاز آريا واراكوزيا وباكتريانا الى نهر الاوكسوس بسرعة عجيبة. وهناك وقع بيسوس بين يديه وذلك انه كان قد لجأ الى ماوراء النهر المذكور فقبض عليه جماعة ودفعوه الى الاسكندر فشكل مجلساً من الماديين والفرس لمعاقبته فحكموا بتسليمه الى اخ لدارا فاهلكه في اشد العذاب

وقضى الاسكندر فصل الشتاء في تلك البقاع فاسس اسكندرية اخرى على ضفاف نهر ايا كزارتس واسكنها جماعة من

اليونانيين المقاتلين معه بالاجرة وجماعة من البرابرة المجاورين وقسما من عساكره الذين اصابتهم العاهات فجعلتهم غير صالحين للحرب • وفي تلك الاثناء نهض رجل يدعى سبيتامين احد شريكي بيسوس في جريمته لاستئناف ماكان زميله قد بدأ به من محاربة الاسكندر فاصابه الفشل ففر ولجأ الى قبيلة كبيرة من قبائل التتر يعرف اهلها بالمساجيتيين فذبحوه وبعثوا برأسه الى الجيش المقدوني

وعلى اثر هذه الحوادث تزوج الاسكندر بروكسانا ابنة دارا ملك الفرس واسس مدائن كثيرة في تلك البلاد وترك فيها آثاراً خالدة على الايام وابقى ذكراً جميلاً لا يشوب صفاءه كدر الا مما ركبه من الفظائع القبيحة كتعذيبه ظلماً لمقرب اليه يدعى فيلوناس وايقاعه بابي الرجل المذكور عقاباً لهما على عدم اخبارهما له بامر لم يعلما به وهو حدوث تواطئ سري عليه • وكقتله وهو سكران في احدى المآدب لقائده الامين كليتوس ﴿٣٢٧﴾ وكاهلاكه الفيلسوف كاليستينس بسبب مؤامرة لم تكن له يد فيها

﴿ فصل ﴾

في وصول الاسكندر الى ما وراء السند وفي ذكر عوده الى بابل ووفاته

(٣٢٧ ـ ٣٢٣)

ولم يكف الاسكندر انه جعل من مملكة فارس مملكة

مقدونية بل اراد التقدم الى الهند . فوجد على ضفاف الكوفيس ملكاً هندياً يدعى تكسيل استنجد به على فور احد ملوك تلك البلاد فاستقطع الاسكندر غابة برمتها كانت بقرب معسكره واستصنع منها مراكب اجراها على السند وتغلب على فور ولما اسره سأله كيف تريد ان اعاملك فاجابه معاملة ملك فرضي الاسكندر عنه لهذا الجواب ورد اليه ملكه اوسع مما كان وكلفه بالطاعة له ثم اراد اجتياز نهر ايفاز او بيجا للدخول الى وادي الكنج فابى عليه ذلك جيشه فاضطر الى الوقوف حيث كان ورسم هناك حدود مملكته وشيد عليها اثني عشر مذبحاً اقام فيها حفلات شائقة . ثم قفل راجعاً فجاز السند وهبط الى البحر المحيط واخضع في طريقه كل القبائل التي لقيها على ضفاف هذا النهر واسس المدائن والمواني ومصانع الخشب وعاد الى بابل وقد اجتاز بلوخستان وكانت تعرف بصحراء جدروزيا وكارمانيا ولم يجتزها جيش قبل جيشه . وفي هذه الاثناء كان نيارك احد امرائه البحريين يسير اسطوله على جوانب الساحل الى ان ادرك خليج العجم فنفذ منه لملاقاة مولاه وكانت خطته هذه في سيره اول طريق رسمت بحراً لطلاب الاتجار مع اهل الهند

هذا وان الاسكندر مع ما كانت ترسله اليه مقدونيا واغريقيا من الرجال كان لا يستطيع ان يبني ذلك العدد العظيم من المدائن

ويبقى جميع الشعوب التي اخضعها تحت حكمه لو لم يعامل الامم التي تغلب عليها بالحكمة والدهاء السياسي كأن يقرب القرابين لآلهتهم ويزوج الكثيرين من رجاله ببناتهم كما تزوج هو بابنة دارا • وكان اعظم ما يطمع فيه استحكام الصلات التجارية بين الشرق والغرب وبين اغريقيا والفرس بحيث تصبح جميع تلك الخلائق على اختلاف اجناسها مملكة واحدة لتوافق مصالحها • غير ان الموت ادركه في بابل على اثر اكثاره من السكر وركوب الفاحشة فانحلت عرى مقاصده الضخمة { ٢١ ابريل ٣٢٣ } وعند ما كان في حالة النزع دفع خاتمه الى برديكاس احد قواده فسأله الآخرون من تستخلف على عرشك فاجاب « اولاكم به ولكني اخاف ان تلطخوا بالدماء مشهد دفني » وكان الاسكندر حين وفاته في الثانية والثلاثين من العمر وكانت مدة حكمه ثلاث عشرة سنة • وحدث قبل دفنه ما تنبأ به من وقوع الفتن بين رجاله

{ فصل }

في عصر الاسكندر

ظهر في عهد فيليب والاسكندر رجال عظماء اتموا مجدها ومجد اليونانية وهم براكسيتال { ٣٦٠ — ٢٨٠ } الذي كان ابرع الناحتين اليونانيين في ابراز التماثيل خفيفة الرسم في العين عذبته

وبامفيل الرسام الذي بلغ من البراعة مبلغ المتقدمين عليه بالزمان وهم فيدياس وبوليكلات وزوكسيس ٠ وكان استاذ ابيل الشهير ٠ ثم ديموستين وليكورغوس وهيبياس واشين وسوفوكل الخطباء الذين لم يشق لهم غبار في ميدان الفصاحة والفيلسوف افلاطون { ٤٢٩ — ٣٤٧ } اشهر تلامذة سقراط وهو الذي كان يعلم حكمته في خدائق اكاديموس ويخلب الالباب بسخر بيانه العذب الرقيق حتى ان اليونانيين كانوا يزعمون ان اباه ابولون اله الموسيقى والصنائع الجميلة وان طائفة من النحل اودعت عسلها على شفتيه حين ميلاده

وارسطوطاليس الملقب بابي الفلسفة { ٣٨٤ — ٣٢٢ } اشهر تلامذة افلاطون ثم قرينه واستاذ الاسكندر وهو صاحب الذكر المخلد في الدنيا بما عرفه وعرّفه من نواميس العقل البشري ونواميس الطبيعة

ولا تزال الفلسفة الى هذا اليوم تسير على الجادتين اللتين خطهما لها افلاطون وارسطو واحداهما الروحانية الخيالية والاخرى الوضعية التحقيقية

ويلي هذين الحكيمين في درجة بعيدة عنهما كزينوفون الذي كان عذب الحديث رقيق الحكمة

الباب السابع عشر

في انقلاب اغريقيا والممالك اليونانية الى ولايات رومانية (٣٢٣ــ ١٤٦)

فصل

في تقسيم مملكة الاسكندر وذكر موقعة افسس (٣٠١)

بعد وفاة الاسكندر بثلاثة اشهر ولدت امرأته روكسانا ولداً ذكراً دعي اسكندر اغوس . وكان للاسكندر غلام اخر غير شرعي واخ ابله واختان تدعيان كليوباترا وتسالونيس وكانت والدته او ليمبياس لا تزال في قيد الحياة . وبعد مناقشة طالت نودي باسكندر اغوس واريداي بن فيليب ملكين معاً وعهد الى انتيباتر احد قواد الاسكندر ان يقوم بتدبير القسم الاوربي من المملكة والى كواتير ادارة الشؤون المتعلقة باريداي فكان بمثابة القيم عليه وجعل برديكاس في مقام وزير اعظم لجميع المملكة . وقد نشأت عن انقسام السلطة على هذه الصورة فتن قتل فيها جميع اعضاء الاسرة المالكة واكثر قواد الاسكندر ثم تمزقت المملكة وانفكت عرى وحدتها بعد تنازع شديد وفتن هائلة كانت اخيرتها موقعة عظيمة جرت في افسس احدى قرى فريجيا وهي آخر جهد بذله القائد انتيفون لاعادة وحدة تلك السلطنة السريعة الزوال { ٣٠١ }

وكان انقسام المملكة على اثر هذه الموقعة الى اربعة اقسام

بين اربعة من قواد الاسكندر اولها مصر امتلكها بطلميوس سوتير مع بلاد العرب وجزء من سوريا وثانيها مقدونيا وبلاد اليونان اخذها كسندر وثالثها بلاد التراس وبيسينيا وجانب من اسيا الصغرى استبد بها زيماخوس ورابعها بقية ما فتحه الاسكندر من البحر الاسود الى نهر السند تولاها سلوقس وسميت بالمملكة السورية

وكان في خلال سنة ٣١١ مقتل اسكندر اغوس ووالدته روكسانا وخلا الجو للمغتصبين

﴿ فصل ﴾

في مملكتي سوريا (٢٠١ — ١٦٤) ومصر (٣٠١ — ٢٣٠)

واستقل سلوقس نيقاتور احد المنتصرين في افسس بجميع البلاد الواقعة بين السند والبحر الاسود وجعل عاصمتي ملكه سلوقة وانطاكية . ثم خلفه ابنه ولم يستطع رد غارة الغاليين عن فريجيا فنزلت على حكمهم واقاموا فيها وسميت من ذلك الوقت غلطة

وفي عهد انطيوخوس الثاني الذي لقب بالاله استقل القوم الباكتريون في احدى عمالاته الشرقية ولكن استقلالهم لم يدم الا قليلا واستقل البارتيون بعمالة أخرى منها وجددوا مملكة الفرس . ثم ملك انطيوخوس الثالث الملقب

بالكبير { ٢٢٤ — ١٨٧ } فقاتل الرومانيين فظهروا عليه في الترموبيل { ١٩١ } وفي مغنازيا { ١٩٠ } واخذوا منه جميع البلاد الاسيوية فيما وراء طورس ثم جعلوا سوريا نفسها ولاية رومانية { ٦٤ } اما مصر فتولاها اللاجيديون الذين دعوا بالبطالسة واصبحت في زمانهم مملكة شديدة الصولة ومركزاً تجارياً لجميع العالم ومأوى لاهل المعارف والآداب واقيمت لهم مكتبة عظيمة في الاسكندرية

ولكن لم يلبث الملوك المنهمكون بلذاتهم المستبدون باحكامهم ان خلفوا الملوك العادلين المهرة في السياسة فاضعفوا المملكة الى ان اضاعوها

وكانت دولة الارتقاء في عهد بطلميوس سوتير { ٣٠١ } فانه اضاف الى مصر السيرينايك وقبرص والقسم المعروف ببقاع سوريا وفينيقيا ٠ وفي عهد فيلادلف { ٢٨٥ } فانه وسع نطاق البحرية وانتصر في حرب اقامها عليه اخوه ماجاس حاكم سيرينا وحرب اخرى شهرها عليه ملك سوريا وقد حاول ان يطأ ارض مصر فرده خائباً ٠ وفي عهد افرجيت { ٢٤٧ } فانه فتح آسيا الى بكتريانا وافريقيا الى داخل الحبشة واخضع له قواده في تلك الاثناء الحجاز ليستولوا على طريق التجارة الى الهند

اما دور الانحطاط فبدأ بفيلباتور { ٢٢٢ } ثم زاده ابيفان

بانتمائه الى الرومانيين فلم ينفكوا من ذلك العهد عن التداخل في شؤون مصر الى اليوم الذي ضحى فيه انطونيوس الروماني وطنه وشرفه وحياته في غرام كليوباترا فجاء اوكتافيوس قيصر لفتح مصر مكانه فحاولت كليوباترا ان تخلب عقله بمحاسنها كما فعلت بانطونيوس من قبله فلم تنل منه مرامها وخافت من ذل الاسر فوضعت ثعبانا على ثديها فاماتها وانقلبت مصر بعد عزها الى ولاية رومانية {٣٠}

ومما يخلق بالذكر هنا ان مملكة برغام اليونانية باسيا الصغرى كانت ايضاً قد اصبحت ولاية رومانية بمقتضى وصية آخر ملوكها سنة ١٢٩ . وملخص حديث هذه المملكة انها بعد ان استقلت زماناً فتحها الفرس ثم اسكندر المقدوني ثم التراسيون ثم سلوقس الاول ملك سوريا . وبعد امد عادت فاستقلت وتولاها ملوك منها وكان آخرهم الذي اهداها برمتها الى رومة واسمه اتالوس الثالث

{ فصل }

في مملكة مقدونيا (٣٠١ — ١٤٦) وذكر موقعتي سينوسيفال وبيدنا

لما جلس ابناء انتيفون الذي ورد ذكره في موقعة افسس على سرير مقدونيا ارادوا ان يضموا اليها اليونانية كلها كما فعل فيليب والاسكندر . وبينما كانت الحرب الثانية قائمة على

ساق وقدم بين رومة وقرطاجنة استولى الرومانيون على ايليريا فحاربهم ملك مقدونيا في ذلك العهد وكان اسمه فيليب ليردهم الى البحر وعقد مع انيبال معاهدة { ٢١٥ } يعده فيها بالاخذ بناصره على اعدائه ويستعين به بعد طرد الرومانيين على ضم اغريقيا الى مقدونيا • غير ان الرومانيين دحروا جيش فيليب على ضفاف نهر الاوس فقفل راجعاً الى مملكته خائب الامل ثم اجترأ على التحرش برومة بعد ان تخلصت من انيبال فارسلت اليه سجباً من جيوشها فالتقوا في سينوسيفال { ١٩٧ } بالمقاتلة المقدونيين وسحقوهم سحقاً على ما كان لهم من الشهرة بالبسالة

وتولى بعد فيليب ابنه برسه فكسر الرومانيون جيوشه في بيدنا { ١٦٨ } وفي سنة ١٤٦ محيت مقدونيا من عداد الدول واصبحت مملكة الاسكندر ولاية رومانية

﴿ فصل ﴾

في وفاة ديموستين (٣٢٢) وذكر العصابة الاخائية (٢٥١ــ١٤٦)

بينما كان خلفاء الاسكندر يتقاسمون ممالك اسيا نهضت اثينا بارشاد ديموستين زعيم الحزب الوطني فيها لاسترجاع استقلالها فنشأت عن ذلك الحرب المعروفة باللامية في تساليا وتغلب فيها المقدونيون على الاثينيين فنفي ديموستين بسبب ذلك ولشدة اسفه شرب السم ومات { ٣٢٢ } وبعد وفاته بخمس سنين قتل

فوسيون بامر المقدونيين

وفي أثناء الاضطرابات التي جرت في مقدونيا كانت المدائن اليونانية قد حاولت استرجاع حريتها فتخلصت من الربقة الاجنبية ولكنه بقي فيها من اهلها حكام مستبدون بغضاء فنهض اراتوس يبغي اسقاط اولئك الظالمين وجدد اتحاداً قديماً يعرف بالاخائي كان معقوداً بين اثنتي عشرة مدينة ثم انقذ سيسيون { ٢٥١ } وقرنثية وميغار وتريزين وارغوس ومانتينه وابيدور وميغالوبوليس وتحالف مع العصبة الايتولية ليقيم بذلك حاجزاً حصيناً دون مطامع المقدونيين ثم ساعد على انقاذ اثينا وارخومين ليتسع نطاق عمله الوطني الى اغريقيا الوسطى . ولكن ابى ذلك عليه نكد طالع اليونانية لان سبارطه كانت قد نشطت من عقالها على يد رجل يدعى كليومين اعاد تقسيم الاملاك على الشعب بالحصص المتساوية وجدد المآدب الجمهورية فكان السكان كأهل البيت الواحد يتناولون طعامهم بالاشتراك والف من الوطنيين والاجانب في المدينه شعباً سبارطياً جديداً على مثال ما كان في عهد ليكورغوس ثم اخذ يحارب به عصبة الاخائيين ليجعل له السيادة على شبه جزيرة المورة . فاضطر اراتوس ان يستمد النجدة من المقدونيين وانتصر على كليومين في سيلازي { ٢٢١ } وهذا الانتصار قتل سبارطه الجديدة غير انه جعل

الاخائيين تحت سيادة مقدونيـا التي امتدت على جميع البـلاد • فخاف الرومانيون من هذه السطوة الناشئة واستعدوا لتقليص ظلها • وحـدث ان استبداد فيليب في احكامه ومقتل اراتوس جعلا للرومانيين انصاراً كثيرين من الايتوليين فاعانوهم على الفوز في يوم سينوسيفال المتقدم ذكره • وبعد انتصار رومة في هذه الموقعة لم تختص بشيء بل حلت العصابات في تساليا واغريقيا الوسطى ومنحت الحرية والاستقلال لكل مدينة على انفرادها فظن اليونانيون انهم يتلقون بذلك منة منها وانما كانوا يسيرون الى الضعف وفقد الاستقلال وهم لا يعلمون وفي هذه الاثناء تقلد فيلوبومين الميغالوبولي رئاسـة الاتحاد الاخائي مكان آراتوس وحاول ان يبعد حلول ذلك الخطب العظيم على البلاد اليونانية وكانت سبارطه قد وقعت في ايدي حكام مستبدين واصبحت منبع دسائس ومفاسد فحاربها وتغلب على جيشها وقتل بيده حاكمها ما شانيـداس واكره خلفه نابيس على رفع الحصـار عن ميسين ودخل سبارطه عنوة واشركها في الاتحاد الاخائي وهكذا جعل المورة كلها كالمدينة الواحدة باستقلالها فتكدرت من ذلك رومه وحرشت اهل ميسين فثاروا فذهب فيلوبومين لاخضاعها وفي اثناء الحملة سقط عن جواده فاسر وحكم عليه بشرب السم (١٨٣) وبينما كانت رومة بعد ذلك تحارب برسه ملك مقدونيا

علمت ان الاخائيين كانوا قد تمنوا سراً ان يفوز الملك عليها فلما انتصرت عليه في موقعة بيدنا عاقبتهم على ما تمنوه بابعادها الفاً من صفوتهم الى ايطاليا (١٦٨)فقضوا سبع عشرة سنة فى الغربة ثم اطلق سراحهم فرجعوا الى اوطانهم وفي قلوبهم حقد شديد اثاروا به الاحقاد الكامنة على رومة

وحدث ان مجلس الشيوخ الروماني قرر في ذلك الوقت ان تفصل قرنثية وسبارطه وارغوس عن الاتحاد فنهض الاخائيون لمحاربة رومة من اجل هذا القرار والتقوا بجيوشها في ليكوبيترا بقرب قرنثية فانتصرت عليهم فى اخر معركة دافعوا بها عن حريتهم (١٤٦) واحرق موميوس القائد الروماني قرنثية وحول اغريقيا الى ولاية رومانية وآل امر ذلك الشعب الذي اتسع في الدنيا ذلك الاتساع العظيم الى الدخول في حيز الدولة الرومانية كأنه ذرة ضاعت فى بحر محيط

﴿ الباب الثامن عشر ﴾

في ملخص التاريخ اليوناني

﴿ فصل ﴾

فيما افادته بلاد اليونان للحضارة والعمران

كان اليونان اوسع الناس املاً واجدهم عملاً وقد قال احد

كبار شعرائهم منذ اربعة وعشرين قرناً ان كل الخيرات تستنزل من لدن الالهة بالسعي . وكذلك فعلوا فكانت لهم المكانة الاولى بين الامم في زمان صولتهم والآثار الخالدة على صفحات الايام فيما بعد سقوط دولتهم . ومن عظيم اعمالهم انهم شادوا المدائن العامرة الكثيرة على سواحل البحر المتوسط وحولوا بلادهم الضيقة المجدبة الى اوسع مملكة واغنى بقعة وسودوها على الدنيا المعروفة في ذلك العهد بالسيف والتجارة وعلى الخصوص بوسائل المدنية والحضارة

وكان لهم في العلوم القدح المعلى فانهم بما نهجوه في وضع قواعد البحث والتحري من المناهج القويمة الموصلة الى المزيد من معرفة الحقائق وتوسيع نطاق التعديل والتنقيح لما يثبت خروجه عن دائرة الصحة بالقياس العقلي او بالاختبار التحقيقي قد وضعوا الحياة في علوم الرياضة والهندسة والمكانيكا او علم حساب الحركة وتوازن القوى المحركة والآلات وعلم الهيئة ووصف النجوم اما المصريون والعبريون فلم يكن لهم فضل في هذه العلوم الا من حيث خلقوها ولكن كما يكون الجنين قبل ان تدب فيه الروح

واليونانيون اول من وضع علمي النبات والطب ولا مشاحة في ان اهل الازمنة المتأخرة قد فاقوا اليونانيين كثيراً في العلوم بما ولجوه من الابواب التي فتحها لهم ابقراط وارخميدس

وارسطوطاليس وهيبرق الا ان اليونانيين ما زالوا الى هذه الايام ذوي التقدم في الآداب الانشائية والصنائع الجميلة والفلسفة ولم يكن الرومانيون والامم التي استحدثت بعدهم الا تلامذة لاولئك الاساتذة العظام الذين بلغوا بشدة مراقبتهم للاحوال التي قارنوا بينها وطبقوا بعضها على بعض فبنوا عليها قواعد تعاليمهم وبسلامة اقيستهم العقلية وصحة نظراتهم الفكرية اعظم مبلغ سمت اليه الباب طلاب الحقائق وذوي المعارف والذكاء

فاما في الآداب الانشائية فقد رفع هوميروس القصة المنظومة شعراً الى اسمى مراقيها وانشأ بندار القصائد الحماسية التي يشق على النابغين تحديها وخلق اشيل وسوفوكل واوربيد المأساة وهي الرواية التمثيلية الفاجعة فبلغوها الكمال واودعوا فيها اجمل الحكم الدينية والوطنية والخلقية لتنشئة النفوس على الفضائل والصفات الشريفة ونبغ ارستوفان وميناندر في الرواية التمثيلية الهزلية وهيرودوتس وتوسيديد في كتابة التواريخ وديموستين واشين في الخطابة على منابر الشعب وايصقراط وليزياس في الخطابة على منابر المقاضاة

واما في الصنائع الجميلة فلا يزال المشتغلون بها يقصون اثرهم ويحتذون على مثالهم وانما هم ينقلون عن مرسومهم ومنقوشهم مع تعديل يحدثونه في منقولاتهم ليخلوها بطلاوة

الجديد ولكنهم لم يخرجوا قط عن القواعد الاساسية الثلاث التي وضعوها وجروا عليها هم ومن تحداهم الى هذه الايام. وان انفس ما في متاحفنا لهي بقايا آثارهم من التماثيل التي شوهتها يد الدهر فما زادتها الا قيمة والرسوم الموجودة على آنيتهم وعلى معابدهم ومدافنهم مما يأخذ عنه رسامونا لتحلية ابنيتنا . على ان المتأخرين لم يخترعوا على الحقيقة الا فنا جديداً وهو الموسيقى ولم يتوسعوا ويبتدعوا في فن قديم سوى التصوير

واما في الفلسفة فقد ادركوا الغاية القصوى وفتحوا للعقل ابواب كل المباحث وقصروا تحريهم على الحقيقة وكان الذي تشعره نفسه بالمقدرة على مجاراة الباحثين او مباراتهم في ميدان طلب الحقائق لا يثبط سعيه حاجز ولا يحول دون مشيئته حائل وذلك لانه لم يكن عند القوم طبقة كهنوت تحتبس العلم عن العامة ولا طبقة شرفاء تقصر مدى الفكر عند الفريق الآخر من الناس ولا تعاليم دينية مقوننة يمتنع الخروج عن مضامينها ومعانيها . لذلك مضت القرون الجمة وتوالت الاجيال ولم يزد المتأخرون شيئاً خليقاً بالذكر على ما اكتشفه المتقدمون

ولقد وجد في الشرق قبل ان يعلو منار اليونانيين حكماء ذوو مدارك وتعاليم سامية ولكن الشعوب التي كانوا يسوسونها ويقودونها كانت كقطعان الانعام فى الطاعة لصوت الراعي

بخلاف بلاد الاغريق فان اول ما شعر الانسان بذاتيته فيها واول ما امتلك قواه العقلية واستخدمها مخيراً وعرف قدر نفسه كان فيها ايضاً . وانما بقي للاسترقاق شأن بين قومها لان ارباب السياسة ارادوه والفلاسفة لم ينهوا عنه . وما كان بالسهل على امة وجدت في تلك الاعصار ان تتجافى كل العادات السائدة فيها وتقلع عنها

﴿ فصل ﴾

في ذكر ما كان يفوت اليونانيين من الوحدة السياسية والوحدة الدينية

قد وصفنا ما كان لليونانيين من المزايا الباهرة ولكنهم كانت لهم في جنبها معايب اكبرها عدم وجود الوحدة السياسية والوحدة الدينية عندهم . ومن العجيب انه كان عندهم نظر صادق ورأي صحيح في السياسة وعلى الخصوص ارسطوطاليس فانه بحث في هذا المعنى بحثاً يخلب الالباب غير انهم لم يحسنوا قط في الفعل الا تدبير المدائن المستقلة ولم يجمعهم الاتحاد الاخوي المعزز لبعضهم بالبعض الآخر الا في اوقات الحروب المادية الى انتهائها وفي ايام انعقاد المحالفة الاخائية . لذلك فقدوا استقلالهم يوم سطت عليهم المملكة المقدونية وقد خرجت من همجيتها وتسلحت لمحاربتهم بما اخذته عنهم من مخترعاتهم . ثم فقدوه ايضاً ولكن بلا مرد حين اغارت عليهم جنود رومة وحولتهم الى

تبعة لها

اما الدين اليوناني فقد كان مخالفاً للفضيلة بقدر ما كان موافقاً للصنائع الجميلة ونظم الشعر . وانما كانت الالهة فيه تمثيلاً للقوى الطبيعية في اشكال رجال وكان المنتحلون لدينها يصفونها بمثل ما يوصف به افسد الناس فطرة من العشق الشديد والرذائل التي تنجم عنه والسرقة والبغضاء والانتقام والخديعة وسائر ما يزين للامة الشر والباطل عوضاً عن الحق والخير

وما استمر هذا الدين ينمو على علاته حتى نهض له العقل يناصبه فقتله فسقطت الالهة عن عروشها في جبل الاولمب واعشوشبت جوانب الهياكل من امتناع الناس عن العبادة وكان يحسن ذلك لو استبدل الدين المتروك بتعليم آخر احكم منه وافيد ينير العقل ويطهر الذهن الا ان ذلك لم يوجد الا في منثورات من اقوال الشعراء والفلاسفة وكانت العامة لا تصغي اليها ولا تأخذ عنها بل لزمت جهلها وضلالها الى اليوم الذي نفذت فيه بينها عادات الترف الاسيوي على اثر فتوحات الاسكندر فاشتدت الحاجة الى الذهب وكان به فساد الرجال والنظامات حتى ان اولئك القوم الذين عظموا منتهى العظمة ببسالتهم وفضائلهم في موقعتي ماراتون والترموبيل الشهيرتين تحولوا الى جيش مأجور للسلجوقيين والبطالسة وقام منهم وزراء

للفسق والترف في مدائن اسيا وفقدوا رجولية ابائهم وشمائلهم الباهرة واصبحوا بلا وطن لانهم كانوا شعباً بلا حرية واضاعوا حرمة انفسهم وفسدت في اذهانهم صور الحق فتكاثف جهلهم ولم يخرج عمل يذكر من بين ايديهم وقال شاعرهم في ذلك الزمان ان الوطن هو المكان الذي يطيب فيه العيش للانسان ومن اجل ذلك كان لهم اله واحد وهو اللذة الشهوانية يعبدونه بما يحيط به من مواكب المذال والقبائح وكان جهدهم مقصوراً على حشد المال سواء كسبوه بالوسائل السافلة او بسفك الدماء . على انه خرج من بلاد اليونان رجال عظماء فترة بعد فترة من الزمن ولكنهم كانوا اشبه بالثمار الشهية التي تأتي بها ارض اجدبت بعد الخصب للدلالة على اصلها

القسم الثالث

في التاريخ الروماني

الباب التاسع عشر

في تشييد مدينة رومة

فصل

في وصف ما كانت عليه ايطاليا قديماً

ان ايطاليا شبه جزيرة واقعة في جنوب اوربا بين بلاد اليونان

واسبانيا . ويروى ان اول سكانها كانوا من البلاجيين ثم من الاتروسك ثم من اللاتين

{ فصل }

في المرويات عن اول نشأة رومة وعن نظاماتها في عهد ملوكها الاولين (٧٥٤ ــ ٥١٠)

بنيت مدينة رومة على نهر الطبر في المكان الذى يمر فيه هذا النهر بين تسع تلال منهـا الجانيكول والفاتيكان على ضفته اليمنى والسبع الاخرى علي ضفته اليسرى

وقد جاء في الاحاديث الخرافيـة المروية عن اول نشـأة رومة انه تولاهـا سبعة ملوك اولهم روملوس وهو الذي اسسها على هضبة البلاتين { ٧٥٤ } ودعيت باسمه ويزعم انه بن المريخ وان ذئبة ارضعته في طفولته . وثانيهم نومه .سن لقومه شرائع كثيرة وكان دينا تتنزل عليـه بالوحي الحورية ايجري . وثالثهـم تليوس هوستيليوس هـدم مدينـة البا الملقبـة بالطويلة على اثر تبارز الهوارسيين والكورياسيين فى قصة مشهورة

وهي انه لما طالت الحرب بين الرومانيـين والالبيـين وقع الاتفاق بينهم حقناً للدماء على ان ينتخب كل من الفريقين ثلاثة من اشجع ابطاله فيتبارزون فاي فريق انتصر ابطاله عد الغالب . فانتخب الالبيون اخوة ثلاثة يدعون بالكورياسيين وانتخب كذلك

الرومانيون منهم اخوة ثلاثة يدعون بالهوارسيين ثم انجلى البراز عن فوز ثالث الهوارسيين بعد ان قتل اخواه فتم على هذه الصورة فتح المدينة التي يقال انها كانت مسقط رأس الاولين من سكان رومة

ورابعهم انكوس مؤسس ثغر اوستيا وخامسهم تركين الملقب بالقديم ويظن قوم ان شعب رومة انتخبه للملك من بين تجاره المثرين ويظن آخرون ان قوم الاتروسك فتحوا رومة لذلك العهد وهم الذين اجلسوا تركين المذكور على سرير الملك وسادسهم سرفيوس تليوس صاحب الشرائع الحكيمة وسابعهم تركين الطاغي الذي طرده الرومانيون لفساد سيرته وشدة مظالمه وركوب ابنه سكستوس الفاحشة بامرأة تسمى لوكريس على الرغم منها

على ان المؤرخين لا يعرفون شيئاً حقيقياً عن ذلك العصر المعروف بعصر الملوك وجل ما توصلوا اليه في مباحثهم ان مدينة تدعى رومة كوادراتا اسست على هضبة البلاتين وان سكانها كثيراً ما فتكوا بالبلاد المجاورة لهم كاللاتيوم وسابين و بلاد الاتروسك فاضعفوها وغنموا منها وانضم اليهم جمهور من سكانها حتى اضطر سرفيوس ان يوسع لهم دائرة المدينة الى القدر الذي بقيت عليه بعد ذلك في جميع مدة الجمهورية

ومما يعرفه اهل التاريخ ايضاً عن رومة انها في عهد آخر ملوكها اصبحت عاصمة اللاتيوم وكانت اقوى دولة في ايطاليا وانه كان فيها من تهذيب الاخلاق ومن النظامات الادارية والسياسية ما يدل على انها وجدت في زمان متقادم تحسنت في اثنائه وتكاملت حتى بلغت تلك الدرجة

وكان في رومة قسمان من الناس اشبه بالشعبين المنفصلين احدهما الاعيان والآخر العامة او السوقة . وكان الاول يتألف من بيوتات لكل منها على انفراده آلهته المخصوصة به واملاكه المشتركة ورئيسه ذو السلطتين الدينية والمدنية فهو الكاهن القائم بخدمة آلهة البيت وهو صاحب الامر المطلق والقضاء الذي لا مرد له على امرأته وبنيه والتصرف التام في ارقائه والاشارة المطاعة من عملائه . وكان اهل هذه الطبقة يعرفون بالشعب الحاكم وهو الذي ينتخب الامير في مجتمعاته ويسن القوانين ويقرر الصلح والحرب . اما السوقة فكانت خليطاً من المغلوبين المجلوبين الى المدينة والاجانب المستوطنين لها ولم يكن لهم شي من حقوق الاعيان فى اتخاذ الالهة البيتية والزواج والتداخل فى الشؤون السياسية . ويقال ان سرفيوس قسم المدينة الى اربعة احياء والمملكة الى ستة وعشرين مركزاً او قبيلة زراعية وجملة الشعب من اعيان وسوقة الى ٦ طبقات بحسب درجات الثروة تنقسم كلها

الى ١٩٣ جمعية مؤلفه من مئة عضو تسمى سنتوريا وجعل
لاحدى هذه الطبقات وحدها ٩٨ جمعية من هذا القبيل ولسائرها
٩٥ جمعية وذلك بحيث يستمر الحكم فى ايدي الملاء الاعيان

﴿ فصل ﴾

في الجمهورية والقناصل وفي نواب العامة (٥١٠ ــ ٤٩٣)

اما الشرفاء وكانوا يدعون بالبطارقة فهم الذين خلعوا تركين
الظالم واستبدلوا الملك بقنصلين ينتخبونهما منهم فى كل عام
وكانت ثورتهم هذه غريبة في بابها لانها ثورة اهل شرف
ومناصب وكان بروتس احد القناصل الاولين وهو الذي حكم
على ابنيه بالقتل لدخولهما فى مؤامرة كان يراد بها ارجاع الملك
على ان تركين المخلوع حاول ان ينتقم من القوم فاثار على رومه
جميع الشعوب المجاورة لها فانتصرت جيوشهم على عساكرها
وسلبوها جميع املاكها حتى حصروها بين اسوارها الا انها عادت
فتغلبت عليهم في موقعة هائلة بقرب بحيرة ريجيل { ٤٩٦ } ونجت
بذلك منهم . غير انه كان فى داخلها مرض عضال يفترس قواها
وينخر عظمها وهو كثرة الديون التي تراكمت على الناس بسبب
ما انفقوه على الحروب المذكورة آنفا وما غنمه منهم الاعداء

وكان القانون الروماني لا يكاد يراعي الا مصلحة الدائنين
فاشتدوا على الفقراء في تقاضي اموالهم فغضب هؤلاء وابوا

من اجل ذلك الدخول في الجندية . فخاف مجلس الشيوخ عاقبة هذا الاباء وانشأ لمقاومته سلطة عالية تفوق سلطة الملوك لاحد لها ولا استئناف تمنح لرجل ينتخبه مجلس الشيوخ وتستمر بين يديه ستة اشهر فقط وكان الرجل الذي تخول له هذه السلطة يدعى بالديكتاتور . فلما رأى الشعب عودة الاستبداد المطلق رضخ تهيباً وسلم بما اريد منه ولكن الدائنين ازدادوا عتواً وشدة عليه الى حد ان الفقراء لم يسعهم الا الفرار من وجههم والالتجاء الى الجبل المقدس وهو احدى هضاب رومة ولم ينزلوا منه الا عند ما منحوا الحق بان ينوب عنهم مندوبون منهم ينتخبونهم في كل سنة ولا ينفذ امر للقناصل ومجلس الشيوخ الا بموافقتهم عليه . فاستخدم نواب الشعب سلطتهم هذه بادئ بدء للدفاع عنه ثم جعلوها سلاحاً يحاربون به الكبراء ليتوصلوا الى القبض على ازمة الجمهورية ﴿٤٩٣﴾ وافلحوا في ذلك على ما ستراه في الفصول التالية

﴿ فصل ﴾

في حكومة العشرة والالواح الاثني عشر

ومضت اثنتان واربعون سنة بعد هذه الحادثة لم تحدث في خلالها الا حروب صغيرة مع الخارج وانما كانت الاضطرابات مستمرة في الداخل فحمل ذلك النائب « تارنتيليوس ارسا » على

اقتراح وضع قانون مكتوب يطلع عليه الجميع ويلزمون حدوده.
وكثر ما عارض الاعيان في نفوذ هذا الاقتراح فعلت كلمة نائب
العامة على كلمتهم وانتخب عشرة من اهل الكفاءة لكتابة القوانين
الجديدة المطلوبة ومنحوا سلطة غير محدودة الى ان يخرجوا من
العهدة التي القيت عليهم وقد حاول احدهم ابيوس كلوديوس ان
يستبد بامره ورأيه غير ان الشعب اسقطه على اثر حادثة فظيعة
جرت له وهي انه اراد ركوب الفاحشة بفتاة جميلة فقتلها ابوها
لانقاذها منه فاشتد حنق الشعب على الظالم انتقاماً للفتاة
ووالدها وكان عقابه الاهانة والطرد من منصبه

اما القانون الذي وضع فعرف بقانون الالواح الاثني عشر
واهم ما جاء فيه المساواه بين السوقة والاعيان لدى احكامه
وتخفيض متوسط الفائدة وجعل الحكم النهائي في تقرير القوانين
وتسويغ المعاقبة بالاعدام لعامة الشعب وعليه فالعامة بما وضع
للحكومة الرومانية من الشريعة الجديدة كانت قد ربحت ما
يعرف في ايامنا بالحقوق المدنية غير انها لم تنل شيئاً من الحقوق
السياسية وما ضرها ذلك من حيث ان هذه الحقوق لا تفيد على
الحقيقة الا الذين يوليهم الشعب رئاسته وقيادة حركاته دون
الشعب بذاته

﴿ فصل ﴾

في بلوغ السوقة المناصب على اختلافها (٤٤٨ — ٢٨٦)

رأينا ان ثورة سنة ٥١٠ لم تعد بفائدة الا على الاعيان وان عامة الشعب ما فتئت بعد ذلك تطالب بحقوقها الى ان ثارت في سنة ٤٤٨ ثورة عادت كل فوائدها عليها . وعلى اثر هذه الحادثة تولى الاحكام القنصلان هوراسيوس وفاليريوس فمنعا تخويل اية سلطة غير قابلة احكامها للاستئناف في المستقبل وفرضا عقوبة القتل على من يحاول مخالفة ذلك . وقررا ان جميع الامور التي تصدر عن مجتمعات الشعب تكون قوانين نافذة وجددا اللعنة الدينية على اي رجل يمس حرية نواب الشعب او يلحق بهم اذى من اجل قيامهم بما توجبه عليهم مناصبهم .وفي سنة ٤٤٥ طلب النائب كانولايوس الغاء امتناع الزاوج بين العامة والنبلاء وطلب زملاؤه في وقت معاً قبول العامة في مناصب القنصلية . فاستشاط الاعيان غضباً من هذه الاقتراحات ولكن الشعب تسلح وصعد الى الجبل المقدس او هضبة جا نيكول فاجابه مجلس الشيوخ الى الاقتراح المتعلق بالزواج غير ان الاعيان استمروا خمساً واربعين سنة لا يزوجون السوقة منهم صيانة لامتيازاتهم عليهم واما القنصلية فلم يقبل تأهيل العامة لتوليها وانما قسمت ارضاء للشعب الى قسمين فكان احدهما ينتخب له الاعيان ويلقبون بالقناصل

كالسابق الا ان كثيراً من اختصاصات هذا المنصب كانت قد انتزعت منه وجعلت لمنصب آخر انشئ حديثاً وكان يسوغ انتخاب الاكفاء من العامة لتوليه فيدعون بالمراقبين . وكان انتخابهم اولا لخمس سنين ثم لثمانية عشر شهراً ومنحوا ما كان للقناصل من حق اجراء تعداد السكان وادارة املاك الحكومة وماليتها وتعديل طبقات الناس واعداد جريده اسماء الشيوخ واهل المرتبة الثانية من مراتب النبلاء والقيام بشؤون النظام والامن والشرطة في المدينة . ولم تبق للقناصل الا وظائفهم العسكرية والقضاء المدني ورئاسة مجلس الشيوخ ومجتمعات الشعب لانتخاب القضاة والموظفين وحراسة المدينة وتنفيذ القوانين وعين بعد ذلك في مناصب القناصل ثلاثة واربعة الى ستة من القواد وكانوا يلقبون بلقب النواب العسكريين وفي سنة ٤٠٠ توصلت العامه الى منصب النيابة العسكرية . وكانت رومة في هذه الاثناء محاصرة لمدينة فايس عاصمة الاتروسك فتوصل رجل من الصناع يدعى كاميل الى استفتاحها { ٣٩٥ } ثم اشتغلت رومة بغارة الغاليين الذين دخلوها منتصرين ولما تخلصت منهم وهدأ روع سكانها عادت المنازعات الداخليه واقترح النائبان ليسينيوس ستولون وسكستيوس مشروع قانون يقضي بان تقسم الاراضي الزراعية بين الناس ولا يسوغ لروماني ان يمتلك منها مساحة تزيد على ٥٠٠ اربان او

١٥٠٠٠٠٠ متر وقد كان هذا الاقتراح علامة النزاع الاخير بين الفريقين من اهل رومه فابى الاعيان الموافقة عليه واستمرت العامة عشر سنين تعيد انتخاب نائبيها المتقدم ذكرهما طلباً لتنفيذه

وبعد ان اعيت الحيل الاعيان وعينوا حاكمين مطلقين فلم يتوصلوا الى نقض ما ارادته العامة استحلفوها بحرمة الكهنوت للرجوع عن اصرارها فلم يؤثر فيها ذلك لانه لم يكن احد منها في الكهنوت فقرر الشيوخ تعيين خمسة من العامة فى كهنوت الكتب المقدسة السيبيلية بجانب الخمسة المختارين من جمهور الاعيان لتلك المناصب. فلم يكتف الشعب بذلك الا مدة قليلة ثم عاد الى مطالباته فلم يلبث ان عين من افراده قنصل في سنة ٣٦٦ فسلخ البطارقة من القنصلية اختصاصاتها القضائية وخلقوا لذلك منصباً جديداً يدعى البريتوار فتوصلت اليه العامة في سنة ٣٣٧ . وكان قد عين منها حاكم مطلق في سنة ٣٥٥ ومراقب في سنة ٣٥٠ ثم عين منها بروقنصل او وال في خارج رومة في سنة ٣٢٦ وكاهن نبوءات في سنة ٣٠٢ . وفي سنة ٣٣٩ صدرت قوانين بوبليوس فيلو قاضية باعتبار قرارات الشعب نافذة عليه وعلى الاعيان بالسواء آذنة بتعيين قنصلين من العامه ثم صدرت قوانين الحاكم المطلق هورتانسيوس فى سنة ٢٨٦ وقد عددت فيها كل الامتيازات

التي حصل عليها الشعب ووضعت المساواة التامة بين الفريقين المتنازعين من سكان رومة فتأسست بذلك الوحدة الاهلية التي جعلت رومة تقوى على كل قوي وتذلل كل الصعاب

الباب العشرون

في فتح ايطاليا (٣٦٥ – ٣٤٣)

فصل

في دخول الغاليين الى رومة (٣٩٠) كاميل

كانت رومه باستيلائها على مدينة فايس قد اصبحت صاحبة النفوذ الاول فى ايطاليا الوسطى غير انها لقيت فى ذلك العهد صدمة من الغاليين كادت تذهب بها . وكان الغاليون مستوطنين على ضفاف نهر البو منذ قرنين وقد طلبوا من مدينة كلوزيوم ان تمنحهم اراضي احتاجوا اليها فابتها عليهم فحاصروها ثم اغضبهم ما لقوه من مخاشنة بعض النواب الرومانيين فزحفوا على رومه فدحروا جيشها على ضفاف نهر الآليا ووصلوا الى سفح الكابيتول وكان قد لجأ اليه الشيوخ وكثيرون من الشبان الرومانيين فاستمروا فيه تحت الحصار سبعة اشهر . ثم حدث ان اغارت طائفة بربر تعرف بالفينيت على بلاد الغاليين فقنعوا بالجزية من رومه ورجعوا عنها . واذ ذاك عين كاميل حاكماً

مطلقاً فقاتل الغاليين وانتصر على بعض شراذم متفرقة من جيشهم واعتبر ذلك الرومانيون لكبريائهم نصراً مبيناً {٣٩٠}

وبقيت رومة بعد هذه الصدمة نصف قرن تضمد جراحها . وفي خلال هذه المدة انتصر قوادها كاميل ومانليوس توركاتوس وفاليريوس كورفوس على الذين شقوا عصا الطاعة عليها من اهل اللاتيوم ودحروا الغاليين الذين جاؤا للاخذ بناصر اولئك العصاة وفتح بعض مدائن الاتروسك واخضعوا بلاد الاتروسك الغربيـة وسادوا على جميع اللاتيوم حتى اوصلوا املاك رومة الى جوار سمنيوم وعند ذلك شبت حرب شهيرة دامت سبعين سنة {من ٣٤٣ الى ٢٦٥} وكانت نتيجتها وقوع شبه الجزيرة اللاتينية كلها تحت ربقة رومة . ودعيت هـذه الحرب بحرب سمنيوم او حرب الاستقلال اللاتيني التي اشتركت فيها كل شعوب ايطاليا وغلطت فيها كلها غلطة واحـدة من حيث كان كل منها يقاتل الرومانيين على حدته

﴿ فصل ﴾

في حرب سمنيوم

تنقسم حرب سمنيوم الى ستة اقسام اذا عدت بينها حملة بيروس

الاول من ٣٤٣ الى ٣٤١ . وفيه استجارت مدينـة كابو

عاصمة كامبانيا برومة لرد غارة للسمنيين عنها ودخلت في ولايتها فاجارتها رومة وكسرت اعداءها غير انها لم تستمر على مقاتلتهم لما رأته من نهوض اللاتينيين كافة لمعاداتها ومناصبتها

القسم الثاني من ٣٤٠ الى ٣٣٨ . وفيه ثار اللاتينيون على رومة لانهم طلبوا ان يشتركوا في القيادة مع القناصل وان يعاملوا معاملة الرومانيين فابى ذلك عليهم مجلس الشيوخ فشبت الحرب وفاز فيها الرومانيون فوزاً اخضع لهم المدائن اللاتينية

القسم الثالث من ٣٢٦ الى ٣١١ . وفيه نهض السمنيون بعد مسالمة دامت عشر سنين لطرد الرومانيين من عمالة كامبانيا {٣٢٧} واستعانوا عليهم بمدينة باليبوليس اليونانية فتغلب عليهم بابيريوس كرزور وفابيوس ماكسيموس غير انهم عادوا فانتصروا عليهما بقرب محلة تدعى الفرش كودين واحاطوا بجيشهما احاطة اضطرتهما الى القبول بالاسترقاق مع جنودهما والتوقيع على معاهدة صلح . فابى مجلس الشيوخ التصديق على هذه المعاهدة ورد القنصلين اللذين وقعا عليها الى السمنيين فلم يقبلوهما فاستأنفا كرة القتال ودخل احدهما بليوس فيليو الى نفس بلاد السمنيوم منتصراً غانماً وسار بابيريوس على ابوليا مما وراء جبال السمنيوم من الجهة الاخرى وظنت رومة انها حصرت اعداءها الاشداء في جبال الابنين فاقامت حوله سلسلة من

المعاقل التي كانت تعرف بالمستعمرات العسكرية

الرابع من ٣١١ الى ٣٠٥ . وفيه حاول الشعوب القاطنون شمالي ايطاليا ان ينجدوا سكان الوسط منها فانقض نحو ستين الفاً من الاتروسك بايعاز جماعة من المندوبين السمنيين على مستعمرة سوتريوم الرومانية ولكن فابيوس ظهر عليهم بقرب بيروزا ودخل السمنيوم واطئاً منها كل موطىء ناهباً سالباً مستبيحاً الاموال والارواح حتى ان شعوبها اخذت تستعطفه وتلتمس منه نهاية هذه الحرب التي طال امدها عليهم جميعاً فاجابهم الى ذلك بعد ان اعترفوا بعظمة رومة وسيادتها عليهم وحفظوا من استقلالهم علاماته الظاهرية {٣٠٥}

الخامس من ٣٠٠ الى ٢٨٠ . وفيه تحالفت الشعوب اللاتينية تحالفها الثاني والثالث بايعاز واغراء من السمنيين وكان المتحالفون السينونيين ولاتروسك والاومبريان والغاليين . وعند افتتاح القتال ظفر السينونيون وهم طائفة من الغاليين بجيش روماني قريباً من كرينوم فاعملوا السيف فيه وذبحوه عن آخره ففتح لهم ممر الابنين ولو استطاعوا ضم جنودهم الى الاومبريان والاتروسك لقضي الامر على العساكر الرومانية غير ان فابيوس تظاهر بالهجوم على بلاد الاتروسك فلما رجعوا للدفاع عنها هرع الى ملاقاة الغاليين في سهول سنتيوم فدحرهم

دحراً {٢٩٥} بعد ان فقد سبعة آلاف جندي من الجناح الايسر الذي كان يقوده داسيوس . ورأى الغاليون ان العدو احدق بهم من كل جانب فتقهقروا عائدين الى بلادهم

اما السمنيون فلما وجدوا ان جيشهم انكسر في اكيلونيا {٢٩٣} وان قائدهم بنتيوس هيرينيوس غلب ايضاً اقروا بفشلهم ووقعوا على معاهدة صلح {٢٩٠} جعلتهم من حلفاء رومة فوضعت في فينوزا مستعمرة عسكرية قوية لتحفظهم تحت سلطتها . وهكذا اصبحت كل ايطاليا الوسطى على الرغم منها خاضعة لرومة او حليفة لها اما ايطاليا الشمالية فاستمرت على العداء وكان فيها الاتروسك يتجهزون للقتال والغاليون يقتدون بهم وقد تناسوا ما حل بهم في سنتينوم وكانت في الجنوب زمر من السمنيين لا تزال ترود في جبال كالابرا وتنتظر فرصة الانقضاض على فاتحي بلادها وكان اللوقانيون في قلق واستعداد واليونانيون في خوف من اتساع املاك رومة ومجاورتها لاوطانهم واهل تارنته يبدون نواجذهم حنقاً وغيرة . الا ان اتحاد كل تلك الشعوب كان من المستحيل لحسن طالع رومة فما خشيت بأسهم متفرقين . ولكنه حدث في الشمال ان الاتروسك ادركوا جيشاً رومانياً فنكلوا به فاشتد الخطر على رومة من جراء ذلك فبعث مجلس شيوخها من فوره جيشاً جراراً فقتل من شعب

السينونيين مقتلة هائلة حتى أتى عليهم عن آخرهم فقامت طائفة اخرى من الغاليين تعرف بالبوائية وانضمت الى جيش من الاتروسك لتنتقم لاخوتها الذين قتلوا فسحقهم الرومانيون جميعاً بقرب بحيرة فاديمون {٢٨٣} واقر اهل شمال ايطاليا بسيادة رومة عليهم اقرار شعوب الوسط من قبلهم

السادس من ٢٨٠ الى ٢٧٢ ويعرف بحرب بيروس . وكانت مدينة تارنتا قد بقيت وحدها حاملة السلاح لمقاتلة الرومانيين فاستعانت ببيروس ملك ابيرا فجاءها واقفل حماماتها وملاعبها وملاهيها وجعل كل قادر من اهلها جندياً . وهال الرومانيين في اول مواقعهم معه وجود الفيلة في جيشه فاضطرب نظامهم وقتل منهم خمسة عشر الفاً ولكنهم قتلوا من جنوده ثلاثة عشر الفا فقال الملك لوانتصرت مرة اخرى مثل هذا الانتصار لرجعت الى ابيرا بلا جندي واحد . ولذلك ارسل وزيره سينياس الى رومة لعقد صلح فاجابه ابيوس في مجلس الشيوخ ليخرج بيروس اولا من ايطاليا ثم ننظر فيما يطلبه . وامر سينياس بالخروج من رومة في اليوم نفسه فخرج وقال عند رجوعه « انه خيل لي ان مجلس الشيوخ هذا ليس الا مجلس ملوك » فنوى بيروس ان يباغت رومة مباغتة ولكن كل ساكن فيها كان عسكريا فلم يستطع الا مشاهدة اسوارها من بعيد لان

جيشاً رومانياً لقيه بقيادة رجل يدعى داسيوس فقاتله في معركه ثانية ودحره واراه ان كل عنائه في سبيل فتح رومة ذاهب عبثا

وكان القرطاجنيون قد حاصروا سيرقوصه في صقليا فاستنجد اهلها ببيروس فذهب وفك حصار المدينة وطارد الافريقيين من مركز الى آخر حتى اوصلهم الى ليلبيه ثم تعب من هذه المعارك كما تعب من التي سبقتها فرجع الى ايطاليا فظفر به الرومانيون بقرب مدينة بينيفانت الحصينة وطردوه فحاول فتح مقدونيا ولقب ملكا عليها ثم ادركته منيته على اسوإ حال في حصار ارغوس وفتحت تارنتا ابوابها للرومانيين {٢٧٢} لانها فقدت النصير الوحيد لها بفقده وعلى هذه الصورة تم خضوع جنوب ايطاليا لرومة كما خضع لها قبل ذلك شمالها ووسطها

وكان لابد لرومة لاستتمام فتح ايطاليا من كبح جماح الغاليين في سيزالبينا [١] فقاتلتهم مرتين احداهما قبل الحرب القرطاجنية وثانيتهما بعدها وفي سنة ٢٢٦ علم مجلس الشيوخ انهم استنجدوا باخوانهم الغاليين القاطنين فيما وراء جبال الالب في البقعة التي كان يسميها الرومانيون ترنسالبين فاعدلهم ٧٧٠٠٠٠ مقاتل منهم ٥٠٠٠٠٠ ايطالي وتغلب عليهم مرسلوس في موقعة تلمون سنة

(١) كان الرومانيون يسمون القسم الشرقي من ايطاليا بهذا الاسم وكان موقعه بالنسبة اليهم فيما يلي جبال الالب الى جهتهم

٢٢٥ وقتل بيده ملكهم جيزات ثم ارسلت مستعمرات رومانية الى شواطئ نهر البو واخذت تستعبد السيزالبيين فاستغاثوا بانيبال القائد القرطاجني الشهير ببسالته ومواقعه التي جرت له مع القائد الروماني سيبيون الملقب بالافريقي على ما سيجي ذكر ذلك فلبى دعوتهم وجاء يحارب جيوش رومة ذبا عن بلادهم فاستظهر عليها مراراً فاطمأنت لذلك قلوب السيزالبيين وسكن روعهم وفاتهم ان ينهضوا مع منقذهم نهضة واحدة لا يستثنى فيها احد من رجالهم ليعينوه على سحق جنود رومة ودكها فكان ما لقوه من عاقبة هذا التقاعد ان مجلس الشيوخ عاد بعد انتصار سيبيون على انيبال في موقعة زاما فامر بالتنكيل بهم الى ان هجروا أوطانهم قاصدين شواطئ الدانوب وتركوا بين ايدي الرومانيين تلك البلاد الخصيبة وحاجز الالب الحصين الذي كانوا يحتلونه

الباب الواحد والعشرون

في حروب قرطاجنة (٢٦٤ ــ ١٤٦)

فصل

في الحرب القرطاجنية الاولى (٢٦٤ ــ ٢٤١) وذكر فتح صقليا

كانت قرطاجنة وهي المستعمرة الصورية الشهيرة قد بسطت ظل سيادتها على الامصار من نوميديا الى تخوم سيرينا

وانشأت في داخلية القارة الافريقية متجراً عظيماً على يد القوافل واستولت على الملاحة في البحر المتوسط الغربي .وكانت تفرح لفوز رومة وتعقد المعاهدات معها لسرورها بان رومة تحارب عنها اعداءها الاتروسك واليونانيين والايطاليين الذين كانوا مناظريها في البحر والتجارة ولكنها لما رأت ان رومة ابتلعت جميع ايطاليا وادركت الابحر الثلاثة الاكتيراني والادرياتيكي والايوني اوجست خيفة منها وتربصت بها الشر حتى اذا حدثت حادثة صقليا وقعت بسببها الحرب بين الجمهوريتين العظيمتين

ومعلوم ان صقليا جزيرة خصيبة تتصل بايطاليا من جهة ويمتد النظر منها الى افريقيا من الجهة الاخرى ولذلك كانت لا تستطيع احدى الجمهوريتين الاغضاء عنها . وكانت قرطاجنة محتلتها من زمان قديم غير انها عندما مالأت هيارون ملك سيرقوصه على محاصرة مدينة مسينا التي كان سريرها لآل مامرتينس استنصر هؤلاء برومة فبادرت لانجادهم وانقذت لهم المدينة من اعدائهم { ٢٦٤ } ودحرت جيش هيارون واكرهت هذ الملك على عقد الصلح معها فبقي مسالماً لها مدة خمسين سنة ثم اخرجت القرطاجيين من داخل الجزيرة غير انهم حفظوا المواني لتسلم لهم ارجحيتهم في البحر فانشأت رومة اسطولا مسلحاً بآلات حديدية ضخمة كانت تتصيد بها مراكب الاعداء وتهدمها وارسلته لمحاربة

العمارة القرطاجنية فكسرها في الموقعة الاولى ثم التقاها في موقعة ثانية باكنوم وكان قائده ريغولوس فظهر عليها ايضاً وهذا الانتصار الاخير حدا بريغولوس على النزول الى برافريقيا {٢٥٦} فوصل الى اسوار قرطاجنة في اشهر قليلة ٠ فاخذ كستتيب السبارطي قائد جيش قرطاجنة يناوش الرومانيين مناوشات صغيرة الى ان اضعفهم فاوقع بهم في معركة كبيرة وسحقهم سحقاً واسر ريغولوس فاعيد مدار الحرب الى صقليا ودامت فيها بضع سنين مساجلة عواناً الى ان انتصر متلوس في بانورما (٢٥١) فانعش امال الرومانيين فارسلت قرطاجنة ريغولوس لطلب المصالحة فحرض مجلس الشيوخ على رفضه ويقال انه عند ما رجع اميت في افظع العذاب ٠ وفي هذه الاثناء وصل الى صقليا هاملكار والد انيبال فاتخذ له حصناً حصينا في اريكس وتغلب على الرومانيين مدة ست سنين ٠ وكان يحتمل ان تستمر الحرب على هذه الصورة الى مالا نهاية له لولا ان فطن مجلس الشيوخ لانشاء عمارة جديدة فجعلت الرومانيين سادة البحر فخاف همليكار الحصار والمجاعة وطلبت قرطاجنة انهاء هذه الحرب المدمرة راضية بالتخلي عن صقليا وبالافراج عن الاسرى بلا فدية وبتأدية ٣ آلاف ومئتي وزنة ذهب (٢٦٤—٢٤١)

﴿ فصل ﴾

في حرب العساكر المأجورة لقرطاجنة (٢٤١ ــ ٢٣٨)

كانت قرطاجنة تحارب بعساكر مأجورين فثاروا عليها واستمروا كذلك ثلاث سنين { ٢٤١ — ٢٣٨ } الى ان انقذ هاملكار وطنه منهم . ثم وقعت شبهة عليه فنفي جزاء احسانه وكان ابعاده الى اسبانيا ففتحها في عدة سنوات الى نهر الابر هو وصهره اسدروبال فتخوفت رومة منهما وعقدت معهما في سنة ٢٢٧ معاهدة صلح مشروطا فيها استقلال ساغنتا وهي مدينة يونانية لاتينية واقعة غربي نهر الابر

﴿ فصل ﴾

في الحرب القرطاجنية الثانية . وذكر انيبال وسيبيون (٢١٨ — ٢٠١)

على ان انيبال بن هاملكار لم يلبث ان فتك بالمدينة المتقدم ذكرها دون ان ينتظر ورود الاذن له بذلك من قرطاجنة وتقدم في جيشه الجرار فاجتاز جبال البيريناي ونهر الرون وجبال الالب وكان هذا المسير الشاق من اعجب ما سمع به غير ان انيبال فقد في خلاله نحو النصف من عدد جنوده ريثما وصل الى ما بين حلفائه السيزالبيين { ٢١٨ } وعند ذلك التقت خيالته بخيالة القنصل سيبيون بقرب نهر التسين فظهرت عليهم ثم وقعت بين جيشه وبين الرومانيين موقعة اعظم من الاولى على ضفاف نهر الترابي فتم بها الفوز لانيبال واخرج اعداءه من سيزالبينا . وفي السنة التالية تغلب عليهم ايضا في

موقعة عظيمة بقرب بحيرة ترازيمان في بلاد الاتروسك وتقدم الى وسط ايطاليا وغربيها فاقام اشهراً لا يتعرض فيها الرومانيون لمقاتلته ولكنه في سنة ٢١٦ انتصر عليهم انتصاراً مبينا في كان وقتل منهم ٥٠ الف رجل فتحركت مدينة كابو وقسم كبير من ايطاليا الغربية للثورة والخروج عن طاعة الرومانيين غير ان رومة اظهرت ثباتا عجيبا في هذه الازمة فامتنعت عن المهاجمة واخذت تقيم المعاقل والحصون لحصر انيبال فيما بينها فخرج من كمبانيا قبل ان تقفل عليه هذه الحلقة المخيفة وبما ان قرطاجنة ابت ارسال النجدات اليه استعان بسردينيا وصقليا وفيليب المقدوني الذي ذكرنا حديثه مع انيبال واستدعى من اسبانيا اخاه اسدروبال في جيش جديد من الاسبانيين والغاليين واوصاه ان يأتيه من الطريق الشاقة التي كان هو اول من اختطها. الا ان الرومانيين سكنوا سردينيا واخمد قائدهم مرسلوس ثورة سيرقوصة ولم تنقذها منه الآلات التي اخترعها ارخميدس ودحروا جيش فيليب المقدوني على ضفاف نهر الآوس واضطروه الى الرجوع لما اثاروه عليه من الشعوب اليونانية قبل ان يتمكن من ايصال جيشه الى انيبال

وفي هذه الاثناء كانت رومه قد سلحت عشرين فرقة وحصرت انيبال في ابوليا ولوكانيا وشددت في مضايقة كابو لتجعلها

عبرة للبلاد التي تغدر بها فحاول انيبال انقاذ هذه المدينة بدنوه
من رومة ولكنه عاد عنها فشلا ووقعت كابو في ايدي الرومانيين
فباعوا جميع سكانها بعد ان استباحوهم ونكلوا بهم . وبذلك لم
يبق لانيبال الا الامل الوحيد بوصول نجدة اخيه اليه غير ان
قنصلين رومانيين كانا قد حالا دون تقدم اخيه على ضفاف الميتور
وقتلاه ومزقا جيشه (٢٠٧) . ومع ذلك فقد بقي انيبال
مقاوما لاعدائه مدة خمس سنين في اقصى بروتيوم الى ان حاصر
سيبيون قرطاجنة فاضطره بذلك الى الخروج من ايطاليا . وكانت
رومة قد انفذت منذ سنة ٢١٨ قائدين من ابطالها يدعيان كنايوس
سيبيون وكرنيليوس سيبيون يحاربان في اسبانيا فلم تلبث كثرة
العدد ان قويت عليهما بعد انتصاراتهما فقتلا مع خلق كثير من
جيشهما فتولى شاب يدعى مارسيوس قيادة بقية الجيش ولمّ
شعثه وحماه من المجزرة فانتعش بعمله امل الجمهورية الرومانية
وعزمت على مداومة الحرب في تلك البلاد وولت سيبيون
الشهير قيادة جيشها الاسباني عامة وكان سيبيون المذكور في
ذلك العهد لا يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره وهو بن
كرنيليوس سيبيون القائد الذي ذكرنا آنفا ما جرى له من الوقائع
في اسبانيا . فلما استلم زمام القيادة افتتح اعماله بمباغتة قرية
قرطاجنة التي كانت مدخر عدد القرطاجنيين في اسبانيا فاستولى عليها

{٢١٠} ثم انتصر على اسدروبال بمساعدة الاسبانيين وكان قد حببهم بنفسه لحسن معاملته لهم ثم اقصى سائر قوات العدو الى قادس وانتقل الى افريقيا فاقنع سيفاكس ملك النوميديين بعقد محالفة وداد مع رومة {٢٠٥} فجوزي على اعماله هذه بتقليده القنصلية وعند ذلك عزم على الفتك بقرطاجنة نفسها فعارضه فابيوس ولكنه اصر على مراده وكان معولاً في انقاذه على اتفاق كان قد عقده مع ملكين نوميديين في افريقيا فلما عاد اليها وجد احدهما وهو سيفاكس قد خان عهده وانقلب الى معاداته والآخر واسمه ماسينيسا قد نزعت منه سلطته وخلع عن سريره فهو لا يجديه فتيلا فلم يثبط هذا الحادث سعيه واستمر على عزمه فدحر الجيوش التي اعترضت مسيره وتقدم لمحاصرة قرطاجنة فعندها استدعت انيبال على ما سبقت الاشارة اليه فقابل سيبيون في موقعة شهيرة بموقعة زاما ففقد عشرين الفاً من عساكره ودخل قرطاجنة مغلوبا {٢٠٢}

اما سيبيون فلم يطلب تسليم انيبال ولكنه اقترح الشروط الآتية وهى ان تحفظ قرطاجنة قوانينها وشرائعها واملاكها في افريقيا وان تسلم له الاسرى والخائنين وجميع سفنها عدا عشرا منها تستبقيها ثم جميع فيلتها دون ان يجوز لها ان تضري غيرها في المستقبل . وان تمتنع عن كل حرب في افريقيا بلا اذن من رومة وان

لاتجند اجانب مأجورين وان تدفع لرومة جزية قدرها عشرة آلاف وزنة ذهبا في خمسين سنة وان تعطي ماسينيسا عوض ما سلبته من ملكه وتقبله حليفا لها . فرضي القرطاجنيون صاغرين بكل ما اقترحه سبيون ودفعوا اليه اربعة آلاف اسير وجمهوراً من الخونة اماتهم عن آخرهم وخمس مئة مركب احرقها في البحر . واصبحت قرطاجنة ضعيفة عزلاء بلا سلاح ولا جيش ووضع لها سيبيون بجوارها عدواً لايخشى ان يعاهدها على الصلح وهو ماسينيسا فانه اقامه ملكا على نوميديا {٢٠١} ثم عاد هذا الفاتح العظيم الى رومة فقوبل باحتفال وتكريم يفوقان الوصف ومنح منصب القنصلية ثانية والحكم المطلق مدة حياته ولقب بالافريقي مبالغة في التعظيم

فصل

في الحرب القرطاجنية الثالثة وفي خراب قرطاجنة (١٤٦)

على ان حياة قرطاجنة اصبحت بعد موقعة زاما التي ذكرناها آنفاً اشبه بنزع طويل لم تكن لتقوم لها معه قائمة . وفي سنة ١٩٣ فتح ماسينيسا ارضا خصيبة من املاك قرطاجنة تدعى بقعة امبوريا وبعد ذلك باحدى عشرة سنة انتزع منها املاكا اخرى واسعة وفي سنة ١٧٤ استولى على جميع مقاطعة تيسكا وسبعين مدينة . فشكا القارطاجنيون الى رومة امر اعتدائه على املاكهم

فوعدتهم بالانصاف منه وعداً لم تنجزه ولكنها للتظاهر برغبتها في كشف تلك الظلامة ارسلت الفيلسوف الشهير كاتون بدعوى البحث والتحقيق فوجد قرطاجنة كثيرة السكان واسعة الثروة نامية نمواً عجيباً فعاد الى رومة موغر الصدر عليها وكان يختم كل خطاب يلقيه في النوادي بهذه العبارة « اني اعتقد وجوب هدم قرطاجنة »

وحدث ان قرطاجنة صدت غارة من غارات ماسينيسا على املاكها فانتحل مجلس الشيوخ هذا الدفاع العادل عذراً له في استئناف الحرب وارسل الى قرطاجنة قنصلي رومة مع ثمانين الف مقاتل ﴿١٤٩﴾ بدعوى انها خرقت المعاهدة وتجاوزت حدها فلما وصل القنصلان طلبا من قرطاجنة ان تسلم لهما جميع ادوات الحرب والاسلحة فاجابتهما الى ذلك فامرا اهل المدينة ان يخرجوا منها ويسكنوا على مسافة ١٠ أميال فغاظهم هذا الخداع وجمع اسدروبال سبعين الف مقاتل في معسكره بنفاريس واقفلت المدينة ابوابها وتحصنت في داخلها واخذ سكانها من شيوخ وشبان ونساء واطفال يصنعون الاسلحة ليل نهار . اما القنصلان الرومانيان فكانا متغافلين عما يجري في الداخل متباطئين في الاستعداد للمهاجمة

وفي هذه الاثناء كان سيبيون اميليان الذي لقب بالافريقي

الثاني قد طلب من الشعب اقامته عضواً في مجلس مدينة رومة فعينه الشعب قنصلا فذهب الى افريقيا وتولى القيادة ورد النظام الى الجيش وقطع البوغاز المتصل بقرطاجنة الذي يحتمل خروج المحاصرين منه واقفل الميناء بسورمتين جدا ليجيع السكان وكانوا يبلغون ٧٠٠ الف نفس . اما القرطاجنيون فثقبوا في الصخور مخرجا لمراكبهم التي ابتنوها باخشاب سقوف بيوتهم وكادت تلك المراكب تباغت العمارة الرومانية لولا ان سيبيون تنبه لها فارسل عليها اسطوله فحطمها . ولما اشتدت المجاعة واضعفت حالة الدفاع استفتح جانباً من الاسوار ودخل منه الى المدينة غير ان اهلها استمروا محاصرين في منازلهم التي كانت متقاربة حتى لم يستطع جيشه ان يجتاز ما بينها ليصل الى حصن برسا الا في ستة مع ان موقع ذلك الحصن كان فى وسط المدينة ولما وصلت اليه الجنود الرومانية وعدوا باخلاء سبيل الذين يسلمون من المحاصرين فيه فسلم خمسون الف رجل وفي مقدمتهم اسدروبال فخنقت امرأته عليه لجبنه فذبحت ولديها والقت بنفسها على اثرهما في النار . وتم بذلك وقوع قرطاجنه فى ايدي الرومانيين فاستباحوها سلبا ونهبا واحراقا ثم اتى رسل من قبل جمهورية رومة واعلنوا تحول ارض قرطاجنة وتوابعها الى ولاية رومانية { ١٤٦ }

الباب الثاني العشرون

في فتوحات الرومانيين خارج ايطاليا (٢٢٩ ــ ١٢٩)

﴿ فصل ﴾

في فتح قسم من ايليريا (٢٢٩) وفتح ايستريا (١٢١)

كان البحر الادرياتيكي في أثناء الفترة بين الحرب القرطاجنية الاولى والثانية تحت سلطة القرصان الايليريين . وحدث ان ملكتهم ذبحت أثنين من مندوبى رومة لانهما خاطباها بجرأة فارسل مجلس الشيوخ القنصلين وعشرين الف مقاتل لمحاربتها (٢٢٩) فدحرا جيشها واضطراها الى تأدية الجزية صاغرة والتنازل عن قسم كبير من ايليريا . وفى سنة ٢٢١ احتل الرومانيون ايستريا فامتلكوا باحتلالها باباً من ابواب ايطاليا ومدوا سلطتهم الى شمال مقدونيا التي كانوا يتهددونها من جهة ايليريا ايضاً

﴿ فصل ﴾

في فتح اسيا الصغرى ومقدونيا واغريقيا (١٩٠ ــ ١٤٦)

تقدم لنا ذكر محاربة الرومانيين لانطيوخوس وفيليب وبرسه والاخائيين ونذكر الآن القواد الذين اداروا رحى تلك الحروب . فمنهم سيبيون الاسيوي المنتصر على انطيوخوس فى مغنيسيا سنة ١٩٠ وهو شقيق سيبيون الافريقى وكان هذا مرافقا له في تلك الحرب بوظيفة ملازم . ولما رجعا الى رومة اتهما بانهما ارتشيا

فصالحا ملك سوريا فابى الصغير ان يجيب على هذه التهمة انفة منه وبرح رومة اما الكبير فاثبت فقره براءته عند ما كلف بتأدية الغرامة التي فرضت عليه

ومنهم كينثوس فلامينوس المنتصر على فيليب في سينوسيفال (١٩٧) ومبتكر الخطة التي جرت عليها رومة في سياستها لاغريقيا. وقد اقام في تلك البلاد زمانا طويلا بعد تركه للقيادة وانشأ في مدائنها احزابا للرومانيين وطردمنها اعداء مجلس الشيوخ وهو الذي حال دون نفوذ مقاصد فيلوبيمن رئيس العصابة الاخائية وسبب ثورة مسانا التي قتل فيها ذلك الوطني العظيم وهو ايضاً الذي ذهب الى بوزياس ملك بيثنيا وسأله دفع رأس انيبال اليه فشرب انيبال السم تفاديا من الوقوع في ايدي الرومانيين {١٨٣}

ومنهم بول اميل المنتصر على برسه فى بيدنا سنة ١٦٨ والذي اشتهر في حرب لوزيتانيا وليغوريا وعاد الى وطنه بسلوبات مقدونيا فكانت حينما زف في رومة اكراما لانتصاراته افخر الغنائم التي اتى بها قائد روماني قبله . وكان عند عودته قد مات له ولدان شابان فقال « ان سرور رومة يعزيني على مصائبي الهائلة » ومنهم بوميوس هادم قرنثية ومزيل العصابة الاخائية {١٤٦} وهو شهير بشدته ولم يدخر لنفسه شيئاً عن غنائم قرنثية واشترط على الذين تعهدوا بنقل التماثيل والرسوم القرنثيه الى رومة انهم اذا اتلفوها

او فقدوها في الطريق اجبروا على عمل مثلها

﴿ فصل ﴾

في فتح اسبانيا وذكر فيرياتوس والكلام على حروب نومنطة (١٩٧ — ١٣٣)

رأينا الاسبانيين يأخذون بناصر الرومانيين في محاربة قرطاجنة لشدة ما كانوا يكرهونها ولكنهم عند ما رأوا ان رومة ارسلت اليهم حكاما من لدنها لادارة شؤونهم ثاروا { ١٩٧ } بايعاز مندوبين أرسلتهم اليهم قرطاجنة حينما أحست بدنو الحرب الثالثة مع رومة وقتل فريق منهم وهم اللوزيتانيون ٩٠٠٠ مقاتل للقائد غلبا الرومانى {١٥٣} فتظاهر هذا بالرغبة فى مسالمتهم وعرض عليهم أراضى خصيبة يقطنونها فلما وقعوا فى أحبولته قتل منهم ٣٠ ألفاً ۰ وكان بين الذين نجوا من المجزرة راع يدعى فيرياتوس جمع اليه فريقا من المتشردين واخذ يحارب الرومانيين مباغتة ومناوشة ويقتل ابسل جنودهم {١٤٩}

واستمر على ذلك خمس سنين حتى توصل الى اثارة السلتيباريين فأصبحت بهم الحرب اكبر شأنا واثقل وطأة وقد توصل بدهائه الى حصر القائد فابيوس ذات يوم في مضيق وجعله يوقع له على معاهدة جاء فيها « انه يكون صلح بين الشعب الرومانى وفيرياتوس » {١٤١} وان أخا فابيوس المدعو

سابيون أخذ على نفسه أن ينتقم من هذه الخديعة بمثلها فرشا اثنين من ضباط فيرياتوس فقتلاه ﴿ ١٤٠ ﴾ وخضع شعبه لرومة ونقل سابيون قسماً كبيراً منهم الى سواحل البحر المتوسط فأسسوا مدينة فالانس . وعندها انحصرت حرب اسبانيا في الشمال الى جهة نومنطه أو نومانس . وكان بومبايے في سنة ١٤١ قد عقد مع النومنطيين معاهدة صلح لم يجسر أن يعترف بها لدي مجلس الشيوخ وفي سنة ١٣٨ تقدم القائد الذي خلف بومبايے بجنوده الى مدينة نومنطه فلم يفتح عليه ورد على اعقابه

وفي السنة التالية احاط النومنطيون بالقنصل مانسيوس وجيوشه فوعدهم بالصلح ان فتحوا له ممرا فأبوه عليه الا ان يحلف لهم مدير ماليته تيباريوس غراكوس بذلك ﴿ ١٣٧ ﴾ ففعل ولكن مجلس الشيوخ أبى التصديق على تلك المعاهدة ودفع اليهم القنصل واستخلفه بقواد آخرين لم يفلحوا اكثر منه فارسل سيبيون الافريقى هادم قرطاجنة ﴿ ١٣٤ ﴾ فأعاد النظام الى الجيش ونفى منه عادات الراحة والترف ودفع النومنطيين شيأ شيأ حتى حصرهم فى مدينتهم فأقفلها عليهم بالمعاقل والمعسكرات فلم يلبثوا ان جاعوا وطلبوا القتال فأباه عليهم حتى اخذ بعضهم يذبح البعض فى داخل المدينة ﴿ ١٣٣ ﴾ ولم يبق منهم الاخمسون نومنطياً عاد بهم سيبيون الى رومة . وكانت اسبانيا قد تعبت نهاية التعب

من هذه الحروب فاستراحت واخذت تضمد جراحها ٠ الا سكان الجبال الشرقية منها وهم الاستوربون والكانتابريون والفاسكيون فانهم استمروا متمردين ولم يدخلوا فى الطاعة الالعهد اغسطس

وفى سنة ١٢٤ استولى قائد يدعى متلوس على جزائر باليار الاسبانيه بعد ان ذبح معظم سكانها وفى سنة ١٣٣ تنازل ملك برغام عن مملكته لرومه ولكنها لم تمتلكها الا بعد حروب كثيرة وقعت لها مع رجل يدعى اريستو نيك قام بدعوى ان له حقاً بالملك

وانما بلغ الرومانيون هذا المبلغ العظيم فى الدنيا فى ذلك الوقت القصير لثلاث مزايا جليلة وجدت عندهم وهي حكمة مجلس شيوخهم وطاعه الامه للقوانين التى كانت تسنها لنفسها وحسن نظام الجيوش وقيادتهم

الباب الثالث والعشرون

في الحروب الاهلية الاولى وذكر الغراكيين وماريوس وسيلا

(١٣٣ ـ ٧٩)

فصل

في تاثير الفتوحات على الاخلاق والنظامات في رومة

ان افتتاح كل تلك الولايات الخصيبه كان ذا تاثير شديد على اخلاق اهل رومة وبالتالي على نظاماتهم فقد كثرت الثروة

بين فريق قليل منهم تناهى بالاسراف حتى كان كبار الموظفين
يضطرون الى الاختلاس من اموال الخزينة ليستعيضوا عما ينفقونه
في الملاهي وحتى ان بعض المراقبين وهم حراس الاخلاق عزلوا
من مجلس الشيوخ اعضاء من البطارقه الشرفاء بسبب هذه الجناية
وكان الغنى ينحصر في نحو ثلاثمئة اسرة واما سائر الشعب فكان
فقيراً يوجد بينه نحو ٣٠٠ الف متسول مدقع . وكانت الطبقة الوسطى
قد بادت لبوار التجارة والزراعة وكثرة المغازي والحروب
فلاصلاح هذه الحالة بذل الغراكيون[١] ما في وسعهم لحمل الكبراء
على التزام القوانين التي اصبحوا ينتهكونها بلا حرمة واعادة الشعب
الى اخلاقه الوطنية التي جعلته يلقب بسيد الشعوب

﴿ فصل ﴾

في محاولة الاصلاح (١٣٣ ــ ١٢١)

في سنة ١٣٣ انتخب تيباريوس غراكوس نائباً فاراد ان
يبتدئ باصلاح الشعب ويرد اليه فضائله القديمة ورأى ان ذلك
لا يتسنى الا بتعويده على العمل وكانت للجهورية اراض واسعة
اغتصبها الاعيان فاحب تيباريوس تقسيمها على الشعب اجزاء
صغيرة لاتباع وسن من اجل ذلك قانون ملكية فعارضه الاعيان
اشد المعارضة واشركوا في ذلك معهم احد النواب واسمه

---

١ نسبة الى الذين سيأتي ذكرهم من آل غراكوس

اوكتافيوس فعزله تيباريوس بدون اكتراث منه للقانون فكان من ذلك ان عاقبه الكبراء بعقاب من جنس عمله وبعثوا اليه باناس من ارقائهم قتلوه على سلم الكابيتول { ١٣٣ } ثم قتلوا ونفوا جميع محازبيه وانصاره فندم الشعب على عدم نهوضه للاخذ بثار غراكوس وكادت الحرب الاهلية تنتشب فحال دونها سيبيون اميليان ولكن خصومه لم يمهلوه الى ان يظهر مقاصده الاصلاحية فرشوا من قتله ليلا { ١٢٩ }

وفي سنة ١٢٣ انتخب كايوس غراكوس نائباً فاستأنف مطالب اخيه وتوصل الى تثبيت القانون الذي كان تيباريوس واضعه وقرر توزيع القمح على الشعب في مواعيد معلومة وانشأ مستعمرات للرومانيين الفقراء وضرب سلطة مجلس الشيوخ ضربة قاضية باخراجه ادارة القضاء من اختصاصاته واعطائها للقساورة او اهل الطبقة الثانية من الاعيان ٠ وبقي هذا الرجل مدة سنتين لا يفوق سلطته شيء في رومة فحاربه مجلس الشيوخ بمثل سلاحه وكان كلما عرض عليه اقتراحا يحببه الى الشعب زاده مجلس الشيوخ بنودا ترضيه اكثر فكان من ذلك ان كايوس لم ينتخب ثالث مرة للنيابة فقتله الاعيان واماتوا ٣٠٠٠ من انصاره { ١٢١ } وبقي النواب الذين جاءوا بعده احدى عشرة سنة لا يرفعون في خلالها صوتهم الى ان ظهرت فضائح حرب نوميديا وقام باعباء

الامور ماريوس فانتقم للغراكيين من الاعيان

﴿ فصل ﴾

في ذكر ماريوس وفتح نوميديا (١١٨ ـ ١٠٤)

كان ماريوس فلاحاً اميا من اربينوم شديد البأس حسن القياده للجنود ولكنه متقلب الرأي في المناصب الادارية ٠وكان سيبيون قد لمح بسالته في حرب نومنطة فرقاه ثم توصل بتعضيد آل متلوس الى منصب النيابة سنة ١١٩ ٠ وكان اول ما اقترحه الغاء الترشح للمناصب الانتخابية وذلك بمعنى ان يعرض كل نفسه على الشعب لينتخبه فقاومه الاعيان ولا سيما متلوس القنصل فانذره ماريوس بالحبس من اجل معارضته ثم امر جنديا ان يسوقه الى السجن فصفق له الشعب سروراً واعجابا غير انه لم يلبث ان اغضب الشعب بمنعه توزيع القمح عليه مجاناً اجابة لما اقترحه من ذلك احد النواب فامتنع الجمهور عن انتخابه ثانية الى سنة ١١٧ فكان فيها ماريوس آخر من وقعت له الاصوات لمنصب قضائى تولاه في رومة مدة ثم في اسبانيا مدة اخرى وكان في اثناء ذلك خاملاً مجهولا وعند رجوعه الى رومة عقد صلحاً مع الاعيان بتزوجه بجوليا الشريفة اخت جدة قيصر ٠ ونسي له متلوس أساءته فاصطحبه في حرب نوميديا

وكان ميسيبسا ملك نوميديا وابن ماسينيسا قد قسم مملكته

قبيـل وفاته { ١١٨ } بين ولديه وابن اخيـه المسمى جوغرتا
فقتل هـذا احد ابني عمه وقاتل الآخر قتالاً ظاهراً حتى اذا
حصره في سيرتا وقطع عنها موارد القوت فتحت له ابوابها
فاماته فيها جوعا { ١١٢ } وهـالت هذه الجراءة مجلس الشيوخ
فارسل احد القواد لمعاقبة هذا المعتدي فباعه الصلح بيعاً {١١١}
فقام احد النواب واستدعى الملك ليحاكم في رومة فجاءها غـير
متهيب ولما كلفه احد النواب بالاجابة على اسئلته منعـه الآخر
عن الاجابة لانه كان قد رشاه ٠ وكان في رومة مرشح لسرير
نوميديا فبعث جوغرتا اليه من قتله فامره مجلس الشيوخ بالخروج
حالا من رومة وارسـل احد القناصل وراءه الى افريقيا فظهر
عليه النوميديون واسـتعبدوا جيشه فعهدت ادارة هذه الحرب
الى متلوس فاعاد النظام والبسـالة الى العساكر وقاتل عدوه
بادىء بدء قتال مناوشات ثم فاز عليه في موتول (١٠٩) واخضع
فاكا عاصمته وسيكا وسيرتا وجميع مدائن الساحل ٠ وفي هذه
الاثناء انتخب ماريوس قنصـلاً فتولى القيـادة وحرم متلوس
شرف انجاز الحرب وانتصر على جوغرتا فلجأ الى موريتانيـا
فخانه صهره ملكها وسلمه للرومانيين فسيق مكبلاً { ١٠٦ }
وراء ماريوس الى رومة ومات فيها بعد ستة ايام ابى ان يذوق
فيها طعاما (١٠٤) وزيد قسم من نوميديا على ولاية افريقيا الرومانية

﴿ فصل ﴾

في غارة السمبريين والتاتونيين (١١٣ — ١٠٢)

كان بحر البلتيك قد فاض فاخرج نحو ثلاثمئة الف سمبري وتاتونى من بلادهم فاجتازوا الدانوب وتغلبوا على قنصل رومانى لقوه في طريقهم {١١٣} وشنوا الغارات مدة ثلاث سنين على نوريكا وبانونيا وايليريا ثم سطوا على غاليا {١١٠} ثم سحقوا خمسة جيوش رومانية {١١٠ — ١٠٥} ففتحت لهم ايطاليا ولكنهم تراجعوا الى جهات اسبانيا للغزو فيها فتمكنت رومة من استدعاء ماريوس وكان في افريقيا فرجع وهو يعود جنودة على اشق الاعمال حتى اذا ادرك البرابرة بقرب اكس حاربهم فقتل جنوده من التاتونيين خلقاً كثيراً {١٠٢}

وكان السمبريون في هذه الاثناء قد نزلوا من وراء جبال الالب على وادي نهر الاديج فانتقل ماريوس مسرعاً الى ضفاف نهر البو لانجاد رصيفه كاتولوس وتقويته عليهم وقاتلهم بقرب فرسال فاهلك منهم جمهوراً عظيماً ايضاً واسر ستين الفاً وكانت النساء تذبح اولادها وتنتحر كي لا تقع في ايدي الرومانيين (١٠١)

﴿ فصل ﴾

في تجدد الفتن الاهلية وذكر ساتورنينوس (١٠٦ — ٩٨)

وكوفئ ماريوس على انتصاراته بان استمر اربع سنين فى منصب

القنصلية ولكنه فى الخامسة خذله الكبراء » وانتخبوا عدوه متلوس
فعاقبهم علـى ذلك بان حمـل شابا يدعى ساتورنينوس على طلب
النيابة فانتخب دونه رجـل آخر من اصـدقاء الاعيـان فقتـله
ساتورنينوس وحل محله وكان أول ما اقترحه منح اراض لجنود
ماريوس فعارضه متلوس فنفي { ١٠٠ }

ثم اراد ماريوس ابلاغ احد اصـدقائه واسمه غلوسيا الى
منصب القنصلية فقتل لذلك احد القناصل الذين كانوا قد انتخبوا
حديثاً فغضب الجميع من هذه الخطة واسترجعوا متلوس فذهب
ماريوس الى آسـيا كراهة ان يرى فوز خصمه عليـه واملى ان
يخدع ميتريدات ملك البنطس فيوقعه فى حرب مع رومه تعهد
اليه ادارة رحاها فيستعيد بها ثقة قومه واكرامهم •

﴿ فصل ﴾

في ذكر سيلا وفي ثورة الايطاليين (٩٨ـ ٨٨)

كان سيلا شريفاً من آل كورنيليا ذانشاط وبسالة وذلاقة
لسان وميل شديد الى المجد وكان اول تعيينه مديرا للمالية تحت
يد ماريوس فاسترضى بدهائه الضباط والعساكر وماريوس نفسه
فانتـدبه لمقابلة بوكوس ملك موريتانيا فى امر تسليم جوغرتا
واشركه فى زفاف انتصاره واصطحبه فى حرب السمبريين الا
انه وقع خلاف بينهما فانتقل سـيلا الى جيش كاتولوس ثم عـين

قائداً فى آسيا

وكانت البلاد الايطالية قد اكثرت من طلب معاملة اهلها كما يعامل نفس الرومانيين فأبى ذلك عليها مجلس الشيوخ فتآمر ثمانية من شعوب الوسط والغرب على ان يستقلوا ويقيموا جمهورية على مثال جمهورية رومة ويجعلوا عاصمتها مركز كورفينيوم الحصين الذى دعوه باسم ايطاليكا غير ان اللاتينيين والاتروسك والامبرتيين والغاليين ثبتوا دون سواهم على تعاهدهم وكان بدء الثورة فى مدينة اسكولوم فذبح اهلها القنصل سرفيليوس وجميع عساكره والنساء الرومانيات الموجودة فيها (١٩٠) ثم غلب المتعاهدون قنصلا فى كامبانيا وقتلوا آخر وكان ماريوس يتولى قيادة احد الجيوش ولكنه لم يهاجم واكتفى بالدفاع لما اشتهر من مصادقته للايطاليين ثم تمارض واعتزل . اما سيلا فأظهر فى هذه الحرب القصيرة بسالة ومهارة عظيمتين كما اظهر مجلس الشيوخ حكمة باهرة حيث اصدر قانونين يمنح بهما الوطنية الرومانية او المعاملة كالرومانيين انفسهم لجميع الشعوب التى اقامت على ولاء رومة فلم تمض السنة الثانية حتى كان السمنيون واللوكاتيون منفردين فى الثورة فأدخلوا عنوة فى الطاعة وقسم الرومانيون المستجدون الى ثمانية اقسام ومنحوا حقوقا لم تكن على الحقيقة الاوهمية { ٨٨ }

على ان سيلا انتخب قنصلا على اثر انتصاراته وعهدت اليه

محاربة ميتريدات التي حاول ماريوس ان يتولاها فلم يجب الى سؤله
فوقع بسببها نزاع بينه و بين سيلا نشأ عنه مانشأ بعد ذلك من
الحروب الاهلية الآتي وصفها

{ فصل }

في ذكر سلبيـيوس وسينا ومن قتل من انصارهما (٨٨ ــ ٨٤)

واتفق ماريوس مع نائب يدعى سلبيسيوس على نقض الامر
الصادر بتولية سيلا قيادة الجيش لمقاتلة ميتريدات فحدثت بسبب
ذلك حركة اضطرت سيلا الى الخروج من رومة {٨٨} ثم لم يلبث
ان عاد اليها متقدماً جيشه ففر منه ماريوس الا انه قبض عليه
وسجنه وارسل اليه رجلاسمبريا ليقتله فخاف السمبري منه ورجع
عن جنايته فاطلق سبيل ماريوس ولجأ الى افريقيا . وكان سيلا
قد اصدر قوانين تضعف نفوذ نواب الشعب ليأمن في غيابه
غدرة تصيبه كغدرة سلبيسيوس وسافر الى اسيا فما ابتعد حتى
طلب القنصل سينا اعادة سلطة النواب كما كانت واخذ يحارب
مجلس الشيوخ من اجل ذلك فقدم ماريوس في هـذه الاثناء
مصطحباً جيشاً من الارقاء الهاربين والايطاليين وانضم اليه فانتصرا
على عساكر مجلس الشيوخ ودخلا رومة وقتلا كل اصدقاء سيلا
في خمسة ايام ليل نهار ولم يعفوا عن اللاجئين منهم الى الهياكل
ولا الموجودين في مدائن ايطاليا اين كانوا . وفي غرة ينار سنة

٨٦ تولى القنصلية ماريوس وسينا بلا انتخاب ثم توفي الاول في الثالث عشر من ذلك الشهر على اثر فواحشه فانفرد الثاني بالسلطة وحفظها السنتين التاليتين الى ان قتله جنوده

﴿ فصل ﴾

في انتصار سيلا وعودته وما اصدره من الاحكام بالقتل وذكر توليه الحكم المطلق (٨٤ ـ ٧٩)

وفي ذلك الوقت رجع سيلا من اسيامنتصراً في مقدمة اربعين الف مقاتل ودخل كمبانيا بلا معارضة { ٨٣ } وتغلب على اول جيش روماني لقيه ثم على جيش آخر كان قائده ابن ماريوس بقرب ساكريبورت { ٨٢ } ودخل رومة فذبح فيها جميع الشيوخ المشاهير ثم سار منها قاصداً بلاد الاتروسك لمقاتلة القنصل كاربون فيها فدحره وعاد مسرعاً للدفاع عن رومة وقد بلغه زحف بونتيوس تلازينوس عليها وبنتيوس هذا احد زعماء السمنيين لم يلق السلاح منذ ابتداء ثورة الشعوب الثمانية التي تقدم لنا وصفها على رومة وكان قد هاجم هذه المدينة بقصد تدميرها فادركه سيلا عند باب كولين فنكل السمني به ولكن كاسيوس الذي كان يقود ميمنة الجيش انتقم من بنتيوس ورد جيشه على اعقابه وقتل في هذه الموقعة خمسون الفاً نصفهم رومانيون . وفي اليوم الثاني امر سيلا بذبح ثمانية آلاف اسير من السمنيين واللوكانيين ثم ذهب

الى مدينة برينست التي كان ابن ماريوس مسجونا فيها وكانت قد شقت عصا الطاعة فذبح سكانها واخذ كل يوم يكتب جريدة باسماء المعدين للذبح من انصار ماريوس والمتهمين بذلك زوراً واصحاب الثروة الذين يطمع في اموالهم ويدفعها الى الجلادين فيقتلونهم • واستمرت الحال على هذا المنوال ستة اشهر كاملة من غرة دسمبر سنة ٨٢ الى غرة جونيو سنة ٨١ ولا يحصر عدد الذين جزروا في تلك الفوضى الشنعاء ولا سيما وان شعوبا برمتها كانت توضع خارج القانون اي تحت حكم الاعدام ومدائن كثيرة كان يهلك اهلها ويباعون

وبعد ان قتل سيلا الرجال بالسيف اراد ان يقتل الشعب بالقوانين فحمل المنتخبين على منحه الحكم المطلق ونزع من النواب كل اختصاصاتهم الا شيئاً من السلطة المدنية لا معنى له وحصر كل القوة في مجلس الشيوخ كما كانت قبل ذلك باربعة قرون واذ اتم عمله استقال ﴿ ٧٦ ﴾ وعاش سنة بعد ذلك ثم قبض وقد كتب بيده قبل موته ما اراد ان ينقش على قبره فقال وصدق «انه لم يحسن احد من الناس الى اصدقائه مقدار ما احسنت ولم يسيء احد الى اعدائه مقدار ما اسأت»



في انكسار سرتوريوس وسقوط حزب الشعب (٧٢)

كان هذا الحزب قد هلك في رومة فظن سرتوريوس انه يحييه في اسبانيا وبقي ثماني سنين يقاوم اشهر القواد التي يرسلها مجلس الشيوخ { ٨٤ الى ٧٢ } ولكن احد ضباطه قتله في بربنه ولم يكن خليقاً بان يخلفه فسقط بين ايدي القائد بمباي الذي افتخر بانه انهى بذلك الحروب الداخلية وانما كان مخمدها الى اجل غير بعيد يبلغ عشرين سنة

الباب الرابع والعشرون

في الزمن الذي مرَّ من عهد سيلا الى عهد قيصر وذكر بومباي وسيسرون (٧٩ــ ٦٠)

فصل

في محاربة ميتريدات لعهد سيلا (٩٠ ــ ٨٤)

علمنا ان الاضطرابات والفتن لم تنحصر في رومة بل قامت في جميع ايطاليا بسبب اشتداد الولاة على شعوبها واستبدادهم بهم وبشؤونهم ولذلك انقسموا الى فريقين وانحاز الفريق الغربي الى سرتوريوس والفريق الشرقي الى ميتريدات ملك البنطس. وكان هـذا الملك قد اخضع عدداً كبيراً من الشعوب التترية السكيثية فيما وراء القوقاف وفتح مملكة البسفور السيمراني وكابدوكيا وفريجيا وبيثنيا باسيا الصغرى. فخاف مجلس الشيوخ

من قيام هذه المملكة العظيمة بجوار ولاياته وامر حاكم اسيا بارجاع
ملكي بيثنيا وكابدوكيا الى سريريهما {٩٠} فاستعد متريدات سراً
للقتال استعداداً كبيراً ولما علم ان ايطاليا ثائرة على رومة والحرب
قائمة على قدم وساق ملأ اسيا بجنوده ليفتحها وامر فذبح ٨٠٠٠٠
ايطالي كانوا في المدائن الاسيوية وعندما اتم غزاوته في تلك الجهات
اغار على اغريقيا واخذ اثينا {٨٨} فارسل مجلس الشيوخ سيلا
الى تلك البلاد فى ربيع سنة ٨٧ بعد ان اخمد الفتنة الايطالية
فحاصر اثينا بخمس فرق واستمر الحصار عشرة اشهر ثم التقى
جيش ميتريدات بجيش سيلا في خرونيا فابلى الرومانيون بلاء
عجيباً على قلة عددهم ولم ينج من الاسيويين الا عشرة الاف
بعد ان كانوا مئة وعشرين الفاً . ثم علم سيلا ان قائداً رومانياً
يدعى فلاكوس كان يجتاز الادرياتيك ليتولى القيادة مكانه ويجني
ثمرة انتصاره وعلم ايضاً ان دوريالوس احد قواد ميتريدات قادم
من اسيا في ثمانين الف مقاتل فاختار محاربة الاخير وصادمه في
بيوسيا واستولى على ثيبة وثلاث مدائن اخرى اراق فيها دماء
كثيرة كما اراقها في اثينا وعند ذلك عقد صلحاً مع ميثريدات الذي
اكثر من التذلل له فشرط فيه عليه ان يتخلى عن فتوحاته ويسلم
اسراه والخائنين وسبعين سفينة حربية ويؤدي الفي وزنة ذهبا .
اما فلاكوس فكان قد قتله رجل يدعى فمبريا وخلفه في القيادة

ولما علم سيلا انه في ليديا ذهب اليها واستمال جيشه فضمه الى جيشه فانتحر فمبريا المذكور (٨٤) وبهذه القوة كلها عاد سيلا الى رومة لاسقاط حزب ماريوس

﴿ فصل ﴾

في محاربة لوكولوس وبمباي لميتريدات (٧٤ـ٦٣)

بعد هذه الحوادث بست سنين بلغ ميتريدات نعي سيلا (٧٨) فدفع سرا ملك ارمينيا تيكران الى الهجوم على كابدوكيا واستعد للدخول معه في النزال وجهز جيشاً جرارا جمعه من القوقاف الى جبال هيموس وكان بعض الرومانيين المنفيين يثقفون جنوده وجماعة من الضباط الذين أرسلهم اليه سرتوريوس من اسبانيا يقودونها { ٧٤ } . أما مجلس الشيوخ فعهد الى لوكولوس برو قنصل سيليسيا اى واليها ان يزحف على البنطس فلبى الامر وفي أثناء مسيره انقذ زميله القائد كونا الذي كان قد خوصر في خلقدونيا بعد ان انكسر مرتين { ٧٤ } وتقدم من هناك الى سيزيكا ومنها الى البنطس فاستولى على مركز اميزوس الحصين فيها { ٧٢ } وفي السنة التالية حصر الاعداء مرة اخرى فلم ينج منه الملك الا بما القاه من الغنائم والاموال على الطريق ليعوق بها سيره ولجأ الى تيكران الذي كان في ذلك العهد اكبر ملوك الشرق اذ كانت سلطته تتناول ارمينيا وسوريا وبلاد البارتيين

وكان يلقب فيها بملك الملوك . فجاءه رسول من قبل لوكولوس يطلب منه تسليم ميتريدات فطرده مستكبراً فاجتاز القائد الروماني دجلة وتقدم باحد عشر الف روماني لمقاتلة مئتين وخمسين الف ارمني فانتصر عليهم واخذ عاصمتهم تيكرانوسرت . وامضى الشتاء في غورديانا ودعا ملك البارتيين للانضمام اليه فتردد فعزم على محاربته ولكن جنوده الذين كانوا قد اكتظوا شبعاً من كثرة الغنائم ابوا التقدم كما فعل جنود الاسكندر . وفي سنة ٦٧ خلفه بمباي وسحق جيشاً جديداً كان ميتريدات قد حشده ثم ازمع مقاتلة تكران وكان لتكران ابن خانه ودخل في جيش الرومانيين فسلم تكران وتذلل فتركه بمباي ولحق بميتريدات الى القوقاف فتغلب في طريقه على الالبانيين والايبيريين واذ لم يجد فائدة من مداومته اللحاق بالملك الهارب رجع ونظم البنطس على شكل ولاية رومانية في سنة ٦٤ وهبط الى سوريا وفينيقيا فحولهما الى ولايتين أيضاً واخذ اورشليم عنوة واعادها لملكها هيكران الذي وعده بتأدية جزية سنوية . وفي اثناء هذه الغزوات عاد ميتريدات الى البسفور وكان المظنون انه مات فضايق ابنه ماخارس حتى حمله على الانتحار ثم اراد دخول التراس مع بلوغه الستين من العمر وتجنيد برابرتها الاشداء الذين لا يدركهم العد والانقضاض بهم على ايطاليا فهالت هذه المقاصد عساكره

فثاروا عليه برئاسة ابنه فارناس فكلف ميتريدات احد الغاليين ان يقتله كي لايقع في ايدي الرومانيين { ٦٣ } ولم يبق لبمباي عمل في البلاد الاسيوية سوى توزيع الامارات والممالك على اصدقاء مجلس الشيوخ

﴿ فصل ﴾

في نهضة حزب الشعب في رومة والكلام على المبارزين (٧١)

جرت في أثناء حروب ميتريدات حوادث خليقة بالذكر في ايطاليا • وذلك ان القنصل ليدوس خطب ذات يوم فى اعادة السلطة القديمة لنواب الشعب فقام انصار هذا الرأى على قدم وساق بعد از ظن انهم غرقوا في الدماء من عهد سيلا • واتفق في هذه النهضة حاكم سيزالبينا مع ليبيدوس فاخذ بمباي على عاتقه محاربتهما بالجيش الذي حشده قبلا لتدمير حزب ماريوس وانتصر على احد الزعيمين بقرب قنطرة ميلفيوس وعلى الآخر في سيزالبينا ورأينا ما كان من فعله في اسبانيا

وكان في مدينة كابو ملعب يعود فيه فريق من الناس علي المصارعة حتى اذا برعوا فيها أرسلوا الى رومة ليتبارزوا امام الشعب فاتفق ان فرسبعة عشر من اولئك المبارزين وفي مقدمتهم رجل يدعى سبارتكوس فلحق بهم احد القوادفقاوموه ثم ظهروا على قائد آخر وكان قد انضم اليهم كثير من الرعاة ومن

يماثلهم فانتشروا في ايطاليا ينهبون فقاتلهم قنصلان لكبح جماحهم ففازوا عليهما ثم عهدت القيادة الى كراسوس لمحاربتهم فبددوا جيش احد ضباطه ولكن كراسوس توصل الى حصرهم في اقصى بروتيوم فاراد سبارتاكوس ان يذهب بجماعته الى صقليا فتخلف عنه بعضهم فاهلكهم الرومانيون ثم ان سبارتكوس اضطره اصحابه المبارزون لشدة ثقتهم بحسن طالعه ان يحارب جيش الرومانيين في موقعة كبيرة تكون القاضية ففعل ﴿٧١﴾ وابلى بلاء الابطال غير انه قتل وبعد ذلك بقليل كان بمباي راجعاً من اسبانيا فظفر ببعض اشتات المبارزين فاهلكهم وادعى انه صاحب الحق في شرف انجاز هذه الحرب

﴿ فصل ﴾

في تقرب بمباي من الشعب وذكر حرب القرصان (٦٧)

وعند ما وصل بمباي الى رومة قابله الكبراء بدون حفاوة ولم يمنحوه قيادة جديدة لاعتقادهم ان ماناله من قبل يكفيه. اما الشعب فصفق له ورحب به ليستميله فمال اليه وفي سنة ٧٠ استصدر قانونا يعيد لنواب الشعب سلطتهم القديمة فكافأته العامة على ذلك بمنحه القيادة لتبرئة البحار من القرصان ﴿٦٧﴾ ثم منحته القيادة لانجاز حرب ميتريدات مع ان لوكولوس كان لم يبق له بقية من القوة . وبينما هو يقوم بهذه الغزوات حدثت

في رومة مؤامرة كادت تذهب بالجمهورية

﴿ فصل ﴾

في سيسرون وذكر مؤامرة كاتيلينا (٦٣)

ولد سيسرون في ابينوم مسقط رأس ماريوس وشب على فصاحة تندر في الرجال وبعد ان نبغ في فن المحاماة سافر الى بلاد اليونان لاستتمام معارفه فيها ثم عاد وكان اول ما كسب به الشهرة العظيمة خطبه العجيبة التي وصف بها شكوى اهل صقليا من حاكمهم المستبد المرتشي فيريس وما يتهمونه به من المنكرات. وقد اخذ حينا يناصر بمباي لدى الشعب حتى اذا عرف كنه مقاصده وهي الاستئثار بالسلطة الف حزبا يدعى حزب اهل الاستقامة للدفاع عن الجمهورية وتوصل الى منصب القنصلية {٦٣} وكانت الحكومة في تلك السنة تحت خطر مؤامرة شديدة قام بها رجل يدعى كاتيلينا من العتاة الظالمين. قتل امرأته وابنه ليتزوج بامرأة اخرى واشتهر بسفك الدماء في رومة وفي افريقيا حين كان حاكمها وعند رجوعه منها ترشح للقنصلية فمحى اسمه منها بناء على شكوى الافريقيين فاخذ يعد مؤامرة كبيرة في نفس رومة وفي بعض جوانب ايطاليا وتسلح للاخذ بناصره كثيرون من الجنود في قبريا وبلاد الاتروسك والسمنيين ووعده ستوس حاكم افريقيا باثارتها واثارة اسبانيا معها ليشاركه في اثمه وكانت عمارة نهر

الاوستي تحت تصرفه وكان قد حاول قتل القناصل مرتين فخابت دسيسته فارجأ الامر الى سنة ٦٣ ولكن سيسرون وقف على السر فطرده من مجلس الشيوخ بخطبة بلغ فيها منتهى الفصاحة وشرح فيها مؤامرته ففر من رومة ولجأ الى جيش ماليوس احد زعماء الخائنين يبغي محاربة وطنه معه اما سيسرون فقبض على كل انصاره وامر باعدامهم للحال فخاف سائر المتآمرين واخلدوا الى السكون وخرج القنصل الآخر انطونيوس لمقاتلة ماليوس فظهر عليه وقتل فى هذه الموقعة كاتيلينا بعد ان اظهر بسالة عظيمة .

ولما انتهت مدة سيسرون كلفه احد النواب على جاري العادة ان يقسم بانه لم يخالف القوانين في مدة حكمه فصاح اقسم اني انقذت الجمهورية فحياه كاتون والشيوخ ولقبوه بابى الوطن وصفق له جميع الشعب استحسانا

الباب الخامس والعشرون

في ذكر قيصر (٦٠ — ٤٤)

﴿ فصل ﴾

في ترجمة قيصر وذكر توليه رئاسة حزب الشعب ثم منصب القنصلية (٦٠)

ان قيصر سليل آل جوليا الشرفاء اكبر بيوتات رومة . وكان يزعم انه ولدته فينوس باقترانها مع يوليوس بن انشيز . وفي

السابعة عشرة من سنه قاوم سيلا ولم يخف باسه . وقد عين في
سنة ٦٥ عضواً ممتازاً في المجلس البلدي لرومة فاستمال الشعب اليه
بما اقامه له من الملاهي الباهرة وبارتكانه على نفوذه عند العامة
اعاد الى الكابيتول علامات انتصارات ماريوس اخي جدة .
وكان خصوم ماريوس قد نزعوها منه . ثم انتخب الشعب قيصر
رئيساً للكهنة . وفي سنة ٦٢ بلغ ما كان قد استدانه ٨٥٠ وزنة
فضمنه فيها احد الاغنياء المشاهير وهو كراسوس فامهله دائنوه
فذهب الى اسبانيا الورائية ليتولى حكومتها . وعند ما رجع
منها سنة ٦٠ وجد بمباي وكراسوس نافرين من مجلس الشيوخ
احدهما لانه لم يصدق له على ما فعله فى اسيا والآخر لانه جرد
من كل سلطة فى الحكومة . فقرب بينهما وعقد معهما اتفاقا
سريا اشتهر باسم الاتفاق الثلاثي . ومن مقتضاه انهم تحالفوا جميعاً
على جعل نفوذهم واموالهم واعمالهم مشتركة فى مصلحة بعضهم
البعض . واول من جنى ثمرة هذا الاشتراك قيصر فانه رقي الى
القنصلية فوافق على ما فعله بمباى بآسيا واستمال فريق الجباة
بتخفيضه الى الثلثين قيمة ما كانوا يلتزمونه من جباية الخراج
واستمنح لنفسه ولاية سيزالبينا وترنسالبينا وايليريا لمدة خمس
سنين وقيادة اربع فرق من الجيش { ٥٩ } . وقبل ان يخرج
من رومة عين فى النيابة كلوديوس احد انصاره لالجام مجلس

الشيوخ وبمباي في اثناء غيابه ٠فاول ما فعله هذا انه اختال حتى ابعد كاتون الى قبرص لتحويلها الى ولاية رومانية ونفى سيسرون بدعوى انه امات انصار كاتيلينا بحكم غير قانوني وكان الرجلان عدوي قيصر وبقية الابدال من رجال الحرية فى رومة .

﴿ فصل ﴾

في حروب غاليا وفي الانتصار على الهلفيتيين او السويسيين وذكر اريوفيست والبلجكيين (٥٨ ــ ٥٧)

كان للرومانيين منذ سنة ١٢٥ ولاية في غاليا تدعى ناربونيز وصلات وداد مع شعب يعرف بشعب الادوينيين يجاورهم شعب آخر يعرف بالسيكانيين ٠ وكان اريوفيست احد الزعماء الجرمانيين قد سطا بعشرين الف مقاتل من السويسيين على السيكانيين وجير انهم الادوينيين ففتك بهم واخذ يشن الغارات على الهلفيتيين سكان غاليا الشرقية ٠ فعزموا على ترك جبالهم وارتحلوا قاصدين ارضاً اخصب وابعد عن القلاقل فلما اجتازوا نهر الجورا صدمهم قيصر ومحا قسما منهم واعاد الآخرين الى جبالهم كي لا تخلو من السكان فتخسرها رومة ٠ وبعد هذه المعركة التقى باريوفيست فرده الى ما وراء الرين مدحوراً {٥٨} وعسكرت جنوده منتشرة الى تخوم بلجيكا فاعتصب الاقوام المقيمون بتلك الجهات كرهاً لهذا الجوار المخيف غير انهم لم يلبثوا

ان وقع التنافر بينهم فافترقوا وضعفوا واوقع قيصر بكل فريق منهم على حدته

﴿ فصل ﴾

في خضوع الارموريك واكيتانيا وذكر غزو بريطانيا وما وراء الرين

(٥٦ـ٥٣)

وتوصل قيصر في الحرب الثالثة التى ادارها الى اخضاع الارموريك واكيتانيا وفي الحرب الرابعة والخامسة اقعد سكان ما وراء الرين عن انجاد الغاليين في ثوراتهم ٠ وزحف مرتين على بريطانيا فقطع كل اتصال بينها وبين غاليا أيضاً

﴿ فصل ﴾

في الثورة العامة وذكر فرسنجيتوريكس وحصار الازيا

غير ان غاليا لم تلبث ان انتشبت فيها ثورة عامة من نهر الغارون الى نهر السين ﴿٥٢﴾ سكان زعيمها ارفين فرسنجيتوريكس فساق قيصر جنوده الى مدينة جنابوم فأخذها وعاقب أهلها على قتل الرومانيين الذين فيها ثم اخذ مدينة بورج وكانت المدينة الوحيدة التى لم يحرقها البيتورجيون فى تقهقرهم امام الرومانيين ٠ وبعد ذلك هاجم مدينة جرغوفيا ﴿ كليرمون ﴾ فلم يفز فوزاً مبيناً فاستدعى مساعده لابيانوس الذى كان قد تغلب على الاعداء بقرب باريس فلما انضم اليه قاوما مئتى الف غالي ثم دحراهم

فقروا متبددين الى الازيا فاقام قيصر حولها الاستحكامات والقلاع في أيام قليلة وشدد في مضايقتها الى ان خرج منها فرسنجيتوريكس وسلم نفسه {٥٢} فاخمدت انفاس الثورة في جميع غاليا ولم تحدث بعدها الا حركات صغيرة انتهت في سنة ٥١ بموقعة اوكسللودونوم

﴿ فصل ﴾

في غلبة البارتيين على كراسوس (٥٣)

وفي أثناء هذه الحروب كان كراسوس يحارب البارتيين بعد ان نهب هياكل سوريا وارشليم فلم يمكنوه منهم لانهم كانوا راكبين يفرون من وجهه ان أقبل عليهم ويكرون عليه كلما استقر . فهاجمهم ابنه بالف وثلاثمائة خيال فتقهقروا امامه الى مسافة بعيدة ثم أحدقوا به فأمر أحد رجاله ان يقتله حتى لا يقع حياً بين أيديهم فقطعوا رأس جثته وعلقوها على رمح واخذوا يظهرونها لسائر جيش الرومانيين فأجبر هؤلاء قائدهم كراسوس ان يجيب زعيم البارتيين الى عقد الصلح فلما ذهب الى موعد المقابلة قتله البارتيون ومن معه ولم يعد الى رومة من جنوده الا قليلون (٥٣)

﴿ فصل ﴾

في الحرب الاهلية بين قيصر وبمباي (٤٩ــ٤٨)

بعد وفاة كراسوس اصبح بمباي وقيصر خصمين متناظرين

أما الاول فتقرب من مجلس الشيوخ وحث ميلون احد النواب فقتل النائب كلوديوس لكثرة طعنه على بمباي ورأى مجلس الشيوخ انه فى حاجة الى قائد عظيم وحاكم شديد لاضعاف نفوذ قيصر ومقاومته خوفا منه على الجمهورية فعين بمباى قنصلا مدى حياته ومنحه السلطة المطلقة • وفي غـرة يناير من سـنة ٤٩ استصدر بمباي أمراً باعتبار قيصر عدواً للجمهورية ان لم يترك قيادة جنوده وحكومة ولاياته فى يوم معـلوم فاجتاز قيصر نهر الروبيكون وفى ستين يوما طرد بمباى والشيوخ الذين حاربوه معه من ايطاليا {٤٩} ثم عاد الى اسبانيا وفتك بجيش كان لبمباى فيها وفي عودته اخذ مرسيليا ودخل رومة وتنصب فيها حاكما مطلقا

وكان بمباي قـد لجأ الى أبيروس فحشد فيها جميع الجيوش الرومانية التيكانت في الشرق فاجتاز قيصر بحر الادرياتيك في شهر يناير من سنة ٤٨ وحاول ان يحيط بجيوش بمباي مع قلة عدد جنوده فضعفت بذلك قوته ولم يستطع الفوز عليـه فذهب الى تساليا وتبعه اليها بمباى فلقيـه قيصر في فارسال وكسره ففر الى مصر فقتل فيها غدرا حين نزوله الى الشاطئ

﴿ فصل ﴾

في حرب الاسكندرية وذكر حكم قيصر المطلق (٤٨ــ٤٤)

وكان قيصر قد تابع بمباى الى مصر فلما دخل الاسكندرية قابل الوزراء بالتحقير لما علمه من غدرهم ثم شغفته كليوباترا بمحاسنها فاراد ان يشركها بالملك مع شقيقها فثارت عليه الاسكندرية بالالوف المؤلفة من سكانها وحاصروه فى القصر الملكى فلزمه الى ان أتته نجدة من آسيا فهاجم محاصريه ومزقهم كل ممزق ففر الملك وغرق في النيل وجلست كليوباتر بعده على تخت مصر (٤٨)

ورجع قيصر الى رومة بعد ان غلب فارناس بن ميتريدات في مروره من آسيا { ٤٧ } وبوصوله علم أن جيشاً كبيراً حشد في افريقية تحت قيادة جوبا ملك نوميديا للاخذ بثار بمباى فلقيه في تابسوس وسحق جيشه واخذ مدينة اوتيك التى كان كاتون فيها فانتحر حتي لا يعيش بعد فقد الحرية الرومانية { ٤٦ } . ثم ذهب قيصر الى اسبانيا لمحاربة جيش عبأه ابناء بمباى فظهر عليه وعند رجوعه الى رومة وضع فى مصف الالهة وبولغ فى تعظيمه واجلاله ومنح جميع السلطات وهى الحكم المطلق والقنصلية والقضاء والنيابة ورئاسة الكهنة وامارة مجلس الشيوخ وماسواها فكان ملكا ولكن بدون لقب . والحق يقال انه لم يحسن احد سيرته فى حكمه كما احسنها قيصر فانه ساس الشعب بالحكمة والكرم والعدل والحلم على اعدائه وكان ينوي استتمام فتح آسيا

الى آخر الهند وحفر ترعـة قرنثيـة وانشاء طريق عـلى جبال الابنين من الادرياتيك الى بحر توسكانا ومنح الوطنية الرومانية لجميع الشعوب على اختـلافها لتتحد المملكة وجمع القوانين في كتاب وكل مولدات الفكر البشري في مكتبة عظيمة ٠ وفي عهده اعيد بناء قرطاجنـة وقرنثية وكانت قد اعـدت مؤامرة عـلى القيصر لمقـاومة سلطته المطلقة وكان زعيمها رجـلا يدعى كاسـيوس ومن اعضائهـا العاملين بروتوس ابن اخي كاتون ٠ فلما كان يوم ١٥ مارس سنة ٤٤ قـتله المتآمرون بطعن الخناجر في دار مجلس الشيوخ

الباب السادس والعشرون

في الاتفاق الثلاثي الثاني(٤٣ــ ٣٠)

فصل

في ذكر اوكتافيوس

وظن المتآمرون انهم بفعلتهم قـتلوا عامل الاستبداد في رومة ولكن القنصل انطوان لم يلبث ان اثار عليهم الشعب في مشهد دفن قيصر وطردهم من المدينة ٠ ولم يكن لقيصر نسل بل كان له ابن اخ تبناه واسمه اوكتافيوس فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره اتى رومة ووعد جنود قيصر بانه يوزع عليهم الاموال

المكتوبة لهم في وصيته فاجتمعوا حواليه وائتمروا بامره . وعند ذلك كلفه مجلس النواب ان يذهب والقنصلين في مقدمة جيشه لمقاتلة انطوان الذي كان محاصرا لبروتوس في مودينه فانتصر عليه (٤٣) ولكن القنصلين الرومانيين قتلا في خلال الموقعة فطلب اوكتافيوس منصب احدهما فابى ذلك مجلس الشيوخ عليه فدخل رومة في ثماني فرق من العساكر وقابله الشعب بالتصفيق ومنحه المنصب الذي كان قد التمسه ووافق على اخذ الاموال التي اوحى بها قيصر لتوزع على الجنود

﴿ فصل ﴾

في الاتفاق الثلاثي الثاني وذكر حرب فيليبه

ولما تحققت امنية اوكتافيوس اجتمع بانطوان ولبيدوس في جزيرة صغيرة بنهر رنو وقضوا فيها ثلاثة ايام يعقدون اتفاقا بينهم فقرروا ان يكون كل منهم قنصلا الى خمس سنين وان يكون لهم في هذه المدة حق التصرف بكل الوظائف وان تكون اوامرهم نافذة وان تكون بعد انتهاء مدتهم حكومة ولايتي ناربونيزا واسبانيا لاحدهم لبيدوس وحكومة ولايتي غاليا لثانيهم انطوان وحكومة ولايتي افريقيا وصقليا وسردينيا لثالثهم اوكتافيوس . ثم وعد الثلاثة للاستيثاق من العساكر انهم يعطون كلا منهم الف درهم روماني { دراخم } ويقسمون عليهم ١٨

مدينة من اجمل مدائن ايطاليا

وعند وصولهم الى رومة اهلكوا مئات من كبرائها واعيانها بينهم سيسرون وللتظاهر بالانصاف في هذه المجزرة الهائلة وافق كل منهم على قتل احد اقاربه

اما بروتوس فبخروجه من ايطاليا ذهب الى اثينا وحشد جيشاً جراراً وكان كاسيوس قد استمال الجنود الرومانية الموجودة في الشرق وتقدم القائدان بهذين الجيشين حتى بلغا فيليبه في مقدونيا فوجدا اوكتافيوس امام بروتوس وانطوان امام كاسيوس فانتصر في هذه الموقعة بروتوس بعض الانتصار ولكن كاسيوس دحر وانتحر . وبعد ذلك بعشرين يوما دارت الدائرة على بروتوس فالقى بنفسه على سيفه وهو يقول « ايتها الفضيلة لست الا اسما » وقضى نحبه اما اساطيل الجمهورية فذهبت لتكون تحت امرة سكستوس بمباى { ٤٢ } وهو احد زعماء الثائرين

﴿ فصل ﴾

في ماجرى لانطوان في الشرق وفي ذكر حرب بيروزا

ولما صفا الجو لاوكتافيوس وانطوان بعد الحرب المتقدم ذكرها اجتمعا وتناسيا ثالثهما ليبدوس وقررا ان يذهب انطوان اسيا ليأتي بالمال الذي وعد به العساكر ويبقى اوكتافيوس في ايطاليا ليقسم بينهم الاراضي الموعودة

فاجتاز انطوان اغريقيا واسيا وهو يجمع الضرائب عن عدة سنين دفعة واحدة ويبذر في انفـاق الاموال وينهب ثروات بعض الاغنياء الى ان وصل الى مدينة طرسوس فكتب الى كليوباترا ملكة مصر يسألها عن سبب ارسالها النجدة لكاسيوس ايام كان يحارب وطنه فاتت لتعتذر اليه بنفسها على امل ان تتيمه بحبها كما تيمت قيصر من قبله فشغف بها وفقد لبه ونسي رومة وامرأته وانصاره وتبعها الى الاسكندرية { ٤١ }

اما اوكتافيوس فعـانى مشـاق عظيمة فى توزيع الاراضي واغضب به كثيرين من الايطاليين فاثارهم عليه انطيونوس اخو انطوان ليسقطه ولكن اغريبا قائد اوكتافيوس حصره فى بيروزا واجاعه فسلم { ٤٠ } وفرت امرأة انطوان وانصاره من ايطاليا ولما علم انطوان بما حدث نهض من وهدة خموله واتى مدينـة برندس فقابله فيها اوكتافيوس واتفقا على ان يتولى اوكتافيوس حكومة الغرب وانطوان حكومة ولايات الشرق وليبدوس حكومة افريقيا واشترط على الاول ان يقـاتل سكستوس وبماى وعلى الثاني ان يحارب البـارتيين { ٣٩ }

﴿ فصل ﴾

في ذكر حكمة اوكتافيوس في ادارته وحملة انطوان على البارتيين

وفى سنة ٣٨ انتشبت الحرب بين اوكتافيوس وسكستوس

بمباى وكان هذا حاكما على صقليا وكورسيكا وسردينيا واخائية بمقتضى معاهدة ميزينا المعقودة سنة ٣٩ فخانه احد معاتيقه وسلم لاوكتافيوس كورسيكا وسردينيا مع ثلاث فرق رومانية وانشأ اغريبا ميناء يوليوس واصلح حال العمارة واحكم نظام العساكر ولما التقى اوكتافيوس بسكستوس تغلب عليه في موقعة نولوك ففر سكستوس من وجهه الى آسيا فقتله فيها احد ضباط انطوان { ٣٥ } ثم راى اوكتافيوس ان يتخلص من زميله ليبدوس فافسد عساكره عليه وابعده الى سيرسية فعاش فيها ثلاثا وعشرين سنة بعد انخذاله هذا

ولما رجع اوكتافيوس الى رومة بالغ الشعب في الحفاوة به فاكرم الشعب وقطع دابر الفتن في رومة وايطاليا وفي البر والبحر واعاد الامن والراحة وعدل في الاحكام والغى بعض الضرائب . وفي سنة ٣٧ اتى انطوان الى تارنتا فجدد ميثاق الاتفاق الى خمس سنين وعزم على اللحاق بقواده الى آسيا ليتولى حرب البارتيين بنفسه غير ان حبه لكليوباترا ثار في صدره فبقى في انطاكية واستدعى ملكة مصر اليها واقر بابوته للاولاد الذين رزقهم منها وزاد عل مملكتها الساحل الممتد من النيل الى جبل طورس وكان ذلك كله من املاك رومة وبعد التردد الطويل صح عزمه على مقاتلة البارتيين فمر من ارمينيا وكان لم

يصطحب آلات الحصار معه فاضطر الى التقهقر وفقد عشرين الف جندى في رجعته واتفق انه حدثت فتنة بين ملك الماديين وملك البارتيين وعلم انطوان ان الاول يريد ان يتحد معه على عدوهما فلم ينتهز الفرصة للتعويض عن فشله ورجع مع كليوباترا الى الاسكندرية

اما اوكتافيوس فبالغ في توطيد الامن وطهر الادرياتيك من القرصان وروما واغريقية من القبائل النهابة السلابة واضاف بلادها الى املاك رومة ٠

وفي سنة ٣٢ كتب انطوان الى اوكتافيوس يطلب نصيبه من غنائم سكستوس فاجابه بتخطئته على ماساء من سيرته ٠ وقرا بعد ذلك لمجلس الشيوخ ما كتبه انطوان فى وصيته من انه يهب قسما كبيرا من الاملاك الرومانية التي هو مولى عليها لكليوباترا واولادها فتكدر مجلس الشيوخ وقرر ان تشهر الحرب على مصر

﴿ فصل ﴾

في موقعة اكتيزم (٣١) وفي وفاة انطوان وانقلاب مصر الى ولاية رومانية (٣٠)

فجمع انطوان مئة الف من الرجالة واثنى عشر الفا من الخيالة و٥٠٠ مركب كبير وكان اوكتافيوس يتقدم ثمانين الف

راجل واثني عشر الف خيال ومئتي مركب صغير . فالتقى الجمعان في اكتيوم على شاطئ اكارنانيا في اغريقية في ثاني ستمبر من سنة ٣١ ففرت كليوباترا في ستين من مراكبها وتبعها انطوان فسلمت بقيـة العمارة المصرية وقد تركت على هذه الصورة الدنيئة وقاوم الجيش سبعة ايام ثم سلم

وبعـد هـذا الانتصار رجع اوكتافيوس لتسكين بعض الفتن التي حدثت في ايطاليا وفي السنة التالية عاد لمتابعة خصمه فتحصن انطوان في الاسكندرية غير ان كليوباترا خانته فانتحر فحاولت ان تستعطف اوكتافيوس المنتصر وتستميله بمحاسنها فلم تفلح فوضعت ثعبانا على ثديها فأماتها ﴿ ٣٠ ﴾ وحول اوكتافيوس مصر واملاكها الى ولاية واصبح صاحب الامر المطلق والسلطة الوحيدة في جميع البلاد الرومانية

﴿ فصل ﴾

في سقوط الجمهورية الرومانية واسباب ذلك

جاء في حقائق الاخبار عن دول البحار ما ننقله بحرفه

لو تبصر عاقل في احوال رومية منذ نشأتهـا وما وصلت اليـه من العظمة لرأى في العناصر التي كونتها اسباب ارتفاعهـا العظيم السريع وقد اظهر مجلس اعيانها (السناتو) التبصر والمهارة فكان يدير جميع الاعمال ويوجه مجهودات الامة نحو غاية واحدة

وهي توسيع اراضي الجمهورية وانه وان كان ارتكب مظالم عديدة في بعض الاوقات الا انه مع ذلك افاد الرومانيين افادة لا تقدر وكان له تحت تصرفه جنود اتصفوا بالاقدام وخوض المعامع وقواد مهرة اشتهروا بالحزم وأصالة الرأي بحيث لم تبلغ أمة من الامم ما بلغه الرومان فى المعارف الحربية بحسب ما وصل الينا وكانت التربية كلها منصرفة في جعل الجندى يتصف بصفتي الشدة والقوة اللتين هما نتيجة نظام قوي وكانوا يعودونه ايضاً على تحمل المشاق والصبر على المؤلمات وكانت امة الرومان التي ولدت ابطالا دافعوا عن بلادهم بما خلد لهم الذكر الجميل متصفة ببساطة الاخلاق وعلو النفس وعدم المحاباة لدرجة عظيمة ولم يكن لديها شي اعز عليها من منازلها وحقولها وكانت متمسكة باهداب الدين بسيطة المعيشة تدرس جميع فضائل الابطال نعم وان كانت الانشقاقات التي ظهرت بينهم فى اول الامر عطلت قوى الامة مدة من الزمن الا انه لما اتحدت طائفة الاعيان مع بقية الاهالي بما اجراه الجانبان من التساهل لم يعطل نهضتها الحربية بعد ذلك معطل أصلا ولقد كانت فتوحاتهم سبب اضمحلالهم وملاشاتهم فقد تفرقت الامة بجميع البلدان وسفكت دماء ابطالها فى مواقع النزال ولما ضعف امرها عوضت اولادها فى الحروب بجنود اخذتهم من الارقاء المحررين فلم يكن لهم ما كان

لاولئك من الخصال والاحساسات وعند ذلك تجددت بين الاعيان وبقية الاهالي الحروبات القديمة وبحصول هذه المنازعات ضعف عامل الوطنية والاخلاص في قلوب الوطنيين وفسدت الاخلاق وعم الاختلال حتى حصل ان حزب الامة والاعيان تفانوا في مقاتلة بعضهم بعضاً وسقطت الامة ومجلس اعيانها في هوة الاستعباد وقام الظلم الملوكي فالزمهم باطاعة اوامره واجتناب نواهيه وكانت الجنود أثناء حروب الاحزاب التي تجتهد القبض في على السلطة العليا يخضعون لمن يحسن مكافأتهم ويكثر لهم العطاء من الرؤساء وكان ماريوس هو اول من ارتكب هذا الخطأ الفاحش والكرم المشؤم لانه عوضاً عن ان يضم الى اعلامه أهل الوطن الحقيقيين جمع في جيشه كثيراً من مختلفي الاجناس والغايات جذبهم الى محبته بان تركهم ينهبون ويخربون ما ارادوا ومتى ارادوا وقد كانت جنود سيلا وپومپيوس تقاتل بقصد الحصول على الغنيمة ليس الا اما جيوش قيصر فهي وان اتصفت بخلاف ذلك الا ان اخلاصهم لم يكن الا لنفس رئيسهم فقط وعوضاً عن أن يخدموا البلاد كانوا آلات للمظالم لكل من يريد استعمالهم فى فائدة اطماعه وكانت الامة اذ ذاك تمتهن للغاية الحرف اليدوية فكان العبيد هم المكلفون بالقيام عليها ولم يكن لها من التسلية وتمضيه الوقت أثناء الفراغ الا التردد على أمكنة اللهو واللعب

ومحلات الاجتماعات العمومية ولما سلب ظلم القياصرة من المجامع العمومية المذكورة ماكان لها من القوة والتأثير صارت الامة تتردد على محلات قتال الحيوانات المفترسة وامكنة المصارعة ولما كان السناتو يوزع على الامة الحنطة اللازمة لغذائها بلا مقابل صارت لا تتطلع اذ ذاك الا الى شيئين وهما الخبز والالعاب تاركة ما اتصفت به قديما من الشرف والكرم وكان برومة في عهد قيصر أكثر من ثلثمائة الف من المحتاجين الذين لا صناعة لهم وكانوا يعيشون من صدقات السناتو أو من النقود التي يمنحها اهم الناس بالطرقات وكانت جميع الاملاك والثروة محصورة فى قبضة بعض الاعيان فكان لهم مزارع واسعة جداً حتى انهم لا يتمكنون من مشاهدتها الا وهم ركوب على الخيل وكان لهم برومة من القصور الفاخرة والمنتزهات الجميلة الغنـاء مالا يحيط به الوصف وكانوا محاطين بالخدم والحشم المستعدين في كل وقت لقضاء مشتهياتهم وكانوا يصرفون قسما عظيما من حياتهم في الولائم الفـاخرة وكان لمهرة الطهاة عندهم المنزلة الرفيعة فكانوا يفوقون امهر الصناع والمصورين اعتباراً

ومن الاسباب التي ساعدت كثيراً على هذا التغير الذي حصل للرومانيين دخول التمدن الاغريقي حينما دخل بلادهم عقب الحرب البونيقية الاولى وقد افاد كثيراً فى تقدم الفنون والعلوم

والآداب ونبغ برومة عدة من فحول الشعراء مثل اينوس وبلوت وتيرانس ولوكريس وكاتول وغيرهم وقام ايضا كثير من الخطباء مثل شيشرون وسيلا وغراك وغيرهم ومن المؤرخين مثل قيصر وسالوست وان كان يعاب عليهم انهم قلدوا زملائهم من الاغريق تقليداً حط من شهرتهم اه٠

الباب السابع والعشرون

في ارتقاء اوكتافيوس الى منصب الامبراطورية وذكر خلفائه من اليوليين [1]

(٣١ قبل الميلاد ٦٨ بعده)

﴿ فصل ﴾

في تأسيس الدولة الامبراطورية (٣٠ـ ١٢)

بعد وفاة انطوان واعادة مصر الى رومة ذهب اوكتافيوس الى آسيا لتسوية المسائل الشرقية وحل مشاكلها ثم قفل راجعا الى رومة ووزع على كل من العساكر بعد ان زف زفاف الانتصار الف سسترس وعلى كل من السكان اربعمئة سسترس٠ واقفل هيكل جانوس علامة ان الحروب انتهت

وبقي اوكتافيوس قنصلا مدة ست سنين ثم استمنح من مجلس الشيوخ لقب امبراطور او قائد عام لجميع الجيوش فأصبح

(١) نسبة الى يوليوس قيصر

القواد والعساكر من ذلك اليوم يقسمون يمين الطاعة والاعانة له . ثم عين قائده الامين اغريبا قنصلا معه وتوليا المراقبة على الاخلاق وكانا بذلك يبعدان عن المجلس كل عضو موجود فيه اومترشح له لايوافق على النظام الجديد وتولى اوكتافيوس امارة مجلس الشيوخ فكان هو يدير مداولاته ويبدي الرأي الاول فيه

وبعد مدة منحه المجلس البروقنصلية او منصب الحاكم على جميع الولايات فابى ذلك واكتفى بان يكون حاكما على الولايات ذات الفتن او المخشي عليها من اعداء مجاورين لها {٢٧} وابقى سائر الولايات تحت ادارة الشيوخ فكبر عمله هذا في عيونهم ومنحوه بعد ثلاث سنين السلطة النيابية ثم القنصلية مدة حياته كلها ومراقبة الاخلاق وعند وفاة ليبيدوس جعل فى منصب الكاهن الاكبر

وعلى هذا النمط وضع فى يده زمام جميع السلطات من نيابية وقضائية ومالية وادارية وغيرها وكان غير مسؤول وكان تارة يعين الموظفين بامره وطوراً يشير الى من يريد تعيينه فيوافق عليه الشعب فى مجتمعاته . وقد اقام الحرس لخفارته وكان مجلس الشيوخ والجنود والشعب واهل الولايات يقسمون يمين الطاعة والامانه له فى غرة شهر يناير من كل سنة

واستمر ملكه اربعاً واربعين سنة قضاها فى الحكم العادل

وحكمة التدبير والادارة ومما يخلق بالذكر انه زاد اختصاصات مجلس الشيوخ فجعله يفصل فى المشكلات السياسية والدعاوى القضائية الكبيرة

﴿ فصل ﴾

في النظامين العسكري والمالي

وجعل اوكتافيوس الجيش دائما وفرقه على التخوم فى المعسكرات المحصنة لصد غارات البرابرة وسن القوانين لتعيين مدة خدمة كل عسكرى عاملاً وغير عامل . وبث الاساطيل فى فريجوس وميزينا ورافينا لخفارة البحر المتوسط وفى الدانوب والبحر الاسود . وجعل القواد نوابا عنه فلم يزفوا زفاف النصر من ذلك الحين

وكما اصلح نظام العسكرية اصلح كذلك نظام الادارة والمالية . وكانت فى رومة خزينتان احداهما للامير وهي التي تأتيها ايرادات الولايات التي تولى أوكتافيوس حكومتها على يد عمال اخصاء له والثانيـة الخزينه العامة وهي التي تأتيهـا ايرادات الولايات التي يديرها عمال من قبل مجلس الشيوخ . ولكن كلتا الخزينتين كانتا تحت تصرف الامير . ولما وجد اوكتافيوس ان الايرادات لا تكفي لجميع النفقات مع ما استجد منها اوجد المكس وانشأ ضرائب جديدة

﴿ فصل ﴾

في حسن ادارة اوغسطس في رومة وفي الولايات

كان اغسطس يقضي جميع اوقاته مهتما بشؤون المملكة كبيرها وصغيرها وينفق من جيبه للتخفيف عن البلاد المنكوبة اولتجديد بناء التي تدمر منها بحوادث طبيعية كما فعل لاعادة تشييد ترال واللاذقية وبافوس ٠ وفى احدى السنين ادى من ماله ضريبة جميع ولاية اسيا ٠ وحظر فى زومة والولايات معاملة القسوة والعنف وعهد الى ثلاثة مهندسين ان يمسحوا اراضي المملكة ويصفوها فقسم الضرائب عليها بالانصاف وفتح الطرق وسير فيها البرد وسهل سبل التجارة والمواصلات

واقام فى رومة الملاعب والملاهي وزينها بما شيده من الابنية العظيمة واوجد فيها الشرطة للخفارة فى النهار والحراس الساهرين فى الليل وكان يعاشر كبار رجاله كميسين وهوراس وويرجيل واغريبا

فصل

في سياسته الخارجية وذكر انكسار فاروس (٩ الميلاد)

بعد موقعة اكتوم واقفال هيكل جانوس لم يحدث ما يخلق بالذكر في الشرق سوى ان رومة طلبت من البارتيين ارجاع رايات كراسوس او تحاربهم فلبوا مطيعين

واما في اوروبا فاريد توسيع السلطنة الى تخومها الطبيعية لتكون ايطاليا واغريقيا ومقدونيا في مأمن من الغارات فوجب ان يوضع مجرى الدانوب تحت سلطة رومة وابعاد القبائل الجرمانية عن ضفة نهر الرين اليمنى ليمتنع اقلاقهم للرومانيين على الضفة اليسرى

ولاتمام هذه المقاصد ارسل القائدان دروزوس وطيباريوس الى تلك الجهات فاوصلا تخوم رومة الى اعلى الدانوب {٩} وبعد وفاة دروزوس قضى اخوه طيباريوس فصل الشتاء في وسط جرمانيا وكان في بوهيميا في هذه الاثناء زعيم يدعى ماركو من ماربود قد اشتدت صولته حتى حول تلك البلاد الى مملكة له وجعل حاميتها سبعين الف راجل و٤٠٠٠ خيال . فتقدم طيباريوس لمحاربته ولكن طوائف البانونيين والدلماتيين ثاروا عليه فعاهد ماربود على الصلح ورجع فعاقب العصاة بعد حروب طويلة

وبعد ذلك علم في رومة ان القائد فاروس خدعه زعيم شيروسكي يدعى هرمن فجره الى مكمن ذبحه فيه مع ثلاث فرق رومانية ورد بهذا الانتصار تخوم الدولة الرومانية من اقصى جرمانيا الشمالية الى نهر الرين فاشتد الجزع عند الرومانيين ولكن من حسن طالعهم ان ماربود وقعت في نفسه غيرة من هذا البطل فتخلى عنه ولم ينهض لمساعدته فتمكن طيباريوس من تعزيز

الحصون الرومانية على الرين دفعا لهجمات ذلك العدو العاتي واما هرمن فاكتفى بانتصاره وانقاذه بلاده فلم يخرج من المقاومة الى المهاجمة . وتوفي اغسطس بعد هذا الفشل بخمس سنين { ١٤ } للميلاد وقد سمي عصره باسمه لتكاثر المتفردين من اهل الفنون والآداب في عهده فقد التقى ببابه تيت ليف وهوراس وويرجيل وكان قبلهم بزمان يسيرلوكريس وكاتول وسيسرون وسالوست وقيصر

وممن اشتهروا كثيراً في ذلك العهد الشعراء فاروس ولم يبق اثر من مآسيه «رواياته» وتيبول صاحب القصائد الشجية الرقيقة والمراثي المؤثرة وغاللوس وبروبرس واوفيد والكاتب المتفنن فارون وصاحب التاريخ العام تروغس بمبايے وصاحب موسوعات العلوم سلس وصاحب الجغرافية الكبيرة سترابون اليوناني الاصل

﴿ فصل ﴾

في ملك طيباريوس (١٤ — ٣٧)

هو ابن فولفيا ورجل كان متزوجا بها قبل أغسطس . تبناه أغسطس واشركه معه في منصب النيابة و بموته استخلفه على الملك . فلم تقم في وجهه معارضة سوى ان بعض الفرق الرومانية ثارت في بانونيا والرين فسكنها ثم ارسل متبناه وابن اخيه جرمانيكوس ليقودها الى ماوراء الرين فوصل بها الى غابة

توتبرج التى ذبح فاروس وجنوده فيها ولم يقف امامه الجرمانيون في موقف أثناء سيره . وفي الحرب الثانية قاوموه مقاومة اشد فدحرهم وقتل كثيراً منهم في موقعتين عظيمتين انتقم فيهما لفاروس . ثم رجع الى غاليا فوجد كتابين يستدعيه طيباريوس بهما لاعادة تعيينه قنصلا ولارساله في مهمة كبيرة الى آسيا

وكان طيباريوس يحكم باللين و يأبى المبالغة في الحفاوة به وتشييد الهيا كل له ويأنف من تملقات مجلس الشيوخ وغيره . ويرسل الحكام المهرة الى الولايات و يتحاشى زيادة الضرائب ويخفف النكبات العظيمة عن المصابين بها . ومن ذلك رفعه الخراج مدة خمس سنين عن اثنتى عشرة مدينة دمرتها الزلازل في آسيا

ولما ارسل جرمانيكوس الى الشرق اخضع له البارتيين بدون ان يشهر سيفاً عليهم وحول كابادوكيا وكوماجينا الى ولايتين رومانيتين ومنح ملك ارمينيا لاحد انصار السلطنة الرومانية ثم سافر الى مصر وفي اثناء رجوعه منها وقعت نفرة شديدة بينه وبين بيزون حاكم سوريا ثم توفي بعد ذلك بقليل فقيل لشدة سرور بيزون بموته انه هو الذي سقاه السم سنة{٢٠ للميلاد } واستقدم طيباريوس بيزون رغم انفه وحاكمه وقتله بدعوى انه شق عصا الطاعة من حيث لم يمتثل ما امره به

جرمانيكوس من تركه ولايته بل استعد لاقامة حرب اهلية
وانقضت السنون التسع الاولى من حكم طيباريوس بالسكينة
والراحة ثم قتل ابنه دروزوس فى دسيسة فانقلب وتغير . وكان
رجل يدعى سيجان قدعين في وظيفة رئيس للحرس الامبراطورى
وتقرب الى طيباريوس لانه أنقذه من خطر وقع فيه فطمع
الرجل في أكثر مما نال وكان هو قاتل دروزوس وكان
يشرئب عنقه الى سرير السلطنة . ولما رأى ان طيباريوس
كثرت وساوسه ومخاوفه واحزانه على أثر وفاة ولديه الاثنين
أخذ كل يوم يريه شكلا جديداً من أشكال الدسائس المدبرة
لقتله فأصبح ظالما قاسيا سفاكا للدماء حذراً من جميع الناس .
وفي سنة ٢٦ خرج من رومة واعتزل في أحد قصوره الجميلة
وكان سيجان الوسيط بينه وبين شعبه ولم يفتأ يوغر صدره حتى
حمله على حبس امرأة جرمانيكوس وولدين له آخرين ماتوا
جميعاً ولم ينج أصغر أولاده من شدته الا لحداثة سنه

ولما تمت لسيجان هذه التمهيدات طلب أن يتزوج بامرأة
دروزوس ليكون ذلك وسيلته فى الوصول الى الخلافة فأبى
طيباريوس فأخذ يدس عليه الدسائس ليقتله ولكنه شعر بالامر
وقبض على الرجل في مجاس الشيوخ فمزق الشعب جثته . ولم
يبق لقسوة الامبراطور حد بعد هذه المصائب وكان الذين أماتهم

عدداً كبيراً .

وقد حدثت في أواخر عهده ثورات في غاليا وأفريقيا وبارتا فأخمدها وملك على ارمينيا رجلا من صنائع رومة وتوفى {٣٧} فى الثامنة والسبعين من عمره

﴿ فصل ﴾

في ذكر كليكولا (٣٧ـ٤١)

وخلفه كليكولا بن جرمانيكوس فاستبشرت به رومة وكانت أول أيام حكمه زاهرة محيية للآمال ثم أصابه مرضَ أحدث اضطرابا في عقله فأخذ يحارب الآلهة والطبيعة ويخالف الشرائع والنواميس ومن غريب أمره انه أراد أن يبتني قنطرة على بحر فأهلك في تشييدها صفوة الشبان الشرفاء في رومة . وفي أقل من سنتين أنفق ثلاثمئة مليون من النقود التى أبقاها طيباريوس في الخزينة ثم اخذ ينهب الموسرين ويقتلهم ليحصل على المال . وبعد اربع سنين من توليه قتله نائب يدعى شيرياس في ٢٤ يناير من سنة ٤١

﴿ فصل ﴾

في ذكر كلود (٤١ ـ ٥٤)

وكان شيرياس من حزب الجمهورية فلما قتل الامبراطور توهم الناس ان الجمهورية اعيدت الى رومة ولكن العساكر ابوا

ذلك واتوا بكلود اخي جرمانيكوس واجاسوه على السرير وكان اديباً كتب تاريخ بلاد الاتروسك وقرطاجنة ولم يكن يصلح للحكم لضعف رأيه ولذلك كانت السلطة كلها لامرأته ميسالين الشهيرة بمعاصيها ولمعاتيقه بوليب ونارسيس وبالاس. ومع ذلك فقد عملت في عهده بعض الاعمال النافعة منها ميناء اوستيا وتجفيف بحيرة فوسين . وافتتح قواده موريتانيا ونصف بريطانيا وكسروا شوكة الجرمانيين وايدوا سلطة رومة على البسفور وحولوا التراس وليسيا واليهودية الى ولايات رومانية

وحدث ان كلود اكتشف عشر مؤامرات متتابعة لقتله فاخذ ينتقم انتقاما شديداً وقتل خمسة وثلاثين من الشيوخ و ٣٠٠ من الاعيان عدا الذين اماتتهم ميسالين . ولم تقف جراءة هذه المرأة وقحتها عند حد بل تزوجت في حياة زوجها ودون ان تكون طالقا منه برجل يدعى سيليوس من اعضاء مجلس الشيوخ فخاف المعاتيق منها واستصدروا امراً بقتلها{٤٨} وزوجوا الامبراطور باغريبينة ابنة اخيه وكان لها ابن يدعى نيرون ارادت ايصاله الى الملك دون بريتانيكوس بن كلود واستخدمت لمقاصدها رجلا يدعى بوروس عينته رئيساً للقضاء ورجلا آخر يدعى سيناك عينته استاذاً لنيرون وبعد حين سمت كلود فاماتته {٥٤}

{ فصل }

في ذكر نيرون (٥٤ ــ ٦٨)

وكان كلود عند ما وطئ العرش قد وزع على كل من الحرس والعساكر قدراً من المال يساوي اربعة آلاف فرنك فسر ذلك الجنود وجعلوه شبه قانون محتوم على كل ملك جديد وهـذا هو السبب في كثرة ما كانوا يثورون على ملوكهم بعـد ذلك حتى جعلوا السلطنة كالمتاع المعروض للمشترين بالمزايدة

اما نيرون فكان في الخمس السنين الاولى من ملكه عادلا حليما ممدوح السيرة • وعرض عليه يوماً امر قاض بقتل احد الناس للتوقيع عليه فقال ليتني كنت أميا وذلك لكراهته ان يوافق على مثل ذلك الامر

غير ان امه كانت تحاول ان تكون صاحبة السلطة الاولى في القصر فحال سيناك وبوروس دون مرادها لئلا يقع نيرون في مثل ما وقع فيه كلود قبله فتحزبت عليهما اغريبينه مع معتوق يدعى بالاس فاستصدرا امراً بابعاد هذا المعتوق فانذرت اغريبينه ابنها بانها ستحتال لاعادة بريتانيكوس الى سريره المغتصب فاماته مسموما { ٥٥ } ثم تزوج بامرأة رجل يدعى اوتون من صنائعه فوبخته امه على عمله هذا فامر بتغريقها فى احدى السفن فنجت سابحة فارسل اليها جنوداً قتلوها ثم امات امرأته اكتافيا • وزعم

انه من اهل الاداب والفنون فاخذ يسوق المركبات فى ساحات السباق وينشد من قصائده في الملاعب وهو يضرب على العود لتوقيع انشاده على اللحن • ويقال انه هو الذي احدث الحريق الهائل في رومة {٦٤} والارجح انه ليس المحدث له ولكنه اتخذه وسيلة للايقاع بالمسيحيين • ومن افظع ما فعله انه البس بعضهم جلود السباع لتمزقهم الكلاب وطلى جلود الآخرين بغراء الاشجار واوقدهم فى الليل كالمشاعل في حدائقه على مشهد من الشعب الذي كان مدعوا الى مأدبة في قصره

وكان نيرون يكثر من النفي والقتل ليحصل على الاموال فلما ضاقت صدور الكبراء واهل الفضيلة تآمروا عليه فاماتهم ومن جنونه انه ذهب الى أثينا سنة ٦٦ ليحضر العابها ويشترك فيها فاهدوه اكاليل كثيرة ليتملقوه

واتفق انه وقع في مرماح اولمبيا وصفق له مع ذلك استحسانا فسر سروراً عظيما ومنح القوم حرية بلادهم غير ان رومة تعبت من حكم ذلك «المغني القبيح» كما قال بعض كبرائها وكان في ذلك الوقت رجل يدعى فيندكس حاكما على غاليا فعرض على غلبا الامبراطورية فقبلها وقامت الثورة على قدم وساق حتى وصلت الى نفس رومة ففر نيرون ولجأ الى ارض احد معاتيقه واذ كاد يؤخذ فيها طعن نفسه بخنجر وهو يقول سيفقد العالم مني منشداً

فريداً . وبوفاته ختمت سلالة القياصرة الذين توارثوا الملك بالتبني {٦٨}

الباب الثامن والعشرون

في دولة الفلافيين (٦٩ــ٩٦)

فصل

في ذكر غلبا واوتون وفيتالوس (٦٨ــ ٦٩)

وكان الحرس قد وعدوا باموال طائلة اذا اوصلوا القائد غلبا الى العرش فلما استوى فيه ابى انجاز الوعد فذبحوه بايعاز من رجل مثقل بالديون يدعى اوتون كان صديق نيرون ولم يقربه غلبا اليه

ولما شاعت وفاة غلبا نادى جيش الرين في كولونيا بقائده فيتالوس امبراطورا وتقدموا الى بورياك بقرب كريمون فظفروا فيها ظفراً مبينا على اوتون فانتحر

وكان فيتالوس طماعا شرها فانهمك في لذاته وحلل كل محرم للعساكر . وعند ما رأى فسبازيان قائد الجيش الروماني في الشرق ان القوة توصل الى الملك حمل عساكره على مبايعته وعهد الى ابنه تيطوس انجاز حصار مدينة القدس واخضاع اليهود الثائرين وذهب فاحتل مصر وارسل منها قائده موسيان الى

ايطاليا فسبقه قائد آخر لفسبازيان يدعى انطونيوس بريموس ودحر جيش فيتالوس بقرب كريمون ودخل رومة . وقتل فيتالوس {في ٢٠ دسمبر سنة ٦٨}

فصل

في ذكر فسبازيانوس (٦٩ ــ ٧٩)

كان هذا الامبراطور ابن احد جباة الاموال وتوصل بجده وكفائته الى اسمى المراتب . وكان كارهاً للترف مستقيما محبا للشغل . ولما علم بمصر ان قواده انتصروا في ايطاليا وان فيتالوس مات جاء رومة وعزل غير اللائقين من مناصبهم واصلح احوال المالية التي تركها نيرون في اشد الارتباك واعاد تشييد الكابيتول وكانت النار قد هدمته وشيد هيكل السلام ومكتبة كبيرة

وعين اساتذة لتدريس الفصاحة برواتب تدفعها اليهم الحكومة وفي هذه الاثناء كان ابنه تيطوس قد انتصر على اليهود الذين قاوموه اشد المقاومة فهدم القدس واجرى سكة الحراثة على ارضها ليمحو اثرها {٦٥ — ٧٠} وكان قائده سيرياليس قد فاز من جهة أخرى على الزعيم الباتافي سيبيليس الذي ثار لتحرير وطنه ودعا الغاليين للثورة معه . وكان انكساره بسبب انقسام الغاليين وعدم اتفاقهم على رأي غير انه قاوم الرومانيين وهم محاصرون له في جزيرته ولم يسلم الا على شرط ان تعتبر باتافيا

حليفة لرومة لا تابعة لها . غير انه قبل بان تقدم بلاده الجنود لرومة عند مسيس الحاجة . وبعد ان حكم فسبازيانوس عشر سنين اصابه مرض عضال وقبيل ان تدركه منيته وقف بين المحدقين به وقال ان الامبراطور لا ينبغي ان يموت الا واقفا وقضى نحبه { ٢٣ جونيو ٧٩ }

﴿ فصل ﴾

في ذكر تيطوس (٧٩ — ٨١)

وخلفه ابنه تيطوس الذي اشتهر في حروبه بجرمانيا وبريطانيا واليهودية . وكان يخشى ان يكون سكيراً ظالماً فأخلف الظنون فيه واحسن وعدل وعامل الناس بالحسنى فلقبوه بسعادة الجنس البشري وهو الذي كان يقول حين يمضي يوم عليه لا يعمل فيه عملا حسنا قد اضعت نهاري

غير ان مصائب كبيرة وقعت على السلطنة في عهده القصير فقد شبت النار في رومة فاحرقت قسما كبيراً منها مدة ثلاثة ايام . وتفشى الطاعون في ايطاليا فذهب بخلق كثير وفي غرة نوفمبر من سنة ٧٩ انفجر بركان الفيزوف فدفن تحت رماده وجماره مدائن هركالانوم وبومبايه وستابيس ولم يملك تيطوس الا سبعة وعشرين شهراً { ٨١ }

﴿ فصل ﴾

في ذكر دوميسيان (٨١ — ٩٦)

وفي ساعة وفاته نودي باخيه دوميسيان خلفاً له فعدل في اول حكمه وشدد المراقبة على حكام الولايات ولكنه لم يلبث ان استولى عليه الخوف من الدسائس وخصوصاً بعد ثورة عامله على جرمانيا العليا فقتل ابن عمه سابينوس وابن عمه الآخر فلابيوس كايمانس وابنة اخيه دوميسليا وكثيرين من الشيوخ والشرفاء ثم قتله رجال بلاطه في ١٨ ستمبر سنة ٩٩

وفي عهده تم افتتاح القسم الاعظم من بريطانيا على يد صهره اغريكولا

الباب التاسع والعشرون

في دولة الانطونيين (٩٦ ـ ١٩٢)

﴿ فصل ﴾

في ذكر نرفا (٩٦ ـ ٩٨)

ولما انقرضت السلالة الفلافية انتخب مجلس الشيوخ رجلاً طاعنا في السن يدعى نرفا وبه ابتدأ عهد الانطونيين الذي لقب «بافضل زمان للانسانية» ولم يأت نرفا عملا يذكر لشيخوخته ولكنه تبنى رجلا اسبانيا يدعى تراجان كان افضل قائد في المملكة

﴿ فصل ﴾

في ذكر تراجان ٩٨ ـ ١١٧

وعند وفاة نرفا خلفه تراجان وكان فى كولونيا فبقي فيها سنة آلى ان اتم تأمين التخوم واعادة النظام للجيش ثم دخل رومة مع امرأته ماشيا وطرد من البلاط الوشاة وخفف الضرائب وباع القصور التي اخذها سلفاؤه سلبا من الاغنياء وعمل فى رومه الاعمال النافعة لها او التي تزيد حليتها كتشييده عمود تراجان واعاد لمجلس الشيوخ اكثر سلطته فكان يتناقش فى الامور المهمة واختيار اللائقين للمناصب واعاد انتخابات الشعب ايضا وكان يحضرها كسائر المرشحين الا ان ارادته كانت فوقها . وفى جملة مآثره اتمام الطريق التي كانت تصل من البحر الاسود الى بلاد غاليا واحتفار مينائي انكونه وسيفيتا فيكيا على نفقته الخاصة وتشييد اعظم مكتبة فى رومة وارسال الطوارئ الرومانية الى مواضع مختلفة تارة لتكون مراكز عسكرية وطوراً لتكون مراكز تجارية ولا يؤاخذ هذا الامبراطور الا على اضطهاده للمسيحيين فهو لم يأذن بالبحث عنهم ولكنه كان يأمر بقتل الذين يعرفون منهم . وهو نفسه حكم بالاعدام على اغناطيوس اسقف انطاكية

وفى سنة ١٠١ سير تراجان حملة على الداسيين قادها بنفسه فاجتاز الدانوب وتغلب عليهم فى ثلاث معارك واخذ عاصمتهم وعقد معهم صلحا{١٠٣} وفى سنة ١٠٤ ثاروا ثانية فقتل زعيمهم دسيبال ودحرهم وحول بلادهم الى ولاية ووطن فيها الطوارئ

واوجد اسباب العمران فنمت وازهرت ولا يزال الى اليوم على شواطئ الدانوب شعب برمته يتكلم بلغة هى أقرب شئ الى لغة الرومانيين فى ذلك الزمان

وحارب تراجان أيضاً بعض امم الشرق فحول ارمينيا الى ولاية وادخل ملكى كولشيدا وايبيريا فى طاعته وعين اميرا للالبانيين من قواده يدعى كورن واخضع جزأ من بلاد العرب وتقدم الى مابين النهرين فاستولى على كتازيفون وسلوقه وسوسه. ومنها هبط الى خليج العجم وقال لوكنت شابا لفتحت الهند غير ان هذه البلاد كلها لم تلبث ان ثارت عليه بعد رجوعه كما ثار اليهود ولم يستطع ان يعود اليها لان منيته ادركته فى سلينونت فى سيليسيا (١١ اغسطس سنة ١١٧)

﴿ فصل ﴾

في ذكر هادريان (١١٧ـ١٣٨)

وخلفه متبناه هادريان فعدل عن متابعة فتوحاته الشرقية التى لافائدة لها وذهب الى بريطانيا لصد غارات اهل الجبال فيها واقام فيها السور العظيم الباقية آثاره العظيمة الى الآن من مصب نهر التاين الى خليج سولواى

ثم حارب اليهود الذين ثاروا عليه دفاعا عن دينهم تحت قيادة برقوشباس الذى زعم انه المسيح الموعود فقتل منهم ٦٠٠

الف وباع من بقي وتم من ذلك اليوم تفرق اليهود

اما ادارة هادريان الداخلية فكانت حسنة . فانه تنازل للولايات عن متأخرات الاموال من ست عشرة سنة ومحا ماكان باقيا من اشكال الدستور الجمهوري وقسم مناصب المملكة الى ثلاثة اقسام للحكومة وللبلاط وللجيش واسس اربع وزارات لانجاز الاعمال اليومية وجعل فوقها وزارة سامية مؤلفة من مديرى الحرس الذين منحهم السلطتين المدنية والعسكرية.وامر بجمع القوانين التي سنها سلفاؤه.ونشرها وانفذها سنة ١٣١ وسن للبلاط والجيش نظامات شديدة مفيدة ومن اصلاحاته المتعلقة بالجندية اجراء التمرينات وتعيين السن الذي يجوز ان يرقى العسكري فيه

وزار هادريانوس جميع ولاياته وكان يدخل المدائن ماشيا بلا طنطنة ولا احتفال وابقى في كثير منها ابنية شامخة وآثارا فاخرة

على ان حسنات هذا الامير تنسى فساد اخلاقه وما ظهر من قسوته فى بعض الاحوال وخصوصاً فى آخر عمره وكانت وفاته فى بايس فى ١٢ لوليو سنة ١٣٨

﴿ فصل ﴾

في ذكر انطونين (١٣٨ــ١٦١)

ولد انطونين فى مدينة نيم وتبناه هادريان على شرط ان

يتبنى هو مارك اوريل ولوسيوس فيروس .

تولى الملك مدة ثلاث وعشرين سنة فى سلام تام ودعاه الرومانيون ابا الجنس البشرى وقد احسن ادارة المالية وعمل اعمالا نافعة منها التخفيف عن المدن التي اصيبت بنكبات كرومة وانطاكية وناربونا ورودس . وعقدت مؤامرتان عليه فقتل زعماءهما فقط ولم يضطهد المسيحيين ولم يحارب حربا تذكر

﴿فصل﴾

في ذكر مارك أوريل (١٦١ــ١٨٠)

لقب هذا الامبراطور بالفيلسوف وكان عادلا حكيما. شطر لقب اوغسطس بينه وبين لوسيوس فيروس الذى كان صهره واخاه بالتبنى وارسله الى الشرق لتسكينه فاقام فى انطاكية ينهمك فى الملذات وعهد القيادة الى افيدوس كاسيوس ففتح كتازيفون وسلوقه .

وحدث فى تلك الاثناء ان الطاعون تفشى فى رومه والزلازل اقلقت جميع المملكة واشقتها والشعوب الجرمانية المقيمة على شواطئ الدانوب ثارت يداً واحدة فلم يخف مارك اوريل من مفاجاة تلك الاخطار وقاتل الماركومانيين قتالا شديداً وكان فى اثناء الحرب يكتب حكمه العجيبة التى جمعت فى اثنى عشر كتاباً

ثم ثارت عليه شعوب اخرى جرمانية كالروكسولانيين والفندالسيين وغيرهم وتقدموا الى جوار اكيله فزحف عليهم الامبراطوران فارتدوا على الاعقاب بدون قتال وتوفى فيروس فى رجوعه من هذه الحملة {دسمبر ١٦٩}٠ ولم يلبث الجرمانيون ان عادوا الى جوار اكيله فباع مارك اوربل كل رياش ومتاع نفيس فى القصر وجند الارقاء والمبارزين والبرابرة {١٧٢} ونكل بالثائرين وعقد الصلح مع تلك الاقوام

ثم ذهب من الدانوب الى سوريا مسرعاً {١٧٥} لقمع ثورة قتل فيها الجنود قائدهم كاسيوس فثار الماركومانيون والباسترانيون والقوطيون مرة أخرى {١٧٨} فهرع لملاقاتهم مع ابنه كومود ولكن اجله ادركه قبل ان ينجز هذه الحرب وكانت وفاته فى ٧ مارس من سنة ١٨٠ فى فندوبونه {ويانه}

فصل

في ذكر كومود ١٨٠ ــ ١٩٢

عند ما خلف اباه كان فى التاسعة عشرة من العمر فعقد صلحاً مع الجرمانيين واخذ ٢٠٠٠٠ منهم لخدمة المملكة

ورجع الى رومه فنزل اكثر من سبع مئة مرة فى ميدان المبارزة ومسابقة المركبات . وفى سنة ١٨٦ ذبح مدير الحرس فعين مكانه معتوقا يدعى كلياندر كان يرتشى ويظلم العباد مدة

ثلاث سنين ثم قتله الشعب في ثورة قام بها لشدة ما تألم من المجاعة والطاعون. فاصدر كومود امره بقتل كثيرين من اقاربه والشيوخ والمتشرعين فتآمرت عليه قرينته مارسيا واحد حجابه وقائد حرسه وارسلوا اليه رجلا ذا شدة فخنقه(دسمبر سنة ١٩٢)

الباب الثلاثون

في الفوضى العسكرية (١٩٢ ــ ٢٨٥)

﴿ فصل ﴾

في ذكر برتيناكس وديدوس جوليانوس (١٩٢ ــ ١٩٣)

ونودي بمحافظ المدينة برتيناكس امبراطورا فاراد اعادة الامن والنظام فذبح في قصره(٢٨ مارس)وعند ذلك جعلت العساكر تخت القياصرة بالمزايدة فبيع لاحد مشتريين وهو القنصل السابق ديدوس جوليانوس بستة آلاف ومئتين وخمسين درهماً رومانياً يعطيها لكل من الجنود ولكنه وعد باكثر مما كان يستطيع وكاد يثور العساكر عليه لو لم يشغلهم ما علموه من ان الفرق الرومانية في بريطانيا بايعت زعيمها البينوس وفرق سوريا انتخبت بسينوس نيجر وفرق ايليريا انتخبت سبتيم سيفيروس الافريقي

واذ كان هذا الاقرب الى رومه زحف عليها وعند دنوه منها اعترف به مجلس الشيوخ واسقط ديدوس وقتله وعاقب

قتلة برتيناكس

﴿ فصل ﴾

في ذكر سبتيم سفيروس (١٩٣ ــ ٢١١)

الغى الحرس البرتوري المؤلف من الشرفاء واستبدله بحرس آخر من العامة اكثر منه عدداً وانتصر على نيجر في آسيا الصغرى فقتل في فراره (١٩٤) ثم على البينوس بقرب ليون (١٩٧) وعند رجوعه الى رومه اهلك اربعين اسرة شريفة وامات غيرها بعد ذلك واضطهد المسيحيين ولكنه انفق بقصد ودبر المال بحكمة وزاد امتيازات العساكر الا انه اشتد عليهم رغبة في النظام والطاعة وحارب مقاوميه في بريطانيا فانتصر غير ان الثائرين كانوا يناوشونه شراذم وبهذه الطريقة قتلوا نحو خمسين الفاً من جنوده فابتنى سوراً ضخماً لصد غاراتهم ثم مرض وزاد اشتداد علته ما علمه من ان ابنه باسيان الملقب بكاراكلا كان قد دبر مكيدة لقتله وتوفي وهو يقول «كنت كل شيء فوجدت الكل لا شيء» وآخر كلمة خرجت من فمه كانت قوله لنشتغل. ﴿٢١١﴾ وترك سبتيم ولدين كاراكلا وجيتا

﴿ فصل ﴾

في ذكر كاراكلا (٢١١)

وكان هذان الاميران كثيراً ما يختصمان فلما تولى كاراكلا

ودخل رومة طعن اخاه بخنجر فاماته وقتل عشرين الفاً من انصاره . واشتهر هذا الامبراطور بشدته وقسوته وكان حكمه شؤماً فى الولايات . ومن عجائب ظلمه انها ظهرت قصائد طعن عليه في الاسكندرية فامر بذبح اهلها وهم عزل بلا اسلحة . الا ان رئيس مئة من الضباط قتله انتقاماً منه لاهانة {٢١٧} فاراح الدنيا

﴿ فصل ﴾

في ذكر ماكرين (٢١٧)

فبايع الجيش ماكرين رئيس الحرس . فحارب البارتيين وتغلب عليهم في موقعة عظيمة فيما بين النهرين واحب ان يضبط العساكر فمقتوه وذبحوه واقاموا مكانه باسيانوس الكاهن الاكبر لاله الجبل احد المعبودات السورية

﴿ فصل ﴾

في ذكر اله الجبل (٢١٨)

هذا الشاب الجميل المنظر كان انثا الى درجة يخجل معها نيرون وقد فرش طرقه في قصره بالتبر وتراب الفضة وكان يستحم في ماء الورد واقام لنفسه مجلساً من النساء فلم يلبث ان قتله العساكر فى ١١ مارس من سنة ٢٢٢ وانتخبوا ابن عمه اسكندر وكان في الرابعة عشرة فتولت امه وجدته ادارة

الشؤون عنه

﴿ فصل ﴾

في ذكر اسكندر سفيروس (٢٢٢)

فربتاه على الفضائل واستوزرتا له المتشرعين بولس واوليانوس فاقاما لارشاده مجلساً فيه اثنا عشر عضواً من الاعيان. وقضت المملكة في عهده بضع سنين في الامن والراحة وكان مكتوباً على احد جوانب قصره « افعل بغيرك ما تريد ان يفعله غيرك بك »

وحدث في ذلك الوقت ان رجلا ساسانيا يدعى ارتكزرسيس دمر مملكة البارتيين واقام على اثرها مملكة فارسية وزعم انه سليل ملوك الفرس الاقدمين وطلب ان ترد جميع الولايات القديمة الى مملكته فحاربه اسكندر ولكنه لم يوفق اذ جاءه نبأ غارة من الجرمانيين على غاليا وايليريا فهرع لصدها فقتله جنوده وقد ثاروا عليه (٢٣٥)

﴿ فصل ﴾

في ذكر ماكسيمانوس (٢٣٥) وستة أمبراطرة تولوا في تسع سنين

هو قوطي الاصل رعي الانعام في صباه وكان طوله ٧ اقدام ومأكله ٣٠ ليبره من اللحم ومشربه زجاجة كبيرة من الخمر بايعه العساكر وهو في بلاد التراس فعامل السلطنة معاملة بلاد فتحها

ولم يجسر على الدخول قط الى رومة وكان ينهب ويقتل بلا حساب
ولا قانون فمل الجند منه واهلكوه حين كان يحاصر اكيلة ونودي
بغورديان الاول وابنه غورديان الثانى امبراطورين في افريقيا
فاعترف بهما مجلس الشيوخ ولما اسقطا عين المجلس بوبيان وباليان
وبايع الشعب احد ابناء غورديان فملك تحت اسم غورديان الثالث
ولم يلبث ان ذبح مناظريه اللذين بايعهما مجلس الشيوخ فانفرد
بالحكم ولم يكن له من العمر الا ١٣ سنة وكان استاذه ميزيتاي
يحكم بالنيابة عنه غير انه توفاه الله وخلفه العربى فيليب (كذا) في
منصبه فقتل الامبراطور وجلس على عرشه { فبرايو ٢٤٤ }

فصل

في ذكر فيليب (٢٤٤) وداسيوس (٢٤٩) . والثلاثين (٢٥١ ــ ٢٦٨)

وبعد مضي خمس سنين استطال العساكر مدته فقامت
الثورات عليه من كل جانب . وفي الوقت نفسه تجاوز القوط
الدانوب فارسل داسيوس لمحاربتهم فنادى به الجنود فوقعت
بين الامبراطورين معركة بقرب فيرونه قتل فيها فيليب
{ سبتمبر سنة ٢٤٩ } ولم يعش داسيوس بعد ذلك الا سنتين
ومات في موقف لقي به القوط فى موزيا { ٢٥١ }

فانتخب الجيش واحداً من زعمائه يدعى غاللوس فصالح
البرابرة على ان يؤدي لهم الجزية ولكن قائداً آخر يدعى

اميليانوس انتصر عليهم ونودي به امبراطوراً ثم ان الرجلين ذبحهما العساكر {٢٥٣}

فبويع فاليريانوس فعين ابنه غاليان قيصراً تحت سلطته وحاول ان يستوقف المملكة على شفا الدمار . وفي سنة ٢٥٨ استرجع من الفرس انطاكية ودخل ما بين النهرين ولكنه غلب بقرب قادس واسر {٢٦٠} وعامله الملك سابور بالاهانة والقسوة الى ان مات . الا ان القائدين باليستا واودنات العربى {كذا} ردا سابور على اعقابه الى ما وراء الفرات ثم اكره اودنات غاليان على ان يبايعه ويقر به ففعل {٢٦٤} فلما انتسق له الملك شاد تدمر فنمت نموا عجيباً بصلاتها التجارية الكثيرة . وآثارها الفخيمة الى اليوم تدل على عظمتها السابقة غير ان ابن اخيه قتله {٢٦٧} ليخلفه فانتقمت له امراته وقتلت قاتله وخلفته هي

اما غاليان فحكم ثماني سنين منذ وقوع ابيه في الاسر لم يسترح فيها دقيقة من الجهاد في دفع المغتصبين والبرابرة والمصائب التي انقضت على السلطنة . وهذا الزمان يعرف بزمان المغتصبين الثلاثين وهم لم يكونوا على الحقيقة الا عشرين قتلوا جميعاً في آخر امرهم . وفي هذه المدة استقلت غاليا على اثر استقلال تدمر وبقيت كذلك خمس سنين تولاها فيها خمسة امبراطرة غاليين كان آخرهم تتريكوس الذى استقال بين يدي اوريليان

وفوق هذه الفتن وقعت بلية البرابرة فان القوط والهيروليين سطوا على اغريقيا واسيا الصغرى واستباحوهما سلبا ونهبا الا ان الاثينيين دحروهم تحت قيادة المؤرخ دكسيب

﴿ فصل ﴾

في ذكر كلود (٢٦٨) واورليان (٢٧٠) وتاسيت (٢٧٥) وبروبوس (٢٧٥) وكاروس (٢٨٢)

كان غاليان هو الامبراطور الشرعي بين جميع هؤلاء المغتصبين ولكنه قتل في محاصرته لاحدهم بميلانو وعند وفاته استخلف رجلا من دلماسيا يدعى كلود كان احسن قواد رومة فهرع الى مقدونيا وظهر فيها على ثلاثمئة الف مقاتل قوطي بقرب نايسوس ولكن الطاعون ذهب بحياته فخلفه اوريليان ﴿٢٧٠﴾. وكان شعب الآلامانيين قد نفذوا من ريتيا الى مدينة بيزنطة فسحقوا جيشاً رومانياً ووصلوا الى بحر الادرياتيك فخافت رومة غير ان الامبراطور فاز في ضفاف الميتور على الاعداء وانقذ ايطاليا منهم وابتنى سوراً عظيما حول رومة . ولكنه لم يوفق بعد ذلك في محاربته للقوط فترك لهم مقاطعة داسيا ونقل اهلها الى موزيا فوطنهم فيها واصبح الدانوب كما كان قبلا من تخوم السلطنة الرومانية . ولما فرغ اوريليان من توطيد الامن في هذه الجهة سار الى الشرق لمحاربة ملكة تدمر زنوبيا ﴿٢٧٣﴾ وكانت

امرأة باسلة تطمع في اقامة مملكة شرقية كبيرة فاسترد منها سوريا ومصر وقسما من اسيا الصغرى وتغلب عليها بقرب انطاكية ثم حاصرها في تدمر نفسها ففرت منها على الهجن قاصدة الفرات ولكنها ادركت في طريقها ودفعت الى اوريليان فاستبقاها ليصطحبها الى رومة. وكان تتريكوس حاكم غاليا واسبانيا وبريطانيا قد خان جيشه واستسلم لاوريليان فعينه عاملا له على لوكانيا كما منح زنوبيا قصرا وحديقة واسعة في ارض تيبور لتعيش فيهما

واخذ بعد ذلك يستعد لارسال حملة تحارب الفرس وكان قصده ان يشغل العساكر غير ان كاتم سره قتله خوفا منه لانه كان متهما بالرشوة { يناير ٢٧٥ } فانتخب مجلس الشيوخ رجلا طاعنا في السن يدعى تاسيت فتوفي بعد ستة اشهر فنادى العساكر بالقائد بروبوس امبراطورا فسار الى غاليا لمحاربة الآلاميين الذين دخلوها فاخضع ستين من مدائنهم واجتاز الرين لاحقاً بهم الى ما وراء النيكر . ودفع اليه الجرمانيون ستة عشر الفاً من نخبة شبانهم الباسلين ففرقهم بين جيوشه . ثم دحر السارماتيين فى ايليريا والجيتيين في اسيا الصغرى ولصوص ايزوريا وبمفيليا والبلاميين في مصر وخاف ملك الفرس نرسيس من هذه الانتصارات فطلب الصلح. وعند رجوع بروبوس وطن مئة

الف باستراني في التراس كما وطن قبل ذلك كثيرين من الجرمانيين في بريطانيا ومن طوائف الفرنك على سواحل البحر الاسود. وبينما هو يستعد للزحف على بلاد فارس ثار عليه عساكره لشدة ما اتعبهم بالاعمال الشاقة من مثل تجفيق المستنقعات وغرس الكروم فقتلوه ولكنهم في الغد ادركوا عظم جنايتهم فبكوه{٢٨٢} وانتخبوا بعده مدير الحرس كاروس فاعطى لقب القيصر لكل من ابنيه كارين ونومرين وجعل الاول حاكماً على الغرب واصطحب الاخير الى الشرق بعد انتصاره على القوط والسارماتيين .وفتح كاروس سلوقه وكتازيفون ثم وقعت عليه صاعقه فتوفي بها { ٢٥ دسمبر سنة ٢٨٣ } . وخلفه ابنه فعاهد الفرس على الصلح وبينما كان راجعاً نحو البسفور قتله صهره اريوس آبر { ٢٨٤ } ولم تمض خمسة ايام حتى تعرض قائد يدعى ديوكليسيان الدلماني للاخذ بثار الامبراطور الذي قتل فذبح قاتله على مشهد من الجيش تحت اسوار خلكدونيا ونودي به امبراطورا . فحاول كارين اسقاطه ولكنه ادركته منيته في موقعة بقرب مارغوس في موزيا { ٢٨٥ }



الباب الواحد والعشرون

في تولي ديوكليسيان وقسطنطين وانتشار الديانة المسيحية

﴿ فصل ﴾

في ذكر ديوكليسيان (٢٨٥) وتقسيم السلطنة الى أربعة أقسام

ورأى ديوكليسيان ان عدد الذين لبسوا الارجوان الى يومه بلغ الخمسة والاربعين عدا المغتصبين الثلاثين وان احد عشر امبراطورا من هؤلاء ماتوا حتف أنفهم ففكر في اصلاح الاحوال في الداخل وتوطيد الامن على التخوم

وفي هذه الاثناء كان الغاليون قد أثارهم استبداد حكامهم والالامانيون قد تجاوزوا الدانوب وأغاروا على ريثيا وجماعة من الساكسونيين قد شنوا الغارة على شواطئ بريطانيا وغاليا وجماعة من الفرنك قد تقدموا الى صقليا واخذوا سيرقوصة وكاروزياس الذي عهد اليه الامبراطور تطهير البحر من هؤلاء القرصان قد حمل جنوده على مبايعته في بريطانيا فقلق ديوكليسيانوس من تفاقم هذه الخطوب ومنح احد زملائه لقب أغسطس ﴿٢٨٦﴾ وكان اسمه ماكسيميان ثم اتفقا على ان يعينا قيصرين يلحقانهما بهما فوقع اختيارهما على غاليريوس وكونستانس كلور (٢٩٣)

واقتسم الاربعة المملكة فوقع لديوكليسيان الشرق والتراس

ولغاليريوس ولايات الدانوب ولماكسيميان ايطاليا وافريقيا واسبانيا وموريتانيا ولكونستانس غاليا وبريطانيا . وكان كل قرار يصدره احد هؤلاء الامراء نافذا في دائرة حكم زملائه . وبقى ديوكليسيان الرئيس الاعلى للمملكة واستطاع بدهائه ومسالمته ان يحفظ التوازن بين المتناظرين

وحدث فى الشرق ان الفرس خلعوا ملك ارمينيا وكان من صنائع رومة وتهددوا سوريا فزحف عليهم غاليريوس ودحرهم والجأ ملكهم نارسيس الى التنازل له عن بلاد مابين النهرين وخمس ولايات مما وراء دجلة والسيادة على ارمينيا وايبيريا {٢٩٧} وكان هذا اعظم فتح من عهد الامبراطورية

اما كونستانس فطرد الفرنك من غاليا وبتافيا ونزل فى بريطانيا وتغلب { ٢٩٦ } على المغتصب الكتوس الذي خلف كاروزيوس

فلما استتب الامن حرك ديوكليسيان بعض البرابرة على بعض وسلحهم ليضعفوا بالحروب الاهلية وجدد الحصون والمعاقل ورممها وعند مارجع كان زفاف انتصاره آخر زفاف شهدته رومة

وفي غرة مايو من سنة ٣٠٥ اعتزل ديوكليسيان منصبه في نيقوميديا وسكن قصرا جميلا على شواطئ دلماسيا وتوفى سنة ٣١٣

{فصل}

في قيام أمبراطرة آخرين وفي استئناف الحروب الاهلية (٣٠٥ـ٣٢٣)

فلقب غاليريوس وكونستانس امبراطورين وعينا ماكسيمينوس قيصرا يتولى حكومة سوريا ومصر وسفيروس قيصرا يتولى حكومة ايطاليا وافريقيا وعندماتوفى كونستانس خلفه سفيروس وجعل ابنه قسطنطين قيصرا مكانه

وكانت رومه قد غضبت من هجر ملوكها لها فاجلست على العرش ماكسانس بن ماكسيميان {٣٠٦} فاتخذ اباه شريكا له واصبحت المملكة ذات ستة رؤوس. وكان اول من سقط منهم سفيروس الذى غلبه ماكسيميان. وتلاه هذا بالسقوط لان ابنه طرده وصهره قسطنطين قتله {٣١٠} وفي السنة التالية توفى غاليريوس {مايو ٣١١} ثم ظهر قسطنطين على ماكسانس بقرب جسر ميلفيوس على التبر فقتله وكان قسطنطين قد استعان بالمسيحيين فى هذه المعركة ووضع الصليب على راياته {٣١٢} وفي الوقت نفسه تغلب ليسينيوس على ماكسيمان فشرب السم {٣١٣}. وانفرد اثنان فى تولي السلطنة قسطنطين فى الغرب وليسينيوس فى الشرق. فلم يلبثا ان تحاربا فانتصر قسطنطين {٣١٤} وعقد الصلح مع رصيفه على شروط ثقيلة وبعد ذلك قضى قسطنطين تسع سنين فى اصلاح شؤون مملكته وفاز على

القوطيين فوزاً جميلا رجع منه باربعين الف مقاتل قوطي استخدمهم في الجيش تحت اسم المحالفين ثم شهر الحرب على ليسينيوس بدعوى حماية النصارى الذين كان هذا يضطهدهم فظهر عليه في معركتين واسره ونزع الارجوان عنه وبعدحين اماته ﴿٣٢٣﴾

﴿ فصل ﴾

في النصرانية

ولد يسوع قبل تاريخ الميلاد بخمس سنين في قرية بيت لحم بين اليهود الذين كانوا رازحين تحت اعباء الشقاء وينتظرون قدوم المسيح الموعود لينقذهم

وفي السنة الخامسة عشرة من عهد طيباريوس اخذ يطوف باليهودية ويعلم الناس محبة الله ومحبة الانسان لاخيه ومبادئ الطهارة والعدل وثواب الصالحين وعقاب الاشرار . غير ان الفريسيين توصلوا الى صلبه . وانتشر رسله في الولايات يدعون الناس الى دينه فكانوا يتحولون اليه من يهود ووثنيين

وفي عهد نيرون كان المسيحيون قد تكاثروا في رومه فاضطهدهم وكذلك اضطهد بعضهم دوميسيان وتراجان من اجل اجتماعاتهم السريه . وكان اشد من اضطهدهم سفيروس وداسيوس وغاليريوس .ولم يمنع ذلك تكاثرهم الى حد ان قسطنطين استعان

بهم ليظفر على ماكسانس

وبعد هذا الانتصار اصدر قسطنطين مرسوماً شهيراً من ميلانو بالتساهل للمسيحيين فى امورهم الدينية واستمر يراعي جانب الوثنيين الى ان قتل ليسينيوس فاعطى الكنيسة فى سنة ٣٢١ حق قبول الهبات وما يوصى به لها فى التركات ومنحها املاكا كثيرة وجعل لكهنتها امتيازات الكهنة الوثنيين وخص النصارى باحساناته ليستميل الناس الى دينهم واقفل كثيراً من المعابد الوثنية دون ان يؤذى باحد من اهل المعتقد القديم وعقد مجمع نيقا الذى وضع قانون الايمان فى سنة ٣٢٥

﴿ فصل ﴾

في تغيير صورة الحكومة الادارية في السلطنة

بعد ان فرغ قسطنطين من عمل الانقلاب الديني الذي اتمه نظر الى تغيير صورة الحكومة الادارية في السلطنة. فشاد القسطنطينية {٣٣٠} مكان بيزنطة القديمة ليجعلها عاصمته معاقبة لرومة على التزامها الوثنية. ونقل اليها احاسن الاشياء والمصنوعات في البلاد الاخرى وشيد فيها قصوراً ومجتمعاً للعلماء على شكل الكابيتول ومجلساً للشيوخ وطرقا وجسورا وقناطر وابوابا كبيرة وكنائس وقسمها الى اربعة عشر حياً كرومة وكان يوزع فيها القمح على الفقراء ثم قسم السلطنة الى اربع ولايات الشرق وغاليا وايطاليا

وايليريا وكان كل وال فيها كالملك مع جيشه من المستخدمين ولكن لم تكن له سلطة عسكرية وقسم الولايات الى ١٦٠ عمالة ليمتنع طموح انظار العمال الى العرش واوجد مناصب رؤساء للخيالة وللرجالة وجعل تحت امرهم مناصب الكونتية الجهاديين في العمالات. وانشأ في قصره منصباً لحاجب اكبر وآخر لرئيس للايرادات بمعنى انه يتولى ادارة القصر وادارة نظارة الداخلية وآخر لمستشار في البلاط واخر لمدير للخيرات المقدسة او ناظر للمالية واخر لمدير للاملاك الخاصة واخر لمدير للخيالة الخاصة واخر لمدير للرجالة الخاصة وهذان كانا رئيسين للحرس الامبراطوري ايضاً ثم ما لا يعد من الوظائف الثانوية الاخرى التي كان يحتجب فوقها وجه الامبراطور . وتناهى قسطنطين في الترف واتخاذ مظاهر الزينة والعظمة

واوجد طبقات مختلفة من الشرف والالقاب والرتب وزاد الضرائب ليقوم بهذه النفقات الطائلة على حين كانت اغنى الولايات قد افتقرت فوقع بين الناس والجباة من الجذب والدفع والدسائس والحيل ما قتل كل شعور وطني في القلوب . وكان الجباة طبقة مخصوصة من الناس تتوارث هذه الوظيفة وتضمن التحصيلات باموالها الخصوصية ولا تستطيع الخروج منها الا بترقية يأذن بها الامبراطور

اما العساكر فقد اهمل امرهم وكان معظمهم من البرابرة وخصوصاً الجرمانيين وجعل عدد كل فرقة منهم ١٥٠٠ جندي عوضاً عن ستة آلاف لكي لا يطمع زعماؤها فى الوصول الى العرش فيما بعد

وهذه الحالة الجديدة كانت حالة ترف وذل انحطت معها الاخلاق وسقطت الآداب ولم يقم فى خلالها شاعر او كاتب او صانع متفنن سوى جماعة من علماء الكنيسة

فصل

في آخر سني قسطنطين (٣٢٣ـ٣٣٧)

على ان ثلاثة اعمال عظيمة شغلت حياة قسطنطين . وهي تأييد النصرانية وجعلها الديانة السائدة فى السلطنة ثم تشييد القسطنطينية ثم تغيير النظام الاداري

ولقد ركب هذا الامبراطور فظائع منكرة فى قصره منها قتله لابنه كريسبوس وللامبراطورة فوستا ولابن ليسينيوس مع حداثة سنه

غير انه شرف سنيه الاخيرة بما عقده من الاتفاقات النافعة مع البلاميين والاحباش والهنود الذين وفدوا اليه وبمصالحته لسابور الثاني على شرط ان يخفف وطأته عن المسيحيين فى بلاد فارس وبانتصار تجريدتيه اللتين ارسلهما لمقاتلة القوط

والسارماتيين {٣٣٢} . وقبل وفاته بايام اعتمد وتنصر

الباب الثاني والعشرون

في تولي كونستانس وجوليان وتيودوسيوس

وغلط قسطنطين قبل ان يدركه اجله فقسم المملكة بين بنيه الثلاثة وبعض اولاد اخيه دون ان يجعل ذلك التقسيم نهائياً فذبح العساكر اولاً ابناء اخيه عدا غاللوس وجوليان . ومات ابنه البكر قسطنطين الثاني فى موقعة جرت بينه وبين احد اخويه (٣٤٠) ولم يلبث هذا ان قتل ايضاً بيد رجل يدعى ماغنانس افرنكي الاصل {٣٥٠} . وبقي كونستانس فعين ابن عمه غاللوس قيصراً وعهد اليه انجاز محاربة سابور وزحف بنفسه الى بانونيا {٣٥١} فانتحر ماغنانس قاتل اخيه خوفاً منه وخضعت له غاليا واسبانيا وبريطانيا التي كانت ثائرة عليه . فرجعت جميع الولايات الى سلطة امبراطور واحد . غير ان القصر كان مشتبكا بدسائس النساء والخصيان والمتملقين والسلطنة كلها مضطربة بالمنازعات التي نشأت عن مذهب آريوس مقلقة بسبب الغارات البربرية على اطرافها وبلغ كونستانس ان قيصر الشرق كان يستعد للثورة عليه فاستدعاه بالمواعيد الكاذبة وبعثه الى بولا فى ايستريا واماته . وابعد اخاه جوليان الى اثينا فتلقى

فيها التعاليم الافلاطونية ثم استدعاه الامبراطور بعد اربعة عشر اشهر وعهد اليه الدفاع عن غاليا من غارة الفرنك والآلاميين فدحرهم في ستراسبورج {٣٥٧}

وردهم على اعقابهم واسترجع منهم جمهورا كبيرا من الاسرى الغاليين والرومانيين. وكان كونستانس قد تهيبه فنزع القيادة منه فثار العساكر ونادوا به امبراطورا فتقدم جوليان بهم الى وسط ايليريا وهناك علم ان كونستانس توفي في ٣ اوكتوبر سنة ٣٦١

﴿ فصل ﴾

في ذكر جوليان (٣٦١)

اول ما فعله انه صبأ عن الدين المسيحي ولذلك لقب بالملحد اي الصابئ وعاد الى الدين القديم ودعا الناس اليه ولكنه تحاشى ان يؤيد دعوته بالقوة بل فتح المعابد وعفا عن المبعدين بسبب الوثنية. وكان فيلسوفا شديد الاخلاق صبورا على المطاعن

وقد حارب الفرس وفتح سوريا وانطاكية وكتازيفون واجتاز دجلة واحرق عمارته ليقطع كل امل للعساكر بالتقهقر ولكن خائناً اضله السبيل فرجع الى غوردیانا عقيب موقعة انتصر فيها وفي الموقعة الثانية جرح ومات بعد ان حكم ٢١ شهرا وكان عمره اثنتين وثلاثين سنة «٣٦٣»

﴿ فصل ﴾

في ذكر جوفيان (٣٦٣) وفالانتينيان وفالانس (٣٦٤)

فبايع الجنود جوفيان فعقد معاهدة مع سابور ترك له بمقتضاها السيادة على ارمينيا وتخلى له عن الخمس الولايات الواقعة فيما وراء دجلة وكثير من المراكز الحصينة التي كانت حرز المملكة وفي الشهر الثامن من حكمه مات { فبراير سنة ٣٦٤ } فانتخب القواد فالانتينيان فاشرك معه اخاه فالانس وولاه حكومة الشرق وذهب فاقام في باريس لمراقبة الجرمانيين . وهناك رأى الشقاق قائماً بين البورغوند والآلامانيين فحاربهم وتغلب على بعض تلك القبائل الصعبة المراس ورمم الحصون على ممار الرين . وكان شديداً في احكامه الداخلية لا يعاقب الا بالموت . غير انه كان ذا تساهل في امر الاديان . ولنكد طالع السلطنة قتل هذا البطل الحكيم في معركة جرت بينه وبين الكاديين (٣٧٥) .وخلفه ابنه غراتيان فولى اخاه الصغير فالانتينيا الثاني ولايتي ايطاليا وايليريا

اما فالانس فلم يحسن التصرف في الشرق لتداخله في الخصومات الدينية ولامر آخر كان القاضي عليه وهو ان قبائل هونية من الجيل المغولي في شرق آسيا كانت قد اجتازت جبال اورال واستعبدت الآلانيين وقذفت بالقوط الى جهات الدانوب

فاستجار هؤلاء بالامبراطور {٣٧٥} وكان منهم مئتا الف مقاتل فاجارهم كبراً منه وجهلاً ولكنهم لم يلبثوا ان ثاروا عليه وكسروه بقرب اندرينوبل فلم ينج الا الثلث من الجيش الروماني او اقل واستباحوا تلك البقاع احراقاً وسلبا ولم ينقذ القسطنطينية منهم الا جيش من العرب المعروفين بالسراقين عند الفرنجة اتى به من آسيا للدفاع عن تلك العاصمة

﴿ فصل ﴾

في ذكر تيودوسيوس (٣٧٨)

وفي الوقت نفسه انتصر غراتيانوس على الآلامين بقرب كولمار . واذ كان الشرق قد اصبح بلا رئيس عين للنيابة عنه فيه قائدا ماهرا يدعى تيودوسيوس فأحسن سياسة الجنود وقيادتهم وناوش القوط بلا فتور الى ان عاهدوه على الصلح {٣٨٢} فوطنهم في التراس وموزيا وجند منهم اربعين الف مقاتل في الجيش الامبراطوري

وكان رجل يدعى ماكسيم قد اسقط غراتيان في غاليا وخلفه (٣٨٣) ثم اجتاز الالب والجأ فالانتينيان الثالث الى الفرار فارجعه تيودوسيوس الى ايطاليا واستوزر له رجلا فرنكيا يدعى ابروغاست فملأ الادارات والدواوين بالاجانب فاراد فالانتينيان التخلص منه فعزله ولم يلبث الامبراطور ان وجدميتا فى

سريره بعد بضعة ايام (٣٩٢) • فقلد ابروغاست الارجوان رجلا يدعى اوجين كان ذا منصب في القصر ودعا الوثنيين للانضمام اليه فثار المسيحيون واسروا اوجين بقرب اكيله ثم اماتوه وانتحر ابروغاست {٣٩٤} وكان هذا الفوز لطائفة الارثوذكس من المسيحيين اي ذوي الرأي الصحيح ومنع تيودوسيوس منعا شديد العقوبة ان تعبد الاوثان وحظر على الهراطقة اهل البدع كجماعة اريوس ان يوصوا بأموالهم قبل وفاتهم واكبر سيئة له انه امر بقتل سبعة آلاف من اهل تسالونيك لأنهم عصوه فلما حضر بعد ذلك الى كنيسة ميلانو وبخه الاسقف امبروسيوس على جريمته ومنعه من دخول الكنيسة فقبل العقوبة وبقي ثمانية اشهر لا يتجاوز عتبتها ويسمع الصلاة من الخارج على انه كفر عن سيآته بفضائله وعدل احكامه في أيامه الاخيرة وقبل ان يدركه اجله قسم السلطنة نهائيا الى شطرين بين ابنيه ركاديوس واونوريوس وكانت الضرورة في ذلك العهد تقضي بهذه القسمة لأن القسطنطينية كانت يونانية آرية ورومة لاتينية ارثوذكسية فاختلاف المذهب واللغة قضى بانفصالهما

﴿ فصل ﴾

فيما كانت عليه الدولة الرومانية من الضخامة والاتساع سنة (٣٩٥)

قبل وفاة تيودوسيوس الذي يلقبه البعض بالكبير كانت

الدولة الرومانية يحدها من الغرب المحيط الاتلانتيكى ومن الشمال السور الذي ابتناه سفيروس بين نهري الفورث والاكليد والبحر الجرمانى والرين والدانوب والبحر الاسود ومن الجنوب الاطلس الكبير وليبيا الداخلية والصحارى التي تمتد في جنوبي اصوان وجزيرة انس الوجود «فيله» ومن الشرق خليج العرب وخط وهمي يمتد من ميناء العقبة على البحر الاحمر الى سورا على الفرات الى سيرسازيوم فخابور فتخوم أرمينيا

ولماقسم الامبراطور المشار اليه الدولة الرومانية الى قسمين عند دنو منيته كان الحد الفاصل بينهما في افريقيا هيكل يعرف بهيكل الفيلانات بين طرابلس الغرب وسيرينايك وفي ايليريا مجرى نهر درينا المتفرع من نهر ساف ثم نهر بربانا اوبوجانا الذي ينصب في بحيرة لابياتيس او اسكدار

وكانت كل من السلطنتين المستجدتين مقسومة الى ولايتين وجملة ابرشيات وعدة عمالات . وكانت سلطنة الشرق مشطورة الى ولايه تعرف بولايه الشرق مشتملة على خمس ابرشيات هي مصر واسيا والشرق والبنطس والتراس وعلى ثلاث وخمسين عمالة . وولايه اخرى تعرف بولاية ايليريا الشرقيه مشتملة على ابرشيتين هما مقدونيا وداسيا وعلى احدى عشرة عمالة

اما السلطنه الغربيه فكانت مشطورة ايضاً الى ولايتين

احداهما تعرف بولايه ايطاليا مشتملة على اربع ابرشيات هي ايليريا الغربيه وايطاليا ورومه وافريقيا وعلى ثمان وعشرين عمالة والثانيه تعرف بولايه بلاد الغال مشتملة على ثلاث ابرشيات هي بريطانيا وغاليا واسبانيا بضم مراكش اليها وعلى ثلاثين عمالة

﴿ فصل ﴾

فيما كانت عليه نظاماتها الادارية

كانت ازمة الادارة الملكية في الولايات بايدى طائفة من القساورة المقدمين في الجيش الامبراطوري فكانوا اذن ولاة وقواداً معاً على ما هو مصطلح عليه في بعض البلاد اليوم وكانت هذه السلطة في الابرشيات بايدى عمال يعرفون بالمعاونين او الوكلاء وفي العمالات بايدي جماعة بعضهم يدعون بالبروقناصل وبعضهم يدعون بالرؤساء وكان مرجع المعاونين والبروقناصل الى الولاة في الامور التي تشكل عليهم ومرجع الولاة الى الوزراء مباشرة والوزراء انفسهم يستمدون النقض والابرام من الامبراطور الذي كان السيد المطلق . اما ازمة الادارة العسكرية فكانت على ما ذكرناه قبلا قد قسمت من عهد قسطنطين بين الرئيسين الاعليين للفرسان والمشاة في الولايات والرئيسين اللذين يليانهما رتبة للفرسان والمشاة في الابرشيات واصحاب لقب الدوق فى العمالات التي يقوم البروقناصل بتدبيرها واصحاب لقب الكونت

في العمالات التي يتولاها الرؤساء فكانت الحكومة الامبراطورية على الجملة قد اصبحت من عهد دقلديانوس وقسطنطين استبدادية محضة لجمعها السلطة كلها في هذا النظام الذي وصفناه

﴿ فصل ﴾

في مجالس البلدية وفي مظالم الجباية

وقد ظهر مما تقدم ان الحرية فقدت من السلطنة تماماً فلم يبق منها الا شيء ظاهري لسكان المدائن حيث كانت لهم مجالس بلدية وكانت هذه المجالس تتألف من الوطنيين الذين يملكون نحو خمسة الاف متر من الارض . وكان يديره رئيس يدعى بلغتهم ديومفير ووكيل مكلف بمراقبة الابنية العامة وامين صندوق مكلف بادارة مالية المجلس وكان اعضاء المجلس مكلفين بتوزيع الضرائب وجبايتها ويكملون من اموالهم ما ينقص منها وكانت الضرائب تزداد سنة بعد سنة بمقدار ازدياد النفقات وتجعل على صور مختلفة فمنها ما هو مفروض على النفوس ومنها ما هو مفروض على العقار وعلى التركات وعلى التجارة والصناعة وما شاكل ذلك مما كان يرزح تحت اثقاله الناس وتكسد معه التجارة وتبور الصناعة ولا سيما في تلك الازمنة التي ضعفت بها شوكة الملك وكثرت عليه الغارات والحروب . ولما عيل صبر الناس من اشتداد عمال الحكومة على الجباة واشتداد الجباة عليهم

اقيم في كل مدينة موظف سمي بالمدافع ليخفف وطأة الجباة عن الاهالى ويمنع مظالمهم عنهم وكان يغلب تعيين الاساقفة في مناصب المدافعين

﴿ فصل ﴾

فيما كان عليه الجيش وفي الكلام على البرابرة المأجورين

كان الامبراطرة الرومانيون لانتفاء ثقتهم بالامم الخاضعة لصولتهم قد نزعوا السلاح منها واكثروا من استنزاف اموالها واهتضام حقوقها حتى ضعفت وانحطت وفقدت الحب للسلطنة والرغبة في الدفاع عن انفسها من المتهجمين عليها امل ان تنضم اليهم وتتخلص من ربقة الظالمين بل كانت قد وصلت الى حالة من الفاقة لا تمكنها من النهوض لصد الغارات التي كان يشنها اقوام البرابرة عليها . وكان الجيش قد ناله تاثير الانحطاط العام فخمدت منه نيران الحماسة الرومانية القديمة وفقد الفضائل التي جعلت اسلافه ابسل جيوش الدنيا غير ان اكثر العساكر فى ذلك العهد كانوا من البرابرة المأجورين لا من الرومانيين وكانوا موسومين بعلامات حمراء من الحديد المحمى خوف ان يفروا ويخونوا وانما كان عدد الجنود الرومانيين قليلا لان اهل الطبقة الوسطى من الناس كانوا يؤدون الضرائب وبذلك يعفون من الانتظام في الخدمة العسكرية

﴿ فصل ﴾

في وصف ما كان عليه عالم البرابرة حول السلطنة الرومانية

بينما كانت هذه السلطنة العظيمة تزداد انحطاطاً وتأول الى الزوال كانت على جوانبها امم ناشئة شديدة الحماسة والبطش تعودت ان لا تتهيب الاسم الرومانى ولا تخشى بأس جيوش السلطنة الذين كانوا على ما وصفناه من خور العزائم . وكان من تلك الاقوام البلاميون والنوبيون في جنوبي السلطنة بافريقيا والعرب في الجنوب الشرقي والفرس في الشرق وكانت مملكتهم تمتد من الفرات الى نهر السند . وفي الشمال الجرمانيون والسرماتيون والسكيثيون وهؤلاء كانوا اشد خطراً على رومة وكانوا يقطنون البلاد الممتدة من نهر الرين الى حدود الصين

﴿ فصل ﴾

في جرمانيا

كانت هذه البقعة ممتدة من نهر الرين في الغرب الى البحر البلطيقى في الشمال ومن نهر الدانوب في الجنوب الى نهر الفستول وجبال الكربات في الشرق وكانت اهم الاقوام الجرمانية في الشمال الغربى من البقعة المذكورة طوائف الافرنك المتحدة بين انهر الاسكو والوزر والمين وطوائف الفريزون بين نهر امس وبحيرة فليغو على سواحل البحر البلطيقى وطوائف

السكسون بين نهري والوزر والالب وطوائف الانكل في شمالي موطن السكسون على ضفة الالب اليمنى الى جنوبي شبه جزيرة سمبريا وطوائف الجوت في شمالي موطن الانكل وطوائف الدان وهم الدنيمركيون والنورمانديون في سكنديناڤيا. وكانت في الجنوب الشرقي طوائف الالمان المتحدة بين نهر المين في الشمال والرين في الغرب والدانوب في الجنوب وجبال بوهيميا في الشرق. وكانت في الوسط وفي الشرق طوائف السويف التي انضمت الى الالمان واختلطت بهم بعد شنهم الغارة على السلطنة وطوائف البرغند والفندال والروجيان والهيرول واللمبرديين

﴿ فصل ﴾

في بلاد السرمات

كانت هذه البلاد ممتدة من نهر الفستول وجبال الكربات في غربيها الى الدانوب والبحر الاسود في جنوبيها والمحيط المتجمد في شماليها، وكانت تقطنها اقوام سلافية اكثرها من القوط. والقوط امة جرمانية الاصل منشأها سواحل البحر البلطيقي وكانت تنقسم الى ثلاثة اقسام كبيرة قسم الاستروقوط او القوط الشرقيين في شرقي نهر الدنيابر وقسم الويزقوط او القوط الغربيين في الغرب وقسم الجيبيد او الترينار على نهر الفستول وراء جبال كربات وفي منتصف القرن الخامس اسس

هرمنريك ملك الاسترقوط مملكة ممتدة من بحر البلطيق الى البحر الاسود ومن نهر التايس الى نهر الفستول بتنايس وكانت هذه المملكة اول مماكة اغار عليها الهونيون واستولوا عليها سنة ٣٧٦

وكان الجيل السلافى او السرماتى ينقسم الى ثلاثة اقوام وهم الفنديون والانتيون والسلافيون الحقيقيون

فاما الفنديون اوسلافيو الغرب فقد دفعهم ما حصل من تنقل الاقوام التي كانت تقطن جرمانيا الشرقية حتى اوصلهم الى جنوب نهر الالب وتفرقت عصائبهم بين هذا النهر والفستول فعرفت بطوائف التشك فى بوهيميا والبولانيين فى بولونيا والليتون في ليتوانيا والمورافيين في بلاد مورافيا والسورابيين في السرب والولتز في بوميرانا الكبرى والاوبوتريت في مكانبرج واما الانتيون اوسلافيو الشمال فقد انضموا الى قبائل الفينيين المستوطنين شمال اوربا واسيا على البحر البلطيقي وكان من جمهرتهم اساس الامة الروسية التي نشأت بعد ذلك

واما السلافيون الجنوبيون فانهم بعد ان تحملوا ربقة القوط ثم ربقة الهون على الولاء اجتازوا نهر الدانوب فى خلال القرنين السادس والسابع وتفرقوا على شواطئ البحر الادرياتيكي وعرفوا بطوائف الاسكلافون والبوسنيين والكروات

﴿ فصل ﴾

في اسكيثيا

وكان الجيل الاسكيثي يقطن البقعة المتسعة الواقعة بين نهر الفولجا غربا وبحر الصين شرقاً وجبل الطائف جنوباً والمحيط المتجمد شمالاً . وهو يشمل الطوائف الرحالة التي اشتهرت بالالانيين فيما بين نهري الدونتز والفولجا وبالبلغار على ضفاف الفولجا وبالمجر او الهنغار في جنوب موطن الفينيين بقرب تخوم سيبيريا وبالافاريين على جوانب جبل الطائف وبالاتراك في تركستان وبالمغول في شمال الصين وبالهون في صحراء كوبه . وهؤلاء الاقوام الهونية هم الذين اغاروا على اوربا سنة ٣٧٦ فدفعوا القوط الغربيين وسائر الاقوام الجرمانية على السلطنة الرومانية

﴿ فصل ﴾

في ملخص التاريخ الروماني

الحقنا الفصول السابقة بالتاريخ الروماني لشدة ما ترتبط به حوادث الاقوام المذكورة فيها بالايجاز على ما رآه القارئ وما سيراه في الابواب التالية ان شاء الله ونلخص الآن في سطور قلائل جوهر تاريخ الرومانيين فنقول ان السلطنة الرومانية انما سقطت لما كان لها في البدء من سوء النظامات

السياسية وفي آخر عهدها من فساد النظام العسكري • وكان من نتيجة ثقل الضرائب واشتداد الجباية على الناس وعدم مدافعة الجنود عنهم في ايام الغارات التي كان يشنها البرابرة عليهم انهم كرهوا حكومتهم ومقتوا دولتهم ثم انتحلوا الدين المسيحى فتعلموا منه التجرد لله والنفرة عن شواغل الدنيا والاحتقار لحطامها فذهبت من قلوبهم بقية ما كان فيها من الرغبة في الخدمة العامة • ولذلك لم يكن سقوط السلطنة ناشئاً عن صدمة زعزعتها وهدت اركانها بل عن علة اشبه بما يعرف بالانحلال الطبيعى بمعنى انها كانت كالآلة التي تحاتت اجزاؤها فانقطعت حركتها من نفسها او كالشيخ الذي بلغ المدى من العمر وتجاوزه فاذا هو ذات يوم وقدخارت بقية قواه فاخذه النزع وقضى نحبه

ولم يزد الشعب الروماني شيئاً يذكر على ما ورثه من اليونانيين الا انه نبغ في امور من نوع آخر غير الذي اشتغل به اليونانيون وترك منه للعالم آثاراً جليلة وفوائد عظيمة • فمن ذلك لغته التي كانت ولا تزال الصلة بين رجال العلم وقوانينه التى اخذت عنها القوانين المستحدثة والطرق العسكرية التى صنعها والقناطر التى شيدها وامثال هذه الاعمال التي اقتدت به فيها الدول من بعد وادارته التي علم بها الحكام كيف يقومون بتدبير الجماهير الكثيرة وحكومته التي كانت مثالا جرى عليه الملوك

المستبدون فى الاعصر المتأخرة ومجالسه البلدية التى نقلت عنها رسوم مجالسنا المشاكلة لها . والرومانيون اول من حولوا الاسترقاق القديم الى اخف منه وطأة على النفوس وهو ما كان يعرف بالحراثي اذ كان يقضي على الانسان المبتلى به بلزوم ارض يقوم عليها ما دام حياً . وهذا النوع من الاسترقاق هو الذي كان عاما فى القرون المتوسطة على ما سيجيء

ولما رأى ملوك البرابرة النور الساطع الذي كان ينبعث من الدولة الرومانية حتى فى اواخر ايامها بهرت به عيونهم فابوا الا ان يجروا على الخطة التى جرى عليها الرومانيون قبلهم ولذلك بذل كلوفيس ما فى وسعه حتى نال لقب بطريق رومة وافتخر تيودوريك بانه رصيف امبراطور الشرق وتباهى كارلوس الاكبر واوتون وفريدريك بربروس بانهم خلفاء قسطنطين

وجرى البابوات فى ملكهم الروحي مجرى الامبراطرة فى ملكهم الزمني يوم سادت الكثلكة واصبحت رومة عاصمتها واشار المتشرعون بان يمنح ملوك القرون المتوسطة من السلطة ما كان ممنوحا لقيصر فلما انقرضت ممالكهم وقامت ثورة العصر الذي نحن فيه اتخذ نابليون لقباً رومانياً معناه انه يتولى ادارة مصالح الشعب والدفاع عنها من الذين يعتدون عليها

وفى الجملة فان تاريخ رومة سيكون ابدا استاذ السياسي

ودليل المتشرع كما لا يزال تاريخ اغريقيا استاذ الصانع ومرشد الحكيم والشاعر

﴿ فصل ﴾

في انقراض السلطنة الغربية (٤٧٦)

واخذ البرابرة منذ انفصال السلطنتين الغربية والشرقية نهائياً يهاجمون المراكز الرومانية بعدان لزموا الدفاع طويلا . اما القسطنطينية فنجت لتحصن مركزها وقاومت الغارة عشرة قرون واما رومة فلم تلبث ان اخذت وسقطت معها سلطنة الغرب بعد ان نزعت نزعا اليما استمر ثمانين سنة . واهم حوادث هذه الايام ما سيرد وصفه فى تاريخ الاريك واتيلا وجنسريك . وكان امبراطور الغرب منذ سنة ٣٩٥ اونوريوس . توفى فى سنة ٤٢٣ واستخلف ابن اخيه فالانتينيانوس الثالث فحكم خاملا الى ان قتل فى سنة ٤٥٥ وخلفه ما جوريان الحكيم العادل فاماته رجل سويفى يدعى ريسيمر واقام مكانه ثلاثة من اعضاء مجلس الشيوخ واحداً بعد الآخر

وعند ذلك زحف اودواكر زعيم طائفة الهيرول الجرمانية على سلطنة الغرب فخلع امبراطورها الاخير روملوس اوغستول { ٤٧٦ } ونادى به عساكره ملكا لايطاليا فكافأهم بمنحه لهم ثلث اراضيها والتمس من القسطنطينية لقب بطريق فاجابته

الى طلبه وكان ذلك منه اعترافا بسيادة امبراطور الشرق على المملكة الجديدة وختام سلطنة الغرب

القسم الثالث

في القرون المتوسطة

الباب الثالث والعشرون

في البرابرة في القرنين الرابع والخامس

فصل

في تعريف القرون المتوسطة

هي الزمان الذي مر بين سقوط السلطنة الرومانية ونشأة الممالك الكبيرة الحديثة منذ غارة الجرمانيين في بدء القرن الخامس للميلاد الى افتتاح الاتراك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣

وفيها تقدمت صناعة الهندسة البنائية على طرز جديد وتأخرت الآداب والمعارف وقامت بدل الملكيات والجمهوريات المعروفة حكومات من نوع مخصوص دعيت بحكومات الشرفاء فكان الملوك لاسطوة لهم والحكومات المحلية لا هادي لها ولا مراقب عليها والبلاد لا تخوم مقررة لها . ولم تكن ثم وحدة الا وحدة الدين ولذلك كانت الحروب الكبرى التي انتشبت في

تلك الازمان دينية محضة كحرب الصليبيين في فلسطين والمغاربة في اسبانيا والهراطقة في البيجوا والوثنيين في البلطيق

﴿ فصل ﴾

في برابرة الشمال واخلاقهم وديانتهم

بينما كانت تجري في رومة حوادث الفوضى العسكرية كانت امم كثيرة مختلفة تتقدم نحو تخوم السلطنة من الشمال والجنوب والشرق ففي الشمال كان الجرمانيون والسلافيون والطوائف التورانية وفي الشرق كان الفرس الذين طالما حاربوا الرومانيين من قبل ولكنهم لم يخطر على بالهم ان يغيروا على سلطنتهم . وفي الجنوب كان العرب . وكان فريق منهم في شبه جزيرتهم لا يخشى بأسهم الى ذلك الوقت وفريق آخر في افريقيا عرفوا بالمغاربة

ولما توفي تيودوسيوس {٣٩٥} كان الخوف الاعظم على الدولة الغربية من اهل الشمال اي الجرمانيين على اختلاف شعوبهم ومواطنهم ومن السلافيين الذين انضموا اليهم في غارتهم على سلطنة الغرب ولكنهم لم يظهروا بمظهرهم العظيم في الدنيا الا بعد ذلك بزمان

وكان الجرمانيون اشداء محبين للحروب والاستقلال الذاتي وكان كل منهم يبلغ سنا معلوما ويقلد السيف يصبح جنديا

لوطنه ويتخير احد الزعماء ليلحق به . وكانت حكومتهم مجتمعاً يشاركونه جميعهم بالرأي لتدبير شؤون الادارة واصدار الاحكام القضائية وكان لكل مركز قاض وللامة كلها ملك ينتخب من اعضاء اسرة واحدة وكان الجنود يختارون قائدهم في زمان الحرب وكان شعراؤهم الذين يعرفون بالبرديين يحثونهم في قصائدهم على التفاني في القتال واحقهم بالفخر من مات ضاحكاً وكانت معبوداتهم تقارب معبودات اليونانيين فلهم جنة اشبه بالاولمبوس واله اكبر كالمشتري يدعى اودين يمنح النصر لمن يشاء ويقضي الايل على صهوة جواده وهو يجريه في الهواء مصطحبا جميع المحاربين الذين هلكوا . واله يدعى دونار ينسبون اليه ما كان ينسبه اليونانيون الى هرقل وآلهات منها فريا التي هي اشبه بفينوس وهولدا التي هي اشبه بديانا وهما معبودتا السلام والصنائع الجميلة . ومن المعبودات الجرمانية الارض والشمس واخوها القمر الذي يلحق به ذئبان ويفر امامهما

وكان الجرمانيون يحرثون الارض بالحصص يقسمها القضاة عليهم ليفلحوها ويستغلوها كل عام . ولم تكن لهم مدائن بل اكواخ من طين متفرقة كل منها في حقل يحرثه ساكنها وكان تقسيم الحصص على الجرمانيين قرية قرية بيتا بيتا . وكانت عندهم اخلاق شريفة طاهرة وكان تعدد الزوجات محرماً عليهم دون

ملوكهم وكان اقبح خلاتهم ومعايبهم السكر والمقامرة

﴿ فصل ﴾

في وصول الهونيين الى اوربا

الهونيون وقد سبق تعريفهم في عرض هذا الكتاب كانوا مجموعة قبائل من جيل واحد ناشئة بجوار بحر قزبين واتفق انه وقع خلاف بين تلك القبائل فانجلى قسم منها واجتاز نهر الفولكاوجر معه قبائل الآلينيين ودخل الغرب فصدم الامبرطورية القوطية التي كان هرمانريك قد الفها من الفيزقوط والاسترقوط والقوط الشماليين

اما الاسترقوط فخضعوا واما الفيزقوط ففروا الى جهة الدانوب واستجاروا بالامبراطور فالانس على ما قدمناه ثم ثاروا عليه وقتلوه بقرب اندرينوبل غير ان تيودوسيوس غلبهم واسكن جانباً عظيما منهم في التراس فردوا عنها غارات الهونيين

﴿ فصل ﴾

في غارة الفيزقوط وذكر الاريك والقول في الغارة الكبرى في سنة ٤٠٦

عند ما توفي تيودوسيوس وقسم السلطنة بين ابنيه حاول الفيزقوط ان يقطعوا امبراطورية الشرق فنهبوا التراس ومقدونيا واجتازوا الترموبيل ودخلوا الى الموره. فحصرهم ستيليكون احد قواد هونوريوس في جبل فولويه فوجدوا مفراً منه وكادوا

يفتكون بالقسطنطينية لو لم يحولهم عنها الامبراطور اركاديوس بما اشار به عليهم من السطو على سلطنة الغرب . فهرعوا اليها فدحرهم ستيليكون {٤٠٣} واخرجهم من ايطاليا . غير ان هونوريوس اذن لهم بالاقامه في ارض تابعة للسلطنة فكافأوه على هذه المنة احسن مكافأة على ما سيأتي بيانه . ولم يمض زمن قليل حتى هجم اربعة شعوب وهم السويفيون والفانداليون والالينيون والبرغنديون على السلطنة ودخلوا تخومها من جانبين فسحق ستيليكون احدى فرقهم في فيزول ولكن الاخرى اجتازت الرين {٤٠٦} واستباحت غاليا مدة سنتين وفي سنة ٤٠٩ اقام البرغنديون على ضفاف الرون مملكة لهم مستقلة اعترف بها هونوريوس في سنة٤١٣ وانقلب الالينيون والفنداليون والسويفيون الى اسبانيا وكان ذلك ابتداء الغارة الكبرى

﴿ فصل ﴾

في استيلاء آلاريك على رومة (٤١٠) وفي ممالك الفيزقوط والسويفيين والفنداليين

ولم يلبث الاريك ان اعاد الكرة على سلطنة الغرب وكان هونوريوس قد امات ستيليكون غيرة منه ففقد بفقده بطلاً باسلاً وقائداً حكيماً كان خير مدافع عنه . واحتل الاريك رومه فاعمل فيها السيف والنار اياما ثم رجع الى مدينة كوزنزا

الكالابرية فتوفي فيها {٤١٠} واتفق صهره آتولف ثم القائد واليا بعده مع هونوريوس على ان يخدماه ففتك الاول بثلاثة من المغتصبين استقلوا في غاليا وردها الى السلطنة وطرد الاخر من اسبانيا الشعوب الثلاثة التي كانت قد احتلتها فكافاه الامبراطور باقطاعه عمالة الاكيتين الثانية فانشأ من العمالتين مملكة مستقلة للفيزقوط سنة ٤١٩ . وفي السنة نفسها جمع هرمانريك اشتات السويفيين واقام بهم مملكة في جبال استوريا وعقب ذلك بقليل ظهر جنسريك في مقدمة الفنداليين وكانوا قد نفوا الى جنوبي اسبانيا او الاندلس فانتقل بهم الى افريقيا وفتح مدينة هيسبون واكره الامبراطور فالانتينيان على الاعتراف باستقلال قومه في تلك الارض {٤٣٥} ثم فتح قرطاجنة {٤٣٩} وانشأ فيها عمارة كانت تنهب كل شواطئ البحر المتوسط وفي سنة ٤٥٣ اخذ رومه عنوة واستباحها نهباً وسلباً مدة ١٤ يوماً

﴿فصل﴾
في ذكر أتيلا

عند ماظهر هذا الطاغية الذي لقب نفسه بنقمة الله على الارض كانت قد تأسست الممالك البربرية الاربع التي أشرنا اليها آنفاً . وكان أتيلا قد قتل أخاه بليدا وانفرد في السلطنة على أمة الهون التترية وجميع الشعوب التي كانت مقيمة على

ضفة الدانوب . وكان يقطن بيتاً من خشب في صحراء بانونيا ومنه يصدر الاوامر الى تيودوسيوس الثاني أمبراطور الشرق ويتقاضى منه الجزية بموجب معاهدة مارغوس التي عقدها معه الا ان جنسريك لم يلبث ان استدعاه الى الغرب لامر في نفسه فلباه واجتاز الشمال الشرقي من غاليا هادما كل شيء في طريقه وحاصر أورليان فاقصاه عنها الفيزقوط والافرنك والبرغوند والساكسونيون والرومانيون بعد موقعة شالون الكبيرة الى ماوراء الرين فانقض على ايطاليا ثانية وهدم كثيراً من مدائنها ومنها أكيلة التي رحل عنها سكانها وشيدوا البندقية

ولما رجع الى بانونيا توفي فيها {٤٥٣} بداء فجائي وتمزقت بعده مملكة الهونيين كل ممزق بسبب تخاصم أبنائه ومنازعاتهم وعلى هذا النمط اصبح ملوك رومة الاعيب بايدي زعماء البرابرة الاقوياء الى سنة ٤٧٦ التي استقل فيها اودواكر الهيرولي بملك ايطاليا وهدم سلطنة الغرب .



الباب الرابع والعشرون

في الممالك البربرية الكبرى

﴿ فصل ﴾

في ممالك غاليا واسبانيا وأفريقيا

علمنا مما سبق ان الاريك وخلفاءه أنشأوا مملكة الفيزقوط في غاليا واسبانيا وكانت تمتد من نهر اللوار الى بوغاز جبل طارق وان جنسريك أوجد مملكة أفريقيا وان اتيلا لم يترك الا الدمار

وقد تأسست أيضاً مملكة للبرغند في وادي نهري السون والرون في سنة ٤١٣ وكانت عاصمتاها ويانة وجنيفا وتولى الاحكام فيها ثمانية ملوك خاملين ثم فرض الجزية عليها كلوفيس في سنة ٥٠٠ وافتتحها بنوه في سنة ٥٣٤

وقامت قبيل هذه في سنة ٤٠٩ مملكة لليونيين في غاليسيا من اسبانيا وفي عهد ملكيها ريشيليا ﴿٤٤١﴾ وريشيار ﴿٤٤٨﴾ اوشكت ان تضم اليها جميع اسبانيا لو لم يحاربها القوط ويخضعوها سنة ٥٨٥

﴿ فصل ﴾

في ممالك السكسونيين في انكلترا

كان سكان بريطانيا منقسمين الى ثلاثة أقسام الكاليدونيين

في الشمال وهم البيكت والسكوتس سكان ايكوسا وهؤلاء لم يستطع الرومانيون ان يخضعوهم . واللوغريين في الشرق والجنوب وهؤلاء خضعوا لرومة . والكمبريين في الغرب وكانوا أمنع من العقاب في جبالهم . ولما ترك اللوغريون في سنة ٤٢٨ بدون حامية رومانية واغار عليهم البيكتيون فاستباحوهم استنجدوا { ٤٥٥ } بالسكسونيين والجوتيين والانكليين من قرصان المانيا فلبوهم بقيادة زعيمين يدعيان هانكيست وهورسا وفتكوا بالبيكتيين وكوفئوا على ذلك بان وهبوا جزيرة ثنت على ساحل كنت فلم يلبث هانكيست ان ضم اليها البلاد الممتدة من التاميز الى بحر المانش ولقب نفسه بملك كنت {٤٥٥} فاقتدى به سائر زعماء القرصان وشيدوا في سنة ٤٩١ مملكة سوسكس او السكسونيين الجنوبيين وفي سنة ٥١٦ مملكة ويسكس او السكسونيين الغربيين وفي سنة ٥٢٦ مملكة اسكس او السكسونيين الشرقيين وفي سنة ٥٤٧ حدثت غارة الانكليين وشيدوا مملكة نورثمبرلند ثم مملكة استانكلي {٥٧٧} ثم مملكة مرسي {٥٨٤} . فكانت جملة ممالك انكلترا سبعا توحدت بعد ذلك

﴿ فصل ﴾

في مملكة الاستروقوط في ايطاليا وفي ذكر تيودوريك (٤٨٩ـ٥٢٦)

عند ما توفي اتيلا تحرر الاستروقوط من ربقة الهونيين

وجعلوا زعيما عليهم في سنة ٤٧٥ رجلا يدعى تيودوريك سايل احد امرائهم كان قد ارتهن في القسطنطينية وربي فيها . فلما تولى رئاسة قومه اوعز اليه زينون امبراطور الشرق بافتتاح ايطاليا ففعل واقيم ملكا عليها وطرد الهيروليين {٤٨٩—٤٩٣} ثم اضاف الى مملكته ايليريا وبانونيا وتوريكا بالمعاهدات السلمية وعمالة مرسيليا بالسيف . وضرب الجزية على البافاريين وانجد الالامانيين في محاربتهم لكلوفيس . وعند وفاة الاريك الثاني اقامه وصيا على حفيدة الماريك فساس المملكتين القوطيتين احسن سياسة وكان ذاقربى وود مع جميع الملوك البرابرة وذا تساهل في الدين . قرب منه العلماء والكتاب وابقى مجلس الشيوخ والمجلس البلدي في رومة ورمم الابنية والقصور والترع والجسور واصلح الاراضي للزراعة ووزعها على الناس من قاطنين ووافدين وتوفي سنة ٥٢٦ ولم يدم استقلال شعبه بعده الا قليلا . وهكذا انقضى اجل الفنداليين والهيروليين والسويفيين والبرغند والقوط الجنوبيين والقوط الشرقيين

الباب الخامس والعشرون

في تاريخ السلطنة الشرقية

﴿ فصل ﴾

في ذكر اركاديوس (٣٩٥_٤٠٨)

يلخص مما تقدم ان ثلاث عشرة مملكة قامت مقام السلطنة الغربية اما السلطنة الشرقية فنجت من الغارة مع ما كانت عليه من الجور والخصومات الداخلية والمنازعات الدينية ووقوع احكامها بين ايدي الخصيان والنساء على ماستراه موجزا ٠ وكان اركاديوس اول قياصرة السلطنة الشرقية بعد ان فصلها ابوه هونوريوس عن السلطنة الغربية وكان ضعيف الرأي القى ازمة الاحكام بين ايدي زوجته اودوكسيا ووصيه واكبر حجابه وهو الذي ابطل عبادة الاصنام في مصر وايد بدعة اريوس في النصرانية

﴿ فصل ﴾

في ذكر تيودوسيوس الثاني (٤٠٨_٤٥٠)

وخلف اركاديوس ابنه تيودوسيوس الثاني وكان اشبه بابيه في ضعف الجنان وقد تولت الحكم عنه اخت له تدعى بوليخريا فاحسنت السياسة وادارة شؤون البلاد وغلبت الفرس في سنة ٤٢٣ وكسبت منهم نصف ارمينيا ثم انتصرت على سلطنة الغرب فانتزعت منها ايليريا الغربية ٠ ولما اغار الهون على السلطنة

عقدت معهم معاهـدة اقرت فيها بتأدية الجزية لهـم وبعـدم محالفة اية دولة يكونون اصـدقاءها . ومن اهم الحوادث التي جرت في عهد القيصر المشار اليه انعقاد مجمع افسس للفصل في امر البـدعة النسطورية {٤٣١} وصدور التيودوسي وكان اول مجموعة رسمية من هذا القبيل

﴿ فصل ﴾

في ذكر مرسيانوس (٤٥٠ـ٤٥٧)

وقام بالامر بعده مرسيانوس وكان دنيء الاصل ترقى باجتهاده الى اعلى المناصب ثم تزوج ببوليخريا على اثر وفاة اخيها وكانت قد بويعت بالامبراطورية فتولاها معها وهو الذي زين لاتيلا السطو على السلطنة الغربية للتخلص منه وفي عهـده عقد مجمع خلقدونيا

﴿ فصل ﴾

في ذكر ليون الاول والثاني وزينون الاول وباسيليكوس واناستاسيوس ويوستينوس الاول (٤٥٧ ـ٥٢٧)

لم يحدث في السلطنة شيء يذكر لعهـد هؤلاء القيـاصرة الخاملين الذين اشتغلوا بالمنازعات الدينية اكثر مما اشتغلوا بسياسة البلاد . غير ان احدهم اناستازيوس فعـل امرين مشكورين وهما ابطال مصارعة الحيوانات الضـارية واقامة سور حول

القسطنطينية ليقيهـا غارة البلغـار وغيرهم والآخر يوستينوس احسن بتبنيه يوستينيان ابن اختـه ليعهد اليـه بالامر من بعده

﴿ فصل ﴾

في ذكر يوستينيان (٥٢٧ـ٥٦٥) ونهضة سلطنة الشرق عـلى يده

هو اشهر ملوك السلطنة الشرقية ببسالته وحكمته وحسن ادارته . ولد من بيت حقير وارتقى سلم التقدم الى اسماه وكان سـلافي الاصل وفي عهـده عادت للسلطنة ابهتها وعلا منارها فانه بعد ان حارب الفرس مدة اربع وثلاثين سنة وضمن سلامة التخوم الشرقية منهم عقد معهم صلحا سنة ٥٦٢ وفي سنة ٥٩٥ رد غارة البلغار عن القسطنطينية وكان قد حارب مملكة الفندال في الغرب فاسقطها على اثر موقعة تريكامرون سنة ٥٣٤ وكذلك حارب مملكة الاسـتروقوط فدمرها عقيب موقعـة تاجينا التي انتصر فيها خصي له يدعى نرسيس وكان ذلك سنة ٥٥٢ . ومن مآثره السلمية نشره الكتب القانونية التي ابقت للخلف اعظم ماوضعه السلف من مواد التشريع واهمها ماعهد به الى جمـاعة من العلماء من جمع كل المنشورات والمراسـيم التي اصـدرها ملوك الروم والرومان قبله وتنقيحها واصدارها مجموعة في كتاب واحد . ومن اعماله المشـكورة ايضاً توسيعه نطاق المعارف والآداب واخذه بناصر الصنائع . الا انه شقي في حياته بفساد

سيرة امرأته وبما وقع على السلطنة من كوارث الطاعون والزلازل فضلا عن مصائب الحروب التي ادارها

على ان ارتفاع شأن السلطنة الشرقية لم يكن الا قصير الامد اذ لم تمض ثلاث سنين على وفاة يوستينيان حتى عادت طائفة اللمبرديين فانتزعت ايطاليا من تلك السلطنة واستولت عليها مدة مئتي سنة الى ان اخذها منها كارلوس الاكبر

﴿ فصل ﴾

في ذكو يوستينوس الثاني (٥٦٥ ـ ٥٧٤) وطبير يوس الثاني (٥٧٤ ٥٧٦)

اهم ما جرى في عهده انسلاخ ايطاليا من السلطنة ونهب طوائف الافار للولايات الواقعة على الطونة ومعاهدة الاتراك النازلين بجهات بحر طبرستان لدولته على الفرس

وقام بالامر بعده طيبيريوس الثاني فحارب الفرس ولم يتمكن من عقد صلح معهم ورد طوائف الافار بالرشوة عن ولايات الطونة

﴿ فصل ﴾

في ذكر موريس (٥٧٦ـ٥٨٣) وفوكاس (٥٨٣ـ ٦١٠)

وخلفه موريس فصالح الفرس ثم سار لمحاربة الافار فثار عليه الجنود باغراء من فوكاس وقتلوه واولاده وقام بعده فوكاس فكان خاملا انثا ظالماً وفي عهده استولى الفرس على

ما بين النهرين وارمينيا وسوريا وجانب من آسيا الصغرى ثم خرج عليه رعاياه فانتصروا عليه في موقعة بحرية هائلة وقتلوه

﴾ فصل ﴿

في ذكر هرقل الاول (٦١٠ـ ٦٤١) وعدة من القياصرة (٦٤١ـ٧٤١)

وقام بالامر بعده هرقل الاول وكان حكيما باسلا حاول ان ينهض بالسلطنة ويعيد اليها ماضي رونقها فلم يجد فيها من بقية القوة ما يساعده على انفاذ عزيمته بل اغارت على مملكته طوائف الافار من جهة فاخذوا املاكها الاوربية وسطا عليها الفرس من جهة اخرى فانتزعوا منها آسيا الصغرى وفلسطين ومصر حتى انحصرت الدولة كلها في القسطنطينيه فيئس هرقل وعزم على مفارقة عاصمته ثم اتخذ من الضعف قوة ومن اليأس املاً فجهز جيشا واستانف محاربة الفرس فانتصر عليهم في عدة مواقع واسترد بعض املاكه المفقودة وعقد معهم صلحا جميلا ثم اعاد الكرة عليهم وتابعهم الى حدود مملكتهم • وكان بعض قواده قد دفعوا غارات شنتها البرابرة على القسطنطينية • وكانت السلطنة قد اشتد ضعفها على اثر هذه الحروب بحيث اخلد هرقل الى السكون واشتغل بالمنازعات الدينية بينما كان المسلمون في خلافة ابي بكر الصديق يفتتحون دمشق واورشليم وكثيرا من

مدن سوريا ويدحرون جيوشه ويستولون على ما بين النهرين وفلسطين ومصر . وفي سنة ٦٤١ توفي هرقل الاول وكانت عدة ممالك للصقالبة قد قامت على جوانب النوبة وخلطت طاعته

وخلفه ابنه هرقل الثاني فحكم بضعة اشهر ثم خلف هرقل قسطنطين الثالث وكانت مدته قصيرة ايضا ثم قام بعده هرقليوناس بن مارتين فنفته الرعية واقامت مكانه قسطنطين الثاني فحكم سبعاً وعشرين سنة وفي عهده استتم العرب فتح اكثر ما بقي من املاكه باسيا واخذوا رودس وقبرس بحرا فتخوف ولجأ الى صقليا واخذ ينتهب اموال اهلها بدعوى الاستعداد للحرب فقتلوه . وتولى الملك بعده قسطنطين الرابع بوغوناتس وفي مدته حاصر المسلمون القسطنطينية ثم ارتدوا عنها فشلين . وقام بعده يوستينيان الثاني فخلع ثم اعيد ثم قتل وقام بعده فيليبكوس باردانيس الارمني الاصل فخلع ونفي وجلس على السرير بعده انتاثيوس الثاني . انتخبه الشعب لصلاحه فاحسن ادارة الماليه والحرب وقاوم جيوش العرب وكان له مناظر قوي عليه فاضطره الى التنازل له عن الملك ثم قتله وقام مكانه تحت اسم تيودوسيوس الثالث فلم يملك الا قليلا ثم تنازل لمناظر له ملك تحت اسم ليون الثالث ورد غارة شنها العرب على القسطنطينية وايد بدعة محو الصور والتماثيل من الكنائس

وجهز اسطولا لمحاربة ايطاليا فدمرته الانواء . وقامت بسبب هذه البدعة فتن كثيرة في العالم المسيحي وجرت من اجلها الدماء

﴿ فصل ﴾

في ذكر عدة قياصرة آخرين (٧٤١ – ١٢٠٤)

وخلف ليون الثالث قسطنطين الخامس { ٧٤١ - ٧٧٥ } وكان كساراً للصور محارباً استرد من العرب بعض املاكه المسلوبة في سوريا وارمينيا ودمر اسطولهم بقرب قبرس وانقلب على البلغار يناوئهم فادركه اجله (٧٧٥) وقام بالامر بعده ابنه ليون الرابع { ٧٧٥ - ٧٨٠ } وخلف هذا ابنه قسطنطين السادس { ٧٨٠ - ٧٩٢ } وجلس على السرير بعده اخوه نيقفورلوغوتيت { ٧٩٢ - ٨١١ } فحاربه الخليفة هرون الرشيد وضرب عليه الجزية وقام بالامر بعده ميخائيل الاول صهره { ٨١١ - ٨١٣ } وكان حسن السيرة حارب البلغار فكسروه ثم حدثت ثورة في القسطنطينية فعاد لتسكينها وعقد لقائد يدعى ليون اولاون على الجيش فقويت بذلك شوكة ليون ونفى الملك وقام مكانه وغلب البلغار ثم قتله الشعب { ٨١٣ - ٨٢٠ } وقام بعده ميخائيل الثاني { ٨٢٠ - ٨٢٩ } وقد انتزع منه العرب جزيرة صقلية وكالابره والاندلسيون جزيرة اقريطش . وقام بعده ابنه تيوفيلوس

{ ٨٢٩ — ٨٤٢ } فحاصر حصن زبطره ونكل فيه بالمسلمين لعهد خلافة المعتصم فاستعظم الخليفة ذلك وجاء بروسه او عمورية في ثلاث فرق ضخمة فاستباح المدينة ودمرها بعد قتال شديد ومات تيوفيل على اثر ذلك غما وخلفه ميخائيل الثالث {٨٤٢-٨٦٧} وفي زمانه اغار الروس على القسطنطينية فلم يفتح عليهم . وفيه ايضاً كان انشقاق الكنيسة الاغريقية عن الكنيسة اللاتينية سنة ٨٥٢ وقام بعده باسيل الاول المقدوني { ٨٦٧ — ٨٧٨ } فاحسن السياسة واسترد قيسارية من المسلمين وحمى دلماسيا وراغوزه من الاغالبة ونشر القوانين العادلة وكانت وفاته سنة ٨٧٨ وخلفه ابنه ليون اولاون السادس الملقب بالفيلسوف {٨٧٨-٩١١} فحارب المجر والبلغار والمسلمين ففشل في كل مواقعه ثم استعان بالاتراك فاتخذوا ذلك فرصة وافتتحوا جزيرة ساموس بينما كان اللمبرديون ينتزعون آخر ما بقي للسلطنة من الاملاك بايطاليا ولم يفلح في شيء سوى رده اساطيل الروس عن اجتياز البسفور لفتح القسطنطينية وفي عهده اخذ الاغالبة سلانيك ثم انتزعها البنادقة منهم . وكان عاقلاً حكيما مقرباً لاهل الفضل ومن مآثره نشره مجموع القوانين المعروف بالباسيلي . وقام بالامر بعده اخوه اسكندر فاشرك في الحكم معه اخاه قسطنطين السابع وبوفاته اشرك قسطنطين اخاه رومانوس ثم نفي رومانوس فاشرك

قسطنطين معه في الحكم اولاده الثلاثة وفي عهده اغار الروس والمجر على جوانب السلطنة فاستباحوها ولكنه تمكن من احراق الاسطول الروسي فنجا ملكه بذلك وكانت وفاته سنة ٩٤٨ وقام بعده حفيده رومانوس { ٩٥٩ - ٩٦٣ } فاساء السيرة في الداخل ولكن قواده استردوا له اقريطش من المسلمين وقبض على زمام الاحكام بعده نيقفور الثاني فوكاس {٩٦٣-٩٦٩} وكان باسلا استرد من المسلمين بلاد سيليسيا وقبرس وجانيا من سوريا ثم تغلب عليه العرب بحراً وقتله قائده يوحنا ذي مسيس بمؤامرة وجلس على السرير بعده تحت اسم يوحنا الاول {٩٦٩-٩٧٦} فحارب الروس واخذ منهم بلاد البلغار واسترجع فلسطين ثم قتل في اثناء رجوعه فاستولى عليها العرب ثانية. وقام بالحكم بعده باسيليوس الثاني {٩٧٦-١٠٢٥} مشتركاً فيه مع اخيه قسطنطين فدامت ولايته خمسين سنة تغلب في خلالها على الروس وضم البلغار الى مملكته وخلفه اخوه قسطنطين التاسع { ١٠٢٥ - ١٠٢٨ } ثم خلف قسطنطين المذكور رومانوس الثالث ارجير { ١٠٢٨ — ١٠٣٤ } هزم الاتراك جيوشه في عدة مواقع فخبث بعد الجودة وضايق الرعية ثم قتلته امرأته وتزوجت بصيرفي تحبه فملك تحت اسم ميخائيل الرابع { ١٠٣٤ - ١٠٤١ } وانتصرت جنوده بعض نصرات على المسلمين والبلغار وخلفه ميخائيل الخامس القلفطي مدة سنة ثم قسطنطين العاشر (١٠٤٢ -

١٠٥٦) وفي عهده تم الانفصال النهائي بين الكنيستين الغربية والشرقية . وخلفه اسحق كومانينوس (١٠٥٧ ـ ١٠٥٩) ثم تنازل عن الملك لقسطنطين دوكاس الحادي عشر (١٠٥٩ـ١٠٦٧) وفي عهده اشتد بأس السلاجقة وضخمت دولتهم بما غنموا من املاك السلطنة واخذ النورمانديون كالابره وخلفه رومانوس الرابع ديوجين (١٠٦٧ ـ ١٠٦٩) ووقعت بينه وبين السلاجقة حرب افضت الى اسره فعامله الب ارسلان امير السلاجقة بالحلم والاكرام واخذ عليه ميثاقا بانه لا يحارب قومه ولما عاد كان قد تنصب في مكانه ميخائيل السابع دوكاس(١٠٦٩ـ١٠٧٨) وفي زمانه فتح السلاجقة معظم آسيا الصغرى وقام بعده نيقفور بوتانياس (١٠٧٨ ـ ١٠٩٥) فارسل نيقفور برينوس ليخمد ثورة قام بها الجنود في ايليريا ففعل ثم بايعه الجنود فخلفه تحت اسم الكسيس كومينينوس (١٠٩٥ ـ ١١١٨) وقد انتصر على السلاجقة في مواقع صغيرة وانتصر عليه البلغار وهو الذي استنجد بالغربيين على المسلمين فكان من المحركين للحرب الصليبية فلما مر جنود الصليب من بلاده واساؤا السيرة فيها امتنع عن امدادهم بجيش لفتح انطاكية ولكنه افتدى اسراهم فيما بعد . فلما كانت الحملة الثانية تعهد بتقديم جيش امداداً للصليبيين واقطعهم البقاع التي يفتتحونها . وقد استرد نيقا

والجزء الغربي من آسيا الصغرى بمساعدة الفرنسويين • وقام بالامر بعده الملك الباسل العادل يوحنا الثاني كومنينوس (١١١٨ - ١١٤٣) فلم يهرق قطرة دم في سبيل ارتقائه السرير وهزم الفرس وطردهم من فريجيا واخرج الاسكيثيين من بلاد التراس واسترجع جانباً من آسيا الصغرى واوصل تخومه الى آسيا • وكان مع كثرة مغازيه حليماً حكيماً حسن السيرة

وقام بعده ابنه مانويل كومنينوس (١١٤٣ — ١١٨٠) فخالف السلاجقة على الصليبيين وكان مقدمهم اذ ذاك ملك المانيا سنة ١١٤٧ وحليفهم روجر ملك صقليا فساءهم ذلك منه فهجم روجر بجيوشه على السلطنة وفتك باهل طيبه وقرنثيه انتقاما من الامبراطور • ثم ان السلاجقة نقضوا عهد مانويل في سنة ١١٧٦ وابادوا جيشه في اسيا الصغرى فحمل عليهم واوقع بهم ايقاعا بالقرب من نهر مياندرو واستولى على جزيرة قرفو وانتقم بذلك من عدويه السلطان عز الدين السلجوقي وروجر ملك صقليا

وخلفه ابنه الكسيس الثاني اندرونيكوس (١١٨٠— ١١٨٤) ولم يجر في عهده مايذكر ثم خلفه اسحق الملقب بالملك وفي مدته استرجع البلغار استقلالهم واغار الصقالبة على السلطنة فارتدوا عنها فشلين • وخلع هذا الامبرطور اخوه الكسيس الثاني وجلس على سريره ثم اعاد الصليبيون اسحق ثم خلعه اخوه ثانية واستبد

بالحكم الكسيس الخامس دوكاس فلم يلبث ان خلعه الصليبيون لمناوأته لهم واستولوا على القسطنطينية

﴿ فصل ﴾

في ذكر الفرنسويين الذين جلسوا على سرير القسطنطينية (١٢٠٤ــ ١٢٦١)

ونصب الصليبيون قائدهم الكونت بودوين او بلدوين صاحب بلاد فلندر على تخت القسطنطينيـة { ١٢٠٤ - ١٢٠٦ } • فقتل الكسيس وقسم الجانب الاوربي من السلطنة الى اربعة اقسام فكان احدها للامبراطور وهو ربع القسطنطينية وبعض القلاع بساحل اسيا والجزائر المجاورة للدردنيل والولايات التي كانت تخص التاج الامبراطوري وكان الثاني يشتمل على مقـدونيا وقسم من اغريقيا تحت اسم مملكة سلتيك والثالث يشتمل على سواحل البحر الادرياتيكي والبحر الاسود وقسم من المورة واكثر جزائر صقلاده واسبوراده واقريطش ونغربنطس وبلاد كليبولي والحق هـذا القسم بجمهورية البنـدقية والرابع عدة امارات ودوقيات اقطعت للقساورة الفرنسويين مثل دوقية اثينا وبيوسيا وامارة اخائية والمورة • بقيت ثلاثة الارباع الاخرى من القسطنطينية فهذه قسمت بين جماعة من رؤسـاء المحاربين الفرنسـويين والبندقيين والشراقيين • اما الجانب الاسيوي من السلطنة فاستقل تحت حكم امبراطور ولاه مجلس الشيوخ يدعى تيودوروس

لاسكاريس اتخذ نيقا كرسيا له . وقد قامت ايضاً امبراطورية اخرى من اشتات السلطنة عرفت بامبراطورية طرابزون وكانت على شواطئ البحر الاسود الجنوبية الشرقية وتولاها اميران من بيت الكسيس

ولما تولى بودوان المتقدم ذكره استعان عليه اهل الاغريق بيوانيس ملك البلغار فاتاه في جيش جرار وهو مشتغل بقمع ثورة في ادرنه وغلبه وقتله على ما يقال { ١٢٠٦ } فقام على تخت القسطنطينية بعده اخوه هنري دوهينوت { ١٢٠٦ - ١٢١٧ } فانتصر على البلغار والاغريقيين ثم قتل مسموما واجلس الجيش الفرنسوي مكانه بطرس دي كورتناي { ١٢١٧ } فاسره امير ابير وقتله في السنة نفسها ثم خلفه ابنه هنري دي كورتناي الى سنة ١٢٢٨ فاشتغل بملاذه عن تدبير ملكه وفقد اقاليم اسيا الصغرى وادرنه ثم قام بعده بودوان الثاني بن بطرس دي كورتناي(١٢٢٨-١٢٦١) فسافر الى اوربا يستمد النجدة ليقوى على البلغار من جهة وامبراطور نيقا من الجهة الاخرى فلم يجب الى سؤله فعاد الى القسطنطينية ثم لم يلبث ان استولى عليها امبراطور نيقا وطرده منها سنة ١٢٦١ ففر من وجهه الى ايطاليا ومات فيها { ١٢٦٣ }

فصل

في آخر ملوك القسطنطينية من اليونان(١٢٦١ ــ ١٤٥٣)

وقام هذا الفاتح تحت اسم ميخائيل الثامن باليولوغوس على سرير القسطنطينية (١٢٦١ ـ ١٢٨٢) فأتم حروبه في بلاد اليونان وبحر الارخبيل ثم ادركته منيته وهو يحارب التراسيين • وخلفه ابنه اندرونيكوس الثاني {١٢٨٢ —١٣٢٨ } فحكم حكم شؤم وضعف وقام بعده اندرونيكوس الثالث باليولوغوس { ١٣٢٨—١٣٤١ } فحالف كثيرين من ملوك اوربا على امل ان يساعدوه في رد غارة العثمانيين الذين كانوا قد افتتحوا قسماً كبيراً من املاكه الاسيوية وادركوا سواحل اوربا فلم يستفد من محالفته امراً مذكوراً ثم خلفه يوحنا الخامس باليولوغوس { ١٣٤١ — ١٣٩١ } فاشتغل بخصومات بيتية ومحاربات اهلية تارة بينه وبين ابنه وطورا بينه وبين بعض المدعين بحق لهم في الملك• وفي هذه الاثناء فتح العثمانيون كاليبولي { ١٣٥٧ } ثم فتحوا ادرنه التي اتخذها السلطان مراد كرسيا له {١٣٦١} ثم استولوا على مقدونيا وجانب من البانيا فقبل يوحنا بحمل الجزية الى سلطان العثمانيين ولما تولى بايزيد بعد مراد المذكور فتح كثيراً من مدائن اسيا • وفي سنة ١٣٩١ توفي يوحنا وجلس على التخت ابنه مانويل الثاني باليوغولوس { ١٣٩١ ـ ١٤٢٥ } وفي عهده حاصر السلطان بايزيد القسطنطينية ثم رفع الحصار وذهب لمحاربة المجر فتغلب عليهم وعاد الى القسطنطينية فعقد صلحاً مع ملكها سنة ١٣٩٧ وفي

سنة ١٤٠٠ حاصرها ثانية الا ان غارة تيمورلنك على السلطنة العثمانية اضطرته الى تركها والعودة الى اسيا ولما تولى السلطان مراد الثاني قصد القسطنطينية في جيش جرار ثم اضطرته بعض الحوادث الاهلية للرجوع عنها فعقد صلحاً مع ملكها وقام بعد مانويل الثاني ابنه يوحنا السابع { ١٤٢٥ - ١٤٤٨ } ورأى الخطر المحدق بدولته فالتمس من البابا الدعوة الى حرب صليبية للدفاع عنه ووعد بتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية الا ان اوربا كانت مشتغلة عن تلك الدعوة بمنازعاتها الداخلية وفي سنة ١٤٤٤ حاصر السلطان مراد خان القسطنطينية ثم انصرف عنها لما اكثر يوحنا من الضراعة اليه بذلك وخلف يوحنا هذا اخوه قسطنطين الثالث عشر داركوسيس { ١٤٤٨ - ١٤٥٣ } وكان لم يبق له من الملك الا القسطنطينية وبقعة صغيرة حولها فاستنجد بملوك اوربا فلم يجيبوه الى سؤله فحاصره السلطان محمد الثاني الفاتح ولم تكن حامية القسطنطينية الا اثني عشر الف جندي وكانت محصنة بالقلاع التي تقذف النيران وكانت بمدخلها سلسلة ترد السفائن عنها . اما محمد الفاتح فاستصنع طريقاً امر السفن من فوقها حتى انزلها داخل المينا وفتح المدينة بعد ان دام حصارها ثلاثة وخمسين يوماً وجاهد قسطنطين في الدفاع جهاد الابطال حتى قتل وكانت سنة ١٤٥٣ . وفي سنة ١٤٦٠ خضعت للاتراك امارة المورة

وكان قد استقل بها اثنان من ابناء قسطنطين المذكور آنفاً وفي سنة ١٤٦١ خضعت دولة طرابزون وعلى هذه الصورة انحلت السلطنة الشرقية وقامت في مكانها الدولة العثمانية

﴿ فصل ﴾

في تأثير السلطنة الشرقية على الامم التي استحدثت

كان من نوابغ الفلاسفة والعلماء والكتاب نفر قلائل في هذه السلطنة اذ اقتصر شغل المشتغلين فيها على التحدي والنقل ولا شك انهم بذلك افادوا كثيراً لانهم حفظوا كنوز اللغة اليونانية الاصلية من العلوم والآداب . وكانت للبيزنطيين اليد الطولى والمكانة الاولى في فن البناء والنقش حتى ان القوط اخذوا عنهم ومن اجل مآثر ملوكهم جمع القوانين واخصها ما تركه يوستينيانوس . وهم الذين جلبوا دود القز واتخذوا الانسجة منه وابتنوا الطواحين التي يديرها الهواء

وكانوا على الجملة اهل دعة ورخاء لا حزم لهم في السياسة ولا عزم يدفعهم على الاعمال الخطيرة ولم يكن عندهم من حب الوطن مثقال ذرة لمقتهم حكامهم واشتداد وطأة المظالم عليهم ولولا هذه المعايب التي كانت تقرض جسم مجتمعهم لما اسرع اليهم الفناء مع المنعة التي كانت عليها سلطنتهم وعلى الخصوص عاصمتها .

الباب السادس والعشرون

في ذكر كلوفيس والميروفنجيين (٤٨١ — ٧٥٢)

فصل

في الافرنك

في القرن الثالث قبل الميلاد تألف من الجرمانيين على الضفة اليسرى من الرين اتحادان احدهما في الغرب وهو اتحاد القبائل السويفية التي دعيت بالالامين اي الرجال والاخر في الشمال وهو اتحاد السالين والسيكمبر والبروكتر والشيروسك والكاتيين وطيرهم ودعوا بالافرنك اي الباسلين

واول ما جرى من ذكر الافرنك على اقلام الكتاب الرومانيين كان في سنة ٢٤١ حين دحرهم النائب اوريليان بقرب الرين الادنى. ومن الافرنك اناس بلغوا اسمى المناصب في السلطنة الغربية. منهم ابروغاست الذي كان الوزير الاول لفالانتينيان الثاني ثم تقلد الارجوان واستقل بقومه وبلاده وبعد وفاة هذا الرجل باثنتي عشرة سنة حاول الافرنك صد الغارة الكبرى التي جرت في سنة ٤٠٦ فلم يستطيعوا

ورأوا ان الامبراطور تخلى عن داخلية البلاد الغالية ففتحوها واحدثوا اربع ممالك وهي كولونيا وتورناي وكامبراي وتيروان. وكان احد الملوك الاربعة كلوديون وهو اول ملك

ثبت وجوده بالتحقيق وقيل ان رجلا يدعى فارامون كان مالكاً قبله والادلة قليلة على صحة هذا القول . وكان من كلوديون المتقدم ذكره انه فتح توروناي وكمبراي وقتل جميع الرومانيين الذين وجدهم فيهما وتقدم الى مدينة سنس فغلبه القائد الروماني اكتوس {٤٤٨} . ولم يعش الا قليلا بعد انكساره ثم خلفه قريبه ميروفي رأس السلالة الميروفنجية فاتحد مع سائر الشعوب البربرية في غاليا لمحاربة اتيلا بقرب شالون على ما رويناه ويقال انه قتل في هذه الموقعة ثلاثمئة الف محارب

وفي سنة ٤٥٨ خلفه ابنه شيلدريك وكان سكيراً فاسد الاخلاق فطرده الافرنك وولوا مكانه القائد الروماني اجيدوس وبعد ثمانية اعوام استرجعوه وحكم الى ان ادركه اجله سنة ٤٨١ . وخلفه ابنه شلودويك او كلوفيس مؤسس المملكة الافرنكية

فصل

في ذكر كلوفيس (٤٨١)

وفي سنة ٤٨١ كان كلوفيس ملكاً على بعض المراكز من بلجكا وقائد اربعة او خمسة آلاف مقاتل من الافرنك الساليين وبعد توليه الحكم بخمس سنين حالف رانيا شير ملك كمبراي وتغلب على سياغريوس بن اجيدوس بقرب سواسون وكان عاملاً

لرومة على البلاد الواقعة بين نهري السوم واللوار ففرسياغريوس
ولجأ الى بلاد الويزقوط فاكرههم كلوفيس على تسليمه له
واعدمه واخضع تلك البلاد ، وفي سنة ٤٩٣ تزوج بكلوتيلدا
ابنة ملك البرغند وكانت مسيحية ارثوذكسية فاستبشر الاساقفة
بهذا القران وفتحوا للملك ابواب اميان وبوفاي وباريس وروان.
والمروي ان الالامين كانوا قد تجاوزوا الرين فذهب كلوفيس
لمقاتلتهم وكاد يتقهقر امامهم فدعا اله كلوتيدا فعادت اليه
شجاعته ففاز على اعدائه وردهم منكسرين الى ما وراء النهر
حتى بلاد السواب . وفي رجوعه من هذه الحرب تنصر في
كنيسة رمس وتنصرت معه اخته (٤٩٦)

وكان كلوفيس قد حالف اهل بلاد الارموريك ففتك
بالبرغند (٥٠٠) وكسر ملكهم وضرب عليه الجزية وبعد هذا
الانتصار حارب الويزيقوط فقتل ملكهم الاريك الثاني بقرب
بواتيه (٥٠٧) ففتحت له ابواب فوجله وسنت وبوردو وتولوز
وبرجوعه من هذه الحملة الى باريس التي كانت كرسيه وجد
سفراء قد اتوه من قبل الامبراطور انسطاس بالارجوان
والاعتراف بملكه . وفي اواخر سني حياته قتل ملكي كولونيا
وملك كمبراي وملك منس وضم بلادهم الى مملكته وتوفي سنة ٥١١ في
الخامسة والاربعين من عمره ودفن في كنيسة الرسل التي كان

قد شيدها واستمر حكمه ثلاثين سنة

﴿ فصل ﴾

في ابناء كلوفيس (٥١١ـ ٥٦١)

اقتسم ابناء كلوفيس الاربعة ملكه وجنوده الامناء وافتتح احدهم وهو ملك متس تورنجيا واخواه وهما ملك سواسون وملك باريس بورغونيا · وفي سنة ٥٣٣ سار ملك متس بقومه الاسترازيين للفتك بالاستروقوط الايطاليين فاجلوهم عن عدة ولايات ايطالية واجتازوا جبال الالب واستباحوا ايطاليا كلها حتى وصلوا الى بوغاز مسينا · وفي ذلك الوقت استولى ملكا باريس وسواسون على ولاية بمبلونه في اسبانيا · فكانت سلطة الافرنك قد تجاوزت حدود غاليا واعترف لهم الالامانيون والبافاريون بالسيادة. وحمل السكسونيون اليهم الجزية

﴿ فصل ﴾

في ذكر فريدغوند وبرونهو ومعاهدة اندلو (٥٨٧)

وفي سنة ٥٥٨ خلف كلوتير ملك سواسون وليموج اخوته الثلاثة فاتحدت المملكة الافرنكية ثانية بين يديه ولما دنا اجله قسمها بين بنيه الاربعة · ومن ذلك العهد وقع الشقاق والتناظر بين الافرنك الشرقيين او الاسترازيين والافرنك الغربيين او النستريين · وكان سيجبرت ملك اوسترازيا قد تزوج برونهو

ابنة اتاناجلد ملك الويزيقوط وتزوج شيلبريك غالسوينت اخت برونهو وكانت للاخير معشوقة تدعى فريدغوند فاحتالت حتى اماتت ضرتها خنقاً واخذت مكانها { ٥٦٧ } . فحملت برونهو زوجها على محاربة ملك نستريا انتقاماً لاختها ففعل وانتصر عليه واوشك ان يضم تاج نستريا الى تاجه لولم يعاجله القضاء المبرم اذا اوعزت فريدغوند الى اثنين من خدمها الامناء بقتله فطعناه في جنبيه بمديتين مسمومتين فمات (٥٨٥) عن ولد قاصر تولى مدير القصر ادارة الشؤون بالنيابة عنه

ثم قتل شيلبريك في سنة ٥٨٤ واغار بعد ذلك اللمبرديون على بروفنسا وقامت ثورة في غربي غندولند اشترك فيها المحاربون من برغند واسترازيين فاتحد غنتران ملك اورليان وشيلدبرت الثاني ملك استرازيا لاخماد الثورة وعقدا بينهما معاهدة اندلو القاضية على من يموت منهما بلا ذرية بان يستخلف الآخر . ولكن الملك لم يلبث ان عاد الى برونهو بالوصاية على حفيدين لها قاصرين وكانت ذكية عالمة فحكمت في استرازيا وبرغونيا مؤيدة للعدل منشطة لارباب الفنون مدمرة لعبادة الاوثان معضدة للدين المسيحي كابحة لجماح اللود واللود اسم جماعة العساكر الذين كان يختصهم ملوك ذلك الزمان وقد اشتدت مطامعهم في عهد احفاد كلوفيس حتى كانت كمطامع الحرس من قبلهم في البلاط

الروماني . فاتفق هؤلاء سرامع كلوتير الثاني ملك باريس وابن فريدغوند على ان يولوه استرازيا وبرغونيا وينقذهم من الوصية برونهو فحاربها كلوتير واضاف مملكتها الى مماكته وذبح حفيديها واماتها معلقة بذيل جواد جموح (٦١٣)

{ فصل }

في ذكر كلوتير الثاني (٥٨٤) وداغوبرت (٦٢٧)

واتحدت المملكة الافرنكية للمرة الثالثة على يد كلوتير الثاني وعقد فيها مجمع باريس الديني الكبير وبعد وفاة هذا الملك خلفه داغوبرت وكان عهده اجمل عهد للميروفنجيين فانه اكسب الافرنك النفوذ الاول والسطوة الكبرى في اوربا الغربية . ورد غارات امم كثيرة وحالف اخرى واخضع اخرى واحسن اختيار وزرائه وطاف في جوانب بلاده يفصل المشكلات ويصلح القوانين ويعضد التجارة والصناعة فاحبه الشعب كثيراً ومات سنة ٦٣٨

{ فصل }

في ذكر الملوك المتقاعدين ومديري القصور الملكية وابروين وببين الهريستالي (٦٣٨ — ٦٧٨)

وخلف داغوبرت ملوك خاملون متقاعدون طمع في خلافتهم مديرو قصورهم . ومن هؤلاء مدير لبلاط نستريا

يدعى غريمولد قتله عساكر الحرس المعروفون باللود سنة ٦٥٦ . ومنهم آخر يدعى ابروين كان مديراً لبلاط نستريا فاشتد على اللود ليضعفهم وقتل منهم كثيرين ونفى كثيرين فاتفق اللود الاسترازيون مع هؤلاء المنفيين وقتلوا ملكهم الميروفنجي سنة ٦٦٧ ومنحوا سلطته لمديري بلاطه مارتين وبين الهريستالي تحت لقب اميري الافرنك وذهبوا لمحاربة ابروين تحت قيادة بين فالتقوا جيشه في لاتوفاوه فظهر عليهم ولكنه ادركته منيته بعد ذلك بقليل فانتصر بين على جنوده في موقعة تستريا بقرب بيرونا واخذ نستريا فخضعت لاسترازيا وكان ذلك سنة ٦٨٧ واصبح بين من ذلك اليوم ملكا حقيقياً ولكن بدون لقب .

الباب السابع والعشرون

في الفتح الاسلامي ودولة الخلفاء الراشدين (٥٧١ـ٦١١)

﴿ فصل ﴾

في ترجمة صاحب الشريعة الاسلامية وقيام دعوته

ولد النبي محمد حين طلوع فجر يوم الاثنين تاسع ربيع الاول من عام الفيل وهو الموافق لليوم العشرين من شهر نيسان سنة ٥٧١ من ابوين كريمي العنصر عظيمى الجاه وكان مولده

بمكان بمكة يسمى الشعب وكان ابوه قد مات قبل مولده بشهور ثم توفيت امه وعمره ست سنين فكفله جده عبد المطلب ثم مات عنه وعمره ثماني سنوات فكفله عمه ابو طالب . ولما بلغ العشرين من العمر وكلت اليه خديجة بنت خويلد ان يذهب الى الشام في تجارة لها وكانت من شريفات العرب وربات الحصافة والحزم فسافر وربح وعاد ثم تزوجها وكان عمره خمساً وعشرين سنة وهي في اربعين من السن . وكان يختلي بغار حراء في كل سنة شهراً فيتعبد فيه ليالي معلومة الى ان بلغ الاربعين فاتاه الوحي على رأسها فشرع في نشر دعوته وكان لا يظهرها الا لمن يثق به فكان اول من تبعه خديجة زوجته وعلي بن ابي طالب وزيد بن حارثة مولاه ثم ابو بكر وعثمان بن عفان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص وكثير غيرهم من سادة العرب ولما اشتد ساعده باتباعه جاهر بدعوته فاستهزأ به كثير من كبار مكة وبصحبه والحقوا بهم الاذى فاشفق عليهم وامرهم بالهجرة الى الحبشة وبقي في مكة زمانا فاستعصى عليه امر اهلها فهاجر الى المدينة وكانت هذه الهجرة مبدأ التاريخ الاسلامي فوصلها في ثامن ربيع الاول من السنة الاولى للهجرة وآخى فيها بين المسلمين من مهاجرين وانصار ثم غزا غزوة بدر الاولى وغزا بعدها بني قينقاع من اليهود ثم

كانت غزوة السويق ثم غزوة احد وجرح فيها ثم غزوة بني النضير ثم غزوة ذات الرقاع ثم غزوة بدر الثانية ثم غزوة الخندق التي انتصر فيها على جماهير اعدائه انتصاراً مبينا الى سائر ما ذكره المؤرخون من هذه الوقائع ومما يخلق بالذكر منها غزوة مؤتة بين الروم والمسلمين في السنة الثامنة وقد نال المسلمون النصر فيها على يد خالد بن الوليد ثم فتح مكة ويوم حنين وحصار الطائف. ولما قويت شوكة النبي كتب الى ملوك العرب والعجم يدعوهم الى دينه فاجابه بعضهم وابى الاكثرون. وكان الاسلام ينتشر انتشاراً عجيباً بين العرب. وفي تمام السنة العاشرة حج حجة البلاغ وتعرف ايضاً بحجة الوداع وعاد بعدها الى المدينة فاقام بها الى اواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة واعتراه مرضه الذي توفي به. وكانت وفاته لاثنتي عشرة خلت من شهر ربيع الاول وله ستون سنة قمرية وثلاثة ايام

﴿ فصل ﴾

في خلافة ابي بكر الصديق (١١ــ ١٣ هـ)

كان النبي عند دنو اجله قد امر ابا بكر بالصلاة بالناس نيابة عنه فلما توفاه الله اجتمعت كلمة المسلمين على مبايعة ابي بكر (١١) وكان صديقاً عادلاً بدد جيوش المرتدين وجيوش مسيلمة الذي ادعى النبوة ببلاد اليمامة وامر بجمع القرآن من افواه

الرجال وجريد النخل والجلود وامر خالدا بن الوليد بالزحف على العراق ففتح الحيرة صلحا {١٢} وكذلك امر عبيدة بن الجراح بفتح الشام ثم بعث خالداً من العراق لانجاده فوقعت بين المسلمين وبين جنود هرقل من الروم مواقع شديدة اشهرها موقعتا اجنادين واليرموك على ما تقدمت الاشارة اليه {١٣} وبعد ذلك فتح المسلمون بصرى على منعتها وفي خلال ذلك توفى الله ابا بكر الصديق

فصل

في خلافة عمر بن الخطاب (١٣ — ٢٣)

فبايع المسلمون عمر {١٣} وكان حكيماً صالحاً باسلاً فصيحاً محباً للعدل والانصاف . من آيات حكمه قوله في اول خطبة خطبها ايها الناس والله ما فيكم احد اقوى عندي من الضعيف حتى اخذ الحق له ولا اضعف من القوي حتى آخذ الحق منه

وفي اوائل عهده تم فتح دمشق بعد ان دام حصارها سبعة اشهر ثم فتحت بعلبك وحلب وانطاكية. اما القدس فامتنع امرها على المسلمين فتولى عمر بن الخطاب بنفسه امر صلحها وولى عليها علياً بن ابي طالب . وفي سنة ١٦ تم فتح جميع بلاد فلسطين ومرعش . ثم ان عمر استفتح العراق واجلى من بها من العجم وارسل عمراً بن وقاص على بلاد الفرس فجرت له فيها وقائع

مشهورة واستولى على المدائن والحصون حتى فتح كتازيفون قصبتها وانزل ملكها واخذ املاكها الخارجية وغنم ما يضيق دون استيفائه الوصف من الغنائم الثمينة . وكان قد تفشى طاعون هائل في جيش المسلمين بالشام ومات به قائدهم ابو عبيدة فخلفه معاذ بن جبل الانصاري فمات به ايضاً فخلفه عمرو بن العاص . ولما قدم عمر بن الخطاب الشام لتقسيم مواريث الذين اماتهم الوباء من المسلمين زين له ابن العاص فتح مصر فاذن له به بعد عناء وعقد له على اربعة آلاف مقاتل

فسار بهم حتى بلغ العريش ومنها مدينة تدعى فرما وكانت معقلاً حصيناً على حدود مصر فقاتل الروم شديداً حتى ظهر عليهم بعد شهر واستأنف السير متقدماً نحو بلبيس فلقيه فيها جيش آخر فابلى فيه بلاء حسناً وفتح هذه المدينة على منعتها وكتب الى عمر بن الخطاب فامده باربعة الاف رجل اخرين فسار بمن معه حتى نزل على حصن بابليون وهو من صنع الفرس ايام كانوا مالكي مصر وكان هذا الحصن بقرب مدينة منفيس وكانت مقراً للمقوقس عامل الروم على مصر فبقي المسلمون سبعة اشهر في حصار الحصن حتي فتحوه فلجأ المقوقس الى جزيرة في النيل وقطع اتصالها بالبر وارسل الى عمرو بن العاص في طلب الصلح فاجابه اليه على ان يسلم وقومه او يدفعوا الجزية

فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وكان عمر بن الخطاب قد امد ابن العاص باربعة الاف مقاتل آخرين في مقدمة كل الف منهم قائد من اكبر قواد المسلمين فلم يجد المقوقس حيلة الا في القبول بالجزية ففرض على كل قبطي في القطر المصري ديناران قيل فبلغت جملة الجزية السنوية اثني عشر مليونا . ثم ان المقوقس كتب بما فعله الى ملك الروم فاجابه بالتأنيب على ذلك وقال له ان عندك نحو مئة الف من الروم بين من معك ومن في الاسكندرية فكنت جديراً ان تقاتل بهم ان ابى الاقباط ان يفعلوا . ولكن المقوقس كره ان يخرج مما دخل فيه من الصلح ثم اتت جيوش الروم نجدة لمن بمصر من جنودهم وقاتلوا العرب مراراً فانتصر العرب عليهم وما زالوا بهم حتى حصروهم في الاسكندرية فاحدقوا بها وضايقوها اربعة عشر شهراً وكانت في خلال ذلك الميرة والعلوفة تأتي العرب من القبط وتأتي الروم في الاسكندرية من البحر غير ان المسلمين ما برحوا ان فتحوا الثغر المذكور وكان ذلك في ٢٢ دسمبر سنة ٦٤٠ للميلاد وهو يوافق يوم الجمعة من شهر محرم سنة ٢٠ للهجرة . ويقال ان عمراً احصى سكان الاسكندرية بعد ذلك فكانوا ستمائة الف او يزيدون . وينسب الى هذا الفاتح احراق مكتبة الاسكندرية الشهيرة والمحققون على خلاف ذلك لما ثبت من ان جانباً من

الكتب التي كانت فيها احترقت في حروب كليوباترا وان الكثير مما كان باقياً نقل الى رومة والقسطنطينية. ثم ان عمراً بن العاص عاد من الاسكندرية الى المكان الذي كان فيه حصن باب اليون وكان قد حاصره جنوده قبلا وابتنى هناك مدينة الفسطاط وهى المعروفة الان بمصر العتيقة وشيد جامعه المعروف باسمه وفتح خليجاً كبيراً يصل النيل بالبحر الاحمر ودعاه خليج امير المؤمنين وكان الخليفة عمر اول من اتخذ هذا اللقب. وابطل بدعا قبيحة للمصريين منها ما كانوا معتاديه من القاء فتاة في النيل على رأس كل فيضان

على ان عمر بن الخطاب اول من اتخذ الديوان وفي خلافته بنيت البصرة {١٤} واختطت الكوفة {١٧} وفي سنة ٢٣ توفي هذا الامير العظيم بطعنة خنجر طعنه اياها ابو لؤلوءة فيروز عبد المغيرة بن شعبة . وكان قد عرض الخلافة على عبد الرحمن بن عوف فابى

فصل

في خلافة عثمان بن عفان (٢٤ـ٣٥)

فبويع عثمان بالخلافة وفي عهده نقضت الاسكندرية الصلح بايعاز من الروم الذين كانوا ياخذون ميرتهم واقواتهم منها واتاها جيش من مقاتلتهم واسطول ضخم للاخذ بناصرها غير

ان النصرة بقيت للمسلمين بعد مواقع شديدة جرت بين الفريقين ثم لحقوا باعدائهم الى الاسكندرية فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ودمروا اسوار الاسكندرية وغنموا اسطول الروم فوق ما كانوا قد غنموه من سفائنهم في الشام فحصلت من ذلك عندهم عدة كافية للغزو في البحر ففتحوا قبرص وصالحهم اهلها على الجزية {٢٨} ثم حاربوا الروم في السفن فهزموهم في موقعة السواري التي كان قسطنطين يقصد بها افتتاح الاسكندرية. وتم للمسلمين عدا هذه النصرات في عهد عثمان بن عفان فتح افريقية وكرمان وسجستان وكابل. وفي سنة ٣٥ قامت فتنة بين العرب على امير المؤمنين وكان صالحاً يكره الشدة ففقدت من اجل تساهله هيبة الخلافة فرموه وهو على منبر الصلاة بالحصى ثم حاصروه في داره اربعين يوماً ثم تسوروا عليه داره ونزلوا عليه وقتلوه

﴿ فصل ﴾

في خلافة علي بن ابي طالب (٣٥ ـ ٤٠)

فبويع بالخلافة علي بن ابي طالب وكان افصح العرب لسانا واذكاهم جنانا وكان كما قيل فيه بعيد المدى شديد القوى يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه يستوحش من الدنيا وزهرتها ويانس بالليل ووحشته. غزير العبرة طويل الفكرة يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب. كان فينا

كاحدنا يجيبنا اذا سألناه . ويأتينا اذا دعوناه . ونحن مع تقريبه لا نكاد نكلمه هيبة له . لا يطمع القوي في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله . ومن ادل الامور على علو نفسه وزهده في عظمة الدنيا قوله المشهور للمهاجرين والانصار الذين اتوه يبايعونه {أن أكون وزيراً لكم خير من ان اكون اميراً ومن اخترتم رضيته}

وبعد ان بايعه طلحة والزبير في جملة الناس تمالآ على نقض امارته بدعوى انه اكرههما على ما فعلا فحاربهما في موقعة الجمل الشهيرة فقتلهما فيها . ثم انقلب يحارب معاوية فالتقت جنودهما بصفين فاقتتلت شديداً ثم تهادنا وافترقا على حزازات واستقل معاوية في الشام . وحدث ان ثلاثة من الخوارج اتفقوا على قتل علي ومعاوية وعمر بن العاص بدعوى اراحة البلاد من أئمة الضلالة فلم يقتل من الثلاثة المقصودين الاعلى وكان عمره ثلاثا وستين سنة

﴿فصل﴾

في خلافة الحسن بن علي بن ابي طالب (٤٠ ـ ٤١)

ولما توفي علي بايع الناس ابنه الحسن فخرج من الكوفة الى المدائن لملاقاة جيش معاوية ثم آثر حقن دماء المسلمين على التشبث بالسلطة فبعث الى معاوية بتسليم الامر اليه على شروط

فقبلها وانصرف الحسن واهل بيته الى المدينة وانتهى به عهد الخلفاء الراشدين

الباب الثامن والعشرون

في دولة بني أمية (٦١١ ـ ٨٤٣)

فصل

في خلافة معاوية (٤١ ـ ٦٠)

لما بويع معاوية اتخذ مدينة دمشق مركزاً للخلافة وكان ذا دهاء وبسالة وسياسة حسنة عدا انه كان شديداً يعاقب على شبهة ويقتل في ظن واجتمعت في عهده الف وسبعمئة سفينة للعرب فرمى بها جزائر الروم وافتتحها وغنم المسلمون منها الشيء الكثير ثم جهز جيشاً كثيفاً تحت قيادة سفيان بن عوف لفتح القسطنطينية وارسل الاساطيل الكثيرة لمحاصرتها من البحر فلم يتمكن منها واتلفت نيران الروم اكثر سفنه . ولكنه استعاض عن هذا الفشل بفتح بلاد افريقيا على يد عقبة بن نافع الجهني الذي انتصر على الروم في عدة وقائع هناك وشيد مدينة القيروان معقلاً ومأمناً لعساكره واوغل في بلاد البربر فادخل الكثيرين منهم في دين الاسلام وادرك طنجه فصالحه حاكمها جوليان على الجزية واستمر في مسيره حتى ادرك بحر الظلمات

وبينما كان عائداً منه قتله البرابرة غيلة وفتحوا القيروان وتقلص بذلك ظل المسلمين منها الى ان استعادوها فيما بعد . ومن مآثر معاوية انه اتخذ للخلافة المظاهر النفيسة وسكن المقاصير واقام عليها الحرس وسير صاحب الشرطة بين يديه ووضع البريد واخترع ديوان الخاتم ليمنع التزوير بالتواقيع وكان عمره حين ادركته منيته خمسا وسبعين سنة وكان قد استوثق من الناس ليبايعوا ابنه يزيداً من بعده وكتب له بذلك عهداً

﴿ فصل ﴾

في خلافة يزيد الاول بن معاوية (٦٠ـ ٦٤)

قضى هذا الخليفة زمان خلافته في مناوأة الذين ابوا مبايعته وكان في مقدمتهم الحسين فقتله قائد يزيد واحتز بعضهم رأسه في موقعة كربلا وكذلك ارسل جيشاً على المدينة ففتحها واستباح اهلها ثم بعث يحاصر مكة ومات فى خلال ذلك وكان بغيضاً الى المسلمين مذموم السيرة وهو من اكابر الشعراء

﴿ فصل ﴾

في خلافة معاوية الثاني بن يزيد ومروان بن الحكم (٦٤ـ٦٥)

اما معاوية فلم يستقر في الخلافة الا ثلاثة اشهر ثم تخلى عنها ومات بالطاعون واما مروان فتولى في الشام ومصر بعد ان طرد عامل ابن الزبير منها وتولى ابن الزبير الخلافة في الحجاز

والعراق واليمن . وكانت وفاة مروان مخنوقا بامر امرأته ام خالد بن يزيد

﴿ فصل ﴾

في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ــ ٨٦)

بويع بالخلافة بعد وفاة ابيه مروان بن الحكم وانتقم للحسين واهل البيت من عبد الله بن الزبير واصحابه وازال الفتن الداخلية واستقام له الملك على جميع الامصار الاسلامية ثم وجه عامله على افريقيا زهيراً بن قيس البلوي وكان مقيماً ببرقة للطلب بدم عقبة بن نافع من كسيله زعيم البربر فحاربه والافرنج والبربر الذين معه بجهة القيروان واشتد القتال الى ان قتل كسيله ووجوه جنوده ثم رجع من القيروان الى برقة فوجد الافرنج محاربيها باساطيلهم وجمهور كبير من رجالهم فهاجمهم على قلة من معه فقتل اكثرهم ثم صدر امر عبد الملك الى حسان بن النعمان الغساني بالزحف عليهم فكان اول قصده قرطاجنة فافتتحها ثم امر بتخريبها لعصيانها عليه ثم هزم الافرنج ببلاد صطفورة وبنزرت وحارب الكاهنة الشهيرة داهية في عدة مواقع الى ان قتلها وكانت قد خربت في وجهه القرى والضياع من طرابلس الى طنجه وعند ذلك استأمن اليه سائر البربر وأسلم معظمهم فاتخذ منهم اثني عشر الف جندي لايفارقونه

في مواطن الجهاد وعاد الى القيروان ثم ورده امر عبد الملك بن مروان فشيد دار الصاعنة بتونس وابتنى فيها مئات من السفن . والى هنا انتهت الاعمال العظيمة التي تمت في زمان الخليفة عبد الملك وتوفاه الله وكان اول من ضرب السكة في الاسلام

﴿ فصل ﴾

في خلافة الوليد عبد الملك بن مروان (٨٦ ـ ٩٦)

مد الفتوحات الى جبال الاطلس القصيا في داخل افريقيا وخضعت له القبائل في جنوبها وشمالها وفتح كثيراً من بلاد ما وراء النهرين وبلاد الترك وبلادالروم وجزيرة سردينيا وبلاد الهند وبلاد الاندلس التي سيأتي حديث غزوها في باب منفرد وفي الجملة فقد كان حكم الاسلام في زمنه منتشراً الى مسافة مئتي يوم من المشرق الى المغرب ومن بلاد التتار الى بحر الظلمات وامر بضرب النقود على صورة جديدة وجعل الدواوين والارقام بالعربية لا باليونانية كما كانت وتوفي بدير مران عقيب تسع سنين من خلافته

﴿ فصل ﴾

في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩)

كان فصيحاً وسيما ميمون الطالع والمختتم في الخلافة حاول

غزو القسطنطينية فارسل اليها ١٨٠٠ سفينة ولكنه لم يفلح

﴿ فصل ﴾

في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ــ ١٠١)

ولي الخلافة بعهد من سليمان وكان حكيما شريف المقاصد راغباً في تعزيز الدولة ومنع زيادة اتساعها مخافة ان تضعف وكانت لجنوده نصرات في شمال الاندلس وجنوبي فرنسا ايام تداعي الدولة الميروفنجية الى السقوط وامتدت فتوحات عماله في بلاد البربر وكانت له هيبة ومحبة عند الملوك ومن اشرف ما يذكر له خطبته الاولى يوم ولايته فقد قال ايها الناس والله ما سألت الله هذا الامر قط في سر ولا علانية فمن كان كارهاً لشيء مما وليته فالآن اه . فقال بعض الحضور سبحان الله وليها ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يقولوا هذا

﴿ فصل ﴾

في خلافة يزيد الثاني بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥)

كان محباً للهو والاسراف ولم يحصل في زمنه ما يليق بالتدوين

﴿ فصل ﴾

في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥)

قاتل الترك في اول عهده فانتصر عليهم ودخلت جنوده

بلاد فرغانة وخوقند . وكذلك فتح بلاداً من وراء النهر وكان عامله على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي فغزا في فرنسا غزوات كثيرة ووصل في بعضها الى مدينة بوردو ثم رأى ان يفتح هذه البلاد كلها فقطع جبال البرانس (البيريناي) ودخل ولايتي اكيتانيا وبورغونيا فحشد كارلوس مارتل الجنود من غاليين وجرمانيين لمقاتلته والتقى به في ارض تدعى ببلاط الشهداء فيما بين مدينتي تور وبواتيه وكان العرب قد اضعفهم انقسامهم فظهر عليهم بعد قتال دام سبعة ايام وقتل فيه خلق كثير

وكان عامل هشام على المغرب عبيد الله بن الحجاب فاصلح احوال البلاد واحسن سياستها وجاوز السوس الاقصى غزواً الى السودان وفتح جزيرة صقليا وضرب الجزية على اهلها ثم انتقض عليه البربر فعزله هشام وولى كلثوما بن عياض ووجهه اليهم في ثمانين الفاً فهزمهم البرابرة فشق ذلك على الخليفة ووجه حنظلة بن صفوان الكلبي واليا على المغرب فقاتلهم بظاهر القيروان ثم استلحمهم الى ان هزمهم وكان عدد القتلى في تلك المعركة ١٨٠ الفاً على ما ذكره مؤرخو العرب

﴿ فصل ﴾

في خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ــ١٢٦) ويزيد الثالث بن الوليد (١٢٦) وابراهيم بن الوليد (١٢٦ ــ ١٢٧) ومروان بن محمد (١٢٧ ــ ١٣٢)

كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك عاكفاً على البطالة وحب القيان والملاهي والشراب فقام يزيد بن الوليد بن عبد الملك يدعو الى نفسه فاجتمعت عليه اليمانية ثم قاتل الوليد الى ان قتله وتولى مكانه ولم يحدث في عهده ما يذكر في الخارج لشدة اتساع الفتنة على دولة بني امية وقرب انتقاض اركانها ، ولم يستبد بالامر الا خمسة اشهر واياما ثم توفاه الله وخلفه ابراهيم بن الوليد غير مجمع على مبايعته ثم اتى مروان بن محمد والى الجزيرة وخلعه واستقر في كرسيه ، وهو آخر خلفاء بني امية وكان من احزمهم وابلغهم الا انه تولى والامر مدبر عنهم فلم تفلح مساعيه الجسام في اخماد الثورات المشبوبة ، وكان بنو العباس قد قوي حزبهم بخراسان وانتشرت الدعوة لهم في الشام والعراق وغيرهما وكان داعيتهم رجلاً يدعى ابا مسلم من ذوي الدهاء والبأس قاتل امير خراسان حتى استولى على مدينة مرو ونزل قصر الامارة واخرجه منه منهزما ، وكان المدعو له ابرهيم بن محمد فلما قبض عليه مروان اوصى بالخلافة لاخيه السفاح وبقي السفاح مستخفياً في الكوفة زمناً ثم ظهر ودخل دار الامارة وقام بالامر فحشد مروان الجيوش لمقاتلته فالتقى العسكران على نهر الزاب فكان النصر للسفاح وفر مروان لا يأوي الى قطر الا يخرج منه لاجئاً الى آخر حتى نزل مصر فقتله رجل كوفي فيها وكان عمره

لما قتل اثنتين وستين سنة وكانت الدولة العربية في عهد الامويين قد امتدت من بحر الخزر الى المحيط الاتلانتيكي ومن نهر الكنج الى شمال اسبانيا وكانت دولتهم على الجملة دولة غنم وفتح ودولة بني العباس دولة سعد وعلم على ماستراه ان شاء الله

﴿ الباب التاسع والعشرون ﴾

في الدولة العباسية (٧٥٠ — ١٢٥٨)

﴿ فصل ﴾

في خلافة السفاح (١٣٢ — ١٣٦هـ)

لما انتقل الملك الى آل العباس كان اول من تولى الخلافة منهم ابو العباس السفاح وكان كريماً وقورا عاقلا تحول عند ما بويع بالخلافة الى الانبار ولما استوثق له الامر ودانت له الجهات تتبع بقايا بني امية ورجالهم فوضع السيف فيهم فلم يفلت منهم الا الرضيع او من هرب الى الاندلس واستصفى اموال من صحبهم او خدمهم ولم تطل مدة السفاح فمات بالانبار (١٣٦) وفي خلافته استولى قسطنطين ملك الروم على ملاطية

﴿ فصل ﴾

في خلافة المنصور (١٣٦ — ١٥٨)

استبد بالامر بعد منازعة طالت بينه وبين عمه عبد الله

ابن علي وانجلت عن قتل عبـد الله المذكور ثم قتل ابا مسـلم
مجلس بني عباس على تخت الخلافة بمساعيه ودهائه وذلك لخرقه
حرمة الادب في حضرته • وفي خلافته سار جيش عظيم على
ملاطية ليعمر تلك المدينة فلقيه الروم فدحرهم وفي خلافته
ايضا تأسست الدولة الاموية بالاندلس على يد عبد الرحمن بن
معاوية بن هشام بن عبـد الملك فانه هرب من وجه السفاح
وسار من جهات الفرات الى جبال المغرب وكان واليها اذ ذاك
عبد الرحمن بن حبيب من آل عقبة بن نافع وبعد ان هام على
وجهه زمنا في قفار افريقيا آواه بعض شيعة بني أمية بالمغرب
الاقصى وما زال مستخفيا حتى امكنته الفرصة وسكنت عنـه
العيون فعبر في نفر قليل الى الاندلس فتلقـاه اهلهـا بالترحاب
واقاموه ملكا عليهم (١٣٩ هـ) واسـتقام امره بالاندلس وبنى
بقرطبه المسجد الجامع وغيره من المباني الفاخرة وكان في اول
امره يدعو للمنصور العباسي ثم قطع دعوته ومهد الدولة بالاندلس
وأثل بهـا الملك العظيم لبني مروان ومن ذلك اليوم خرجت
الاندلس عن نظر صاحب القيروان بل وعن نظر الخليفة بالمشرق

ومن الحوادث المهمة التي حصلت في خلافة المنصور خروج
الراوندية عليه وتبديده لهم ثم اتخاذه بغداد كرسيا للخلافة ووفاة
الامام ابي حنيفة النعمان بن الثابت مسجوناً في بغداد

ومن مآثر المنصور تقدم العرب لعهده في علوم الفلك والطب والفلسفة ونقلهم عدة مؤلفات من اللغات الاجنبية فيها ومما يعاب به كثيراً اهانته للامام مالك صاحب المذهب واعتفاله للامام ابي حنيفه

﴿ فصل ﴾

في خلافة محمد المهدي (١٥٨ — ١٦٩)

بعث تجريدة على الهند ففتحت كثيراً من بلادها ثم اصابها وباء وفي رجوعها عصفت عليها الريح عند ساحل حران فانكسرت عامة مراكبها ونجا منها قليل وكانت ايام المهدي شبيهة بايام ابيه في الفتوق والحوادث والخوارج واراد المهدي الاستيلاء على بلاد الاندلس فارسل الى عبد الرحمن بن حبيب الفهري عامل افريقيا بالذهاب اليها داعية لبني العباس فخرج بعمارة كثيرة فقتل بعد ان غلب وفر

ثم ان المهدي تجهز لحرب الروم {١٤٥} وجمع عسكراً كثيفا وخرج من بغداد وتغلغل في بلاد الروم فغنم وفتح ثم جهز لابنه الرشيد لغزو الروم ثانية فسار حتى بلغ خليج القسطنطينية وكان المتولي على الروم اذ ذاك الملكة أريني فطلبت الصلح من الرشيد فجرى الصلح بينهما على الفدية وارسال الادلاء واقامة الاسواق في طريقه فاجابته الى ذلك وكانت الفدية ٧٠ الف دينار كل سنة.وهو

الذي رتب البريد بين اليمن ومكة والمدينة وبغداد وغيرها

﴿ فصل ﴾

في خلافة موسى الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠)

كان ضعيفاً خاملاً تولت امه الحكم عنه ويقال انها اماتته خنقاً ولم يحدث في عهده ما يذكر

﴿ فصل ﴾

في خلافة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣)

عن كتاب حقائق الاخبار

جلس هرون الرشيد بن محمد المهدي على تخت الخلافة وعمره ٢٢ سنة واشهر واستوزر يحيى ابن خالد والقى اليه مقاليد الامور وهو من اعظم ملوك الاسلام همة ونجدة وشهرة فاضت ينابيع العلوم في خلافته وتفجرت انهر الحضارة في عصره وعمل اعمالا فاق بها من تقدمه من ذلك انه امر بعزل الثغور كلها عن الجزيرة وقنسرين وجعلها عمالة واحدة وسماها العواصم واجتهد في ترميم الثغور واقامة معالم الاسلام وتشييد المعاقل والحصون وفي اوائل حكمه مات بقرطبة عبد الرحمن الاموي المشهور بالداخل بعد ان ملك بالاندلس ٣٣ سنة وخلفه ولده هشام وخرج الرشيد حاجا (١٧٣ هـ) وقسم في الحرمين اموالا كثيرة وكان حجه ماشياً على اللبود

تفرش له من منزل الى منزل وفي اوائل خلافته (١٧٥ هـ)
ظهر يحيي بن عبد الله بن الحسين والتف عليه كثير من الديلم
فجهز عليه الرشيد الفضل بن يحيي وما زال به الفضل يلاطفه
ويبذل له الامان حتى استرضاه واتى به الى الرشيد فاكرمه ثم
حبسه حتى مات وظهرت فتنة في دمشق بين المضرية واليمانية
انتهت بالمصالحة بين الفريقين بمساعي عامل الرشيد على دمشق
بعد ان قتل من الجانبين جمع كثير وفي سنة ١٨٠ هـ توفي هشام
صاحب الاندلس وكانت خلافته سبع سنين وسبعة اشهر وخلفه
ولده الحكم ولم يستقر له الملك الا بعد قتال عنيف حصل بينه
وبين عميه سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمن الداخل وفي تلك
الفتنة اغتنم الفرنج فرصة القتال فذهبوا الى الاندلس وفتحوا
مدينة برشلونه كما سيأتي بتاريخ الاندلس ثم ظهرت عدة
اضطرابات في بعض الجهات فتمكن الرشيد بحكمته من قمعها
وفي سنة ١٨١ غزا الروم ففتح وغنم وولى ابراهيم بن اغلب
افريقيا وهو رئيس دولة الاغالبة كما سيأتي الكلام عليهم في
تاريخ تونس وفي سنة ١٨٢ خرج الخزر من مدينتهم باب
الابواب (دربند) واوقعوا بالمسلمين واهل الذمة وسبوا اكثر
من مائة الف وانتهكوا امراً عظيماً لم يسمع بمثله وسبب ذلك
ابنة خاقان الخزر التي كانت حملت الى الفضل بن يحيي البرمكي

وماتت في الطريق بمدينة برذعة وفي تلك السنة غزا المسلمون الصائفة وبلغوا افسوس مدينة اهل الكهف الشهيرة وقد اراد هرون ان الامر يستمر في اولاده من بعده بدون ان يحصل بينهم نزاع او خلاف يؤدي الى ما لا تحمد عقباه فبايع لولده الامين بولاية العهد واعطاه العراق والشام الى آخر المغرب وولى المأمون العهد بعد الامين وضم اليه من همذان الى آخر المشرق وسلمه الى جعفر بن يحيي البرمكي وبايع لابنه القاسم من بعد المأمون ولقبه المعتصم وجعل خلعه واثباته للمأمون وجعله في حجر عبد الملك بن صالح وضم اليه الجزيرة والثغور والعواصم ثم في سنة ١٨٦ قصد الرشيد الحج واستصحب معه اولاده الثلاثة وفرق بالمدينة اموالا طائلة ثم سار الى مكة فأعطى العطايا واحضر الفقهاء والقضاة والقواد وكتب كتابي العهد واشهد فيهما بالوفاء على الامين والمأمون واخذ عليهما الايمان المغلظة واشهد على ذلك من حضر من ارباب الدولة وعلق الكتابين في الكعبة ليشهد جميع المسلمين على ذلك ومع ذلك فكان الرشيد لا يزال يتفكر في ان تسيل الدماء بعد موته فجدد البيعة للمأمون وارسل الى المأمون فجدد له العهد على الامين لانه كان اذ ذاك في طبرستان (١٨٩ هـ)

ومن الحوادث الشهيرة التي الفت فيها المؤلفات وافرد

المؤرخون لها الفصول والابواب حادثة الايقاع بالبرامكة وحاصلها ان الرشيد أوقع بالبرامكة لتكبرهم وعظمتهم واتيانهم ما يخل بسياسة الدوله ونظاماتها وكرامتها فقتلهم عن آخرهم واستصفى اموالهم وكانت شيئاً يجل عن الوصف وقد تحامل بعض المؤرخين على الرشيد بسبب هذه الفعلة الشنعاء ولكن لوتدبروا الامر لوجدوا ان الحق بيده ولا يصح ان يوجه اليه اللوم الا من جهة انه كان من المروءة وحسن الصنيع ان يخفف عنهم ما اصابهم من العذاب ولما كانت مسئلة الايقاع بالبرامكة من المسائل الطويلة العريضة ضربنا عن امر التفصيل فيها صفحاً فمن شاء فليراجعها في المطولات

وكان هرون الرشيد معاصرا لشرلمان الكبير ملك فرانسا وقد ترددت بينهما السفراء وتهاديا وكان من ضمن هدية الخليفة اليه اشياء نفيسة من صنائع المشرق منها ساعة دقاقة يقال ان أهل فرنسا لما رأوها داخلهم الذهول والحيرة حتى ظنوا أن ذلك سحر ومنها شطرنج بديع الصنعة وغير ذلك مما يدل على توفر الصنائع وتقدم الحضارة فى الشرق وتأخر الغرب ويقال ان هرون الرشيد كان يقصد من محالفة شارلمان اغراه بالهجوم على بلاد الاندلس لمحو آثار بني امية اعدائه ثم ضم الاندلس الى عمالات هرون الرشيد

وكان الروم قد خلعوا ملكتهم أرينى (١٨٧هـ) وملكوا عليهم

نيسوفورس المعروف في كتب العرب باسم نيقوفور فكتب الى
هرون الرشيد يسترد منه ما اخذه من اموال الروم فغضب
وركب من ساعته حتى نزل على هرقله فى مائة ألف وخمسة
وثلاثين ألفا من المرتزقة سوى من لاديوان له من الاتباع
والمتطوعة ففتح وغنم وأرسل القوادبالجيوش فعاثواوغنموا وهزمت
جيوش الروم شرهزيمة وأذعن ملكهم لدفع الجزية كما كانت أريني
من قبل ولما نقض أهل قبرس العهد استعمل الرشيد حميدبن
معيوب قائداعلى الاساطيل التى بسواحل الشام ومصر فسارت
الى قبرس ونازلتها وهزمت الثوار وخربت وسبت وبلغ سبي أهل
قبرس ١٧ ألفا وكان من بينهم أسقف قبرس ولما عقدت الهدنة
بين الروم والمسلمين وكان قدأقبل فصل الشتاء وانصرف المسلمون
عنهم خرج ملك الروم بجيوشه وعاث فى تلك الجهات فركب
عليهم الرشيد ثانية ولم تمنعه ثلوج الجبال وجرح نيقوفور فى هذه
المحاربة جروحا بليغة وظل العرب يخربون ويفتحون ويسلبون
ولايات اليونان فى البحرالاسود الى قبرس حتى رجع نيقوفورعن
العصيان وطلب الصلح فتصالحا على ان تبقى مدينة هرقله خربة وعلى
ان يكون المال المدفوع مسكوكا عليه اسم نيقوفور واسم اولاده
الثلاثة وكان الرشيد يسير على خطة المنصور فى بذل الاموال
فلم ير خليفة قبله أبذل منه وكان اذاقعد عن الغزو يغزو بالطائفة

كبار أهل بيته وقواده

ومن الذين خرجوا على هرون الرشيد فى خلافته رافع بن الليث فيما وراء النهر وكان من أعظم الثوار وأشدهم بطشا ومن الليث هذا خرجت الدولة الصفارية ثم في سنة ١٩٣ اشتد المرض على الرشيد بجرجان فسار الى طوس ومات فيها وكان قد سير ولده المأمون الى مرو وكان عمره ٤٦ سنة وولايته نحو ٢٣ سنة واشهر وكان الرشيد عاقلا مهيباً عالى الهمة حليما حسن التدبير ميالا للعلماء والشعراء حتى قيل انه لم يجتمع منهم على باب ملك بقدر ما اجتمع على باب هرون الرشيد وكانت زوجته زبيدة وهي التي اجرت الماء الى مكة من عين قريبة منها وصرفت في سبيل ذلك أموالا طائلة ولا تزال تلك العين للآن تدعى بعين زبيدة ومنها شرب أهل مكة وقد تعهدها الملوك والسلاطين بعد ذلك بالاصلاح الى يومنا هذا

﴿ فصل ﴾

في خلافة الامين (١٩٣ـ١٩٨)

كان مولعاً باللهو واللعب كثير التبذير مشتغلا بملاهيه عن امور الدولة ثم وقع الشقاق بينه وبين اخيه المأمون فتحاربا الى ان قتل الامين

﴿ فصل ﴾

في خلافة المأمون (١٩٨-٢١٨)

اشتدت عليه الفتن وكثر الخروج دعوة بالخلافة لجماعة من آل علي بن ابي طالب وغيرهم الا انه لم يلبث ان اخمد الثورات وانقطع للاشتغال بالآداب والعلوم والمناقشات الدينية وكان من افاضل الخلفاء وعلمائهم وحكمائهم وهو اول من قاس الدرجة الارضية وامر بترجمة كتاب اقليدس وكان عظيم الحلم حسن السياسة وله غزوات في بلاد الروم لا اهمية لها

وكان المأمون لعلو همته يحب الوقوف على احوال رعاياه بنفسه فكان كثير التنقل من اقليم الى آخر فانه جال في بلاد الشام ومصر { ٢١٦ } وتفقد آثارها فاعجبه ما رأى وهو الذي فتح الفتحة الموجودة الآن بالهرم الاكبر وفي خلافته مات الامام الشافعي وهو محمد بن ادريس بن العباس من اكابر الائمة ودفن بمقامه المشهور بمصر (٢٠٤)

﴿ فصل ﴾

في خلافة المعتصم (٢١٨-٢٢٧)

هو اول من استخدم التركمان واتخذ منهم حراساً لنفسه وولاهم محافظة الثغور والحدود فقويت شوكتهم في عهده وعهد خلفائه حتى اصبح الملك بيدهم يتصرفون فيه كما يشاءون . وكان

يقول بخلق القرآن كالمأمون وجرت له مع الروم في عمورية وضواحي الاستانة ما رأيت وصفه من المواقع . وقد اتم بناء مدينة سر من رأي او سامرا واتخذها داراً للملك واستخدم التتار والاتراك في الدواوين

﴿ فصل ﴾

في خلافة الواثق بأمر الله (٢٢٧ ــ ٢٣٢)

فتح جزيرة صقلية {٢٢٨} وغنم مراكب كثيرة من الاعداء ويقال ان العرب في ايامه خرجوا من باب المندب الى زنجبار وجنوب افريقيا وجالوا في بحر الظلمات حتى ادركوا جزائر الخالدات وجعلوا احداها المسماة بجزيرة الحديد مبدأ لخطوط الاطوال وفي عهده دخل الفنداليون الاندلس وفتحوا اشبيليه ثم ردوا على اعقابهم وكان شاعراً فصيحاً حازماً يقول بخلق القرآن

﴿ فصل ﴾

في خلافة المتوكل على الله جعفر بن المعتصم (٢٣٢ــ٢٤٧)

عقد في اول خلافته البيعة لبنيه الثلاثة بولاية العهد وهم المنتصر والمعتز والمؤيد وولى كل واحد منهم قسما من المملكة وفي سنة ٢٣٧ فتح العباس بن الفضل امير صقلية بها الفتوحات العظيمة واستولى على قصريانة وكانت دار الملك بها وكان ملكها يسكن قبل ذلك بسرقوسة فلما اخذها المسلمون انتقل الملك الى

قصريانة وتوفى في خلافته الامام احمد بن حنبل

وفي عهده غزا الروم دمياط وسيروا مراكب في البحر للايقاع بالمسلمين اينما وجدتهم وذلك لشدة ما غاظهم احتلال جالية من الاندلس لجزيرة اقريطش . وفي خلافته افتتح قائده بغا مدينة تفليس وخرجت طوائف البجاة على عماله بارض مصر فارسل اليهم جيشاً مثل بهم فاستأمنوا على اداء الجزية . وجرت لجنوده وقائع كثيرة مع الروم انتصروا فيها وتوفي المتوكل على الله قتيلا بيد القائد بغا وقد اتفق مع ابنه المنتصر على ذلك واستعان بالجنود الاتراك الذين كانوا قد استفحل امرهم كل الاستفحال في المملكة

﴿ فصل ﴾

في خلافة سائر الخلفاء العباسيين

المنتصر بالله (٢٤٧ ـ ٢٤٨) والمستعين بالله (٢٤٨ـ ٢٥٢)

لم يجر في خلافة الاول ما يخلق بالذكر واما الثاني فقد خلعه الترك وولوا المعتز مكانه

المعتز بالله (٢٥٢ ـ ٢٥٥)

تولى وكان المماليك قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة وصار منصب الخلافة العوبة في يدهم والخليفة في يدهم كالاسير ان شاؤا ابقوه وان شاؤا خلعوه وان شاؤا قتلوه . ومن اعماله انه اقطع المعتز احمد بن طولون بلاد مصر فبقيت له ولاولاده من

بعده وكانت لهم بها دولة عظيمة ثم تآمر الاتراك على المعتز وخلعوه

المهتدي بالله {٢٥٥ ـ ٢٥٦}

قام في عهده صاحب الزنج بجهة البصرة وتقدم غازياً في البلاد واستقل كثيرون من العمال باعمالهم فقل الخراج ولم يلبث ان خلعه الاتراك وقتلوه

خلافة المعتمد على الله (٢٥٦ ـ ٢٧٩)

بويع والفتن قائمة بطبرستان وجهات بلخ وكابل وبلاد الصين التابعة لدولة بني العباس . ولعهده ظهر القرامطة المشهورون بالسلب والنهب وحاول الروم استرداد بعض املاكهم فردوا مرارا

المعتضد بالله (٢٧٩ ـ ٢٨٩)

كان ذا سياسة حسنة ومهابة رد الى الطاعة بعض البلاد التي خرج اهلها واشتد على العساكر وامن الناس

المكتفي بالله (٢٨٩ ـ ٢٩٥)

قاتل القرامطة وقد اشتدوا مدة خلافته كلها وفتح له احد قواده مصر وقبض على بني طولون واستصفى اموالهم وحملهم الى بغداد

المقتدر بالله (٢٩٥ ـ ٣٢٠)

كان مستسلما للنساء والخدم وزاد معه ضعف الخلافة وخلع وبويع الراضي بالله مكانه وهو ابنه المعتز بالله كان من اشهر شعراء العرب واعلمهم بالموسيقى وفنون الاداب فلم يول الا يوما واحدا ثم خلع وقتل في معتقله وتولى المقتدر ثانية ثم خلع وخلفه اخوه القاهر ثم اعيد ودامت خلافته اربعا وعشرين سنة وفي زمنه ظهرت الدولة العلوية الفاطمية بافريقيا سنة ٢٩٦ وهي التي انتقلت بعد ذلك الى مصر واسست القاهرة وكان لها شأن عظيم بين دول الاسلام وانقرضت دولة الادارسة العلويين من المغرب سنة ٣٠٧ واستفحل امر القرامطة ففتحوا الكوفة والبصرة ونهبوا السابلة والحجاج

القاهر بالله (٣٢٠ ـ ٣٢٢)

ظهرت في خلافته دولة بني بويه وهي فرع من بني العباس ملكت الديلم والاهواز والعراقين وفارس وبعد ان ملك بسنة وستة اشهر سملت عيناه وخلع وكان يستعطي ببغداد بقية حياته

الراضي بالله { ٣٢٢ ـ ٣٢٩ }

كانت في خلافته فارس في يد ابن بويه والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في يد بني حمدان والشام في يد الاخشيد والاندلس

في يد بني امية والمغرب وافريقية في يد القائم العلوي بن المهدي والبصرة في يد بن رابق وخوزستان في يد البريدي وكرمان في يد ابي علي بن الياس والري واصفهان والجبل يتنازعها ركن الدولة بن بويه واخو مرداويج وخراسان وما وراء النهر في يد ابن سامان وطبرستان وجرجان في يد الديلم والبحرين واليمامة في يد القرامطة ولم يكن للراضي سوى بغداد وما والاها فبطلت الدواوين وانحط شأن الخلافة

المتقي بالله { ٣٢٩ ـ ٣٣٢ }

هو ابرهيم بن المقتدر ٠ وفي خلافته انتصرت طائفة من الروس على المسلمين باذربيجان ونكلت بهم وفتحت مدينة برذعة

المستكفي بالله (٣٣٢ ـ ٣٣٤)

استمر لعهده انحطاط الدولة ولم يحدث فيه ما يذكر

المطيع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣)

قويت في زمنه شوكة الديلم وآل بويه ببغداد وكانوا مغتصبي السلطنة فيها واهمل امر حماية الثغور ففتح الروم وحلب والمصيصة وانطاكية وطرسوس ومدائن اخرى ثم قوي عليهم المسلمون ٠ وكسر المطيع لله من خلافته

الطائع لله { ٣٦٣ ـ ٣٨١ }

جرت في مدته فتن بين الاتراك والديلم ببغداد وابتدأت

دولة بني مروان بحلب

القادر بالله احمد { ٣٨١-٤٢٢ }

استعاد بحسن تدبيره وتوفيقه بعض ابهة الدولة العباسية وحرمتها وتوفي لعهده العزيز بالله الفاطمي صاحب مصر وتولى ابنه الحاكم الذي ادعى الالوهية على ما هو معروف من امره . وفي خلافة القادر انقرضت الدولة الاموية من الاندلس

القائم بامر الله { ٤٢٢ - ٤٦٧ }

تقدم في خلافته الروم وغزوا البلاد وابتدأت الدولة السلجوقية سنة ٤٣٢ وانقرضت دولة بني بويه واسلم من الترك خلق كثير وكثر النهب والسلب بين العرب وقام الب ارسلان الذي حارب الروم ومن معهم من الروس والشركس فرد غارتهم عن بلاد الاسلام وضرب عليهم الجزية

المقتدي بامر الله (٤٦٧ - ٤٧٧)

كان صالحاً ذكياً وكانت في عهده الدولة العربية تزداد تشتتا وضعفا في الشرق وتوشك ان تنحل في الاندلس لم يؤجل اضمحلالها الا نصرات يوسف بن تاشفين. وفي خلافته توفي ملكشاه احد اكابر امراء المسلمين واعاظم الفاتحين منهم وفتح الافرنج جزائر البحر المتوسط ومنها صقلية بعد ان احتلها المسلمون مئتي سنة

المستظهر بالله (٤٨٧ ـ ٥١٢)

كان في خلافته ابتداء الحروب الصليبية سنة ٤٩٠ وكانت الممالك الاسلامية متشتتة متعادية تتنازعها خلافتان العباسية ببغداد والعلوية بمصر . وبمدته ابتدأت الدولة الخوارزمية وفتح الافرنج انطاكية وبيت المقدس وهزموا جنود قلنج ارسلان

المسترشد بالله (٥١٢ ـ ٥٢٩)

اهم حوادث زمانه وفاة بلدوين الاول ملك القدس وقيام بلدوين ديبورغ خلفاً له وابتدآء دولة الموحدين بالمغرب وانقراض دولة المرابطين ومقتل الآمر باحكام الله العلوي بمصر

الراشد بالله (٥٢٩ ـ ٥٣٠)

لم يجر في عهده ما يستحق الذكر سوى قيام القتال على قدم وساق بين الافرنج والامراء المسلمين

المقتفي لامر الله (٥٣٠ ـ ٥٥٥)

سكن فتناً قائمة واستظهر على الافرنج في عدة مواقع واسترد كثيراً من المراكز المفتوحة وفي خلافته فتح الافرنج طرابلس الغرب والصقالبة جزيرة المهدية وبعد ذلك بقليل استرجع المسلمون هذه البلاد

المستنجد بالله (٥٥٥ ـ ٥٦٦)

خرجت لعهده مصر من ايدي الفواطم وتنازعها الافرنج

ورجال محمود بن زنكي ثم اتى البطل الشهير صلاح الدين الايوبي لانقاذ مصر من الافرنج وكان به ابتداء الدولة الايوبية

المستضيء بالله (٥٦٦ ـ ٥٧٥)

كان حسن السيرة كريماً شديداً على اهل الفساد اعاد صلاح الدين الخطبة لآله في مصر فوقع ذلك وقعاً عظيماً في بغداد وسر به المسلمون وفي ذلك الوقت كثر استعمال حمام الزاجل وهو الذي يحمل الرسائل من بلاد الى اخرى

الناصر لدين الله (٥٨٥ ـ ٦٢٢)

كان باسلاً متوقد الذكاء استرد بلاداً كثيرة للدولة ولعهده توفي صلاح الدين بعد ان ابلى اعظم بلاء في محاربة الصليبيين واستتب لآله ملك مصر فخلفه فيها اخوه الملك الكامل وقام اخوه الملك العادل بامر الشام . وفي خلافته دخل الصليبيون دمياط وقاتلوا جيش الملك الكامل ثم صالحوه وانجلوا . وشن التتار غارتهم الكبرى على البلاد الاسلامية ففتحوا اكثرها

الظاهر بامر الله (٦٢٢ ـ ٦٢٣)

كان صالحاً محسناً الى الفقراء محباً للرعية

المستنصر بالله (٦٢٣ ـ ٦٤٠)

كان سمحاً جواداً وكانت ايامه طيبة ساكنة وهو الذي بنى المدرسة المستنصرية ببغداد . ولعهده اشتد امر التتار وهدت

دعائم الاسلام بالاندلس على أثر الموقعة الشهيرة بقرب طليطلة

المستعصم بالله (٦٤٠ - ٦٥٦)

تولى وكان خاملا ضعيف الرأي شـديد الغفلة وكان وزيره المنافق ابن العلقمي قد اذن للجنود بالتفرق عن بغداد ثم استحث هلاكو خان ملك التتار على قصد بغداد فدخل العراق في جيش جرار وتقدم نحو العاصمة فدرى به المستعصم وخرج لقتاله في اربعين الفا فدحرهم التتار دحراً وقتلوا بضع عشرات الوف من المسلمين ورموا كتب المدارس بدجلة واستولوا على خزائن دار الخلافة وقبضوا على المستعصم وبنيه وذويه واستباحوا المدينة اربعين يوما ثم نودي بالامان وانقطعت الخلافة ثلاث سنين ونصف سنة الى ان ذهب الى مصر بعض الذين نجوا من بني العباس ونزلوا على الملك الظاهر فيها فانتقلت الخلافة اليها

الباب الثلاثون

في الاندلس والدولة الاموية فيها (٧٥٦ ـ ١٠٣١م)

فصل

في فتح الاندلس

جاء في كتاب حقائق الاخبار مانتقله بتصرف قليل

لما استقرت القواعد لموسى بالمغرب كتب للوليد يعلمه

بذلك فورد عليه جوابه يامره فيه بغزو الاندلس وفتحها فكتب
الى طارق وهو بطنجة يامره بذلك (٩٠ هـ) بعد ان يخضها
بالسرايا ويعلم عوراتها وثغورها وشواطئها حسب امر الخليفة
فجهز طارق الجيوش والاساطيل وعبر الى الاندلس في اثنى
عشر الفاً من البربر وخلق يسير من العرب من سبته الى الجزيرة
الخضراء وصيرهم جيشين احدهما على نفسه ونزل به جبل الفتح
فسمي جبل طارق به والآخر على طريف بن مالك النخعي
ونزل بمكان مدينة طريف فسميت به وادارو الاسوار على
أنفسهم للتحصن (٩٢) فلما علم ملك الغوط باسبانيا المدعو
لذريق (رودريك) امر احد قواده المدعو اريكوس فالتقى مع
العرب وحاربهم فهزم فعرض الامر على الاهالي القريبين الى
دار الملك فجمع رودريك حكام الولايات والدساكر والاساقفة
والاشراف ونحوهم وقر رأي الجميع على محاربة العرب بقوة
لطردهم من البلاد وكانت عساكر رودريك نحو مائة الف أما
اصحاب طارق فكانوا زهاء اثنى عشر الفاً كما تقدم ومعهم
بعض الجنود الذين أرسلهم بصحبته يليان حاكم طنجة وسبته لان
يليان كما روى بعض المؤرخين كان ينقم على رودريك ملك
الغوط فعلة فعلها بابنته الناشئة في داره على عادتهم في بنات
بطارقتهم وذلك انه كان من عادة اكابر العجم بالاندلس ان

يبعثوا اولادهم الذين يريدون التنويه بهم الى دار الملك الأكبر بطليطلة ليصيروا في خدمته ويتأدبوا بآدابه وينالوا من كرامته حتى اذا بلغوا زوج بعضهم بعضاً وتحمل صدقاتهم وتولى تجهيز اناثهم استئلافاً لآبائهم فاتفق ان فعل ذلك يليان فبعث بابنة له جميلة تكرم عليه الى دار رودريك فوقعت عليها عينه فاعجبته واحبها ولم يتمالك ان استكرهها فاحتالت حتى اعلمت اباها سراً فاحفظه ذلك

ولما رأى طارق كثرة جيوش الاعداء وانتظامهم وحسن ملابسهم واختلاف أزيائهم وهم بالعدة الكاملة والسلاح الجيد وما عليهم من الخوذ والحديد السابغ هاله الامر وخاف على جيشه القليل فامر باحراق السفن التي كانت تقلهم ليقطع عن قومه كل امل في العودة ثم قام فيهم خطيباً مشجعاً منشطاً وقال ان العدو امامنا والبحر وراءنا فاختاروا ايهما شئتم ثم التقى مع جيوش الغوط ودارت رحى الحرب ساعة انقضت في اثنائها ابطال العرب وصناديد البربر على جيوش الغوط وامرائها المترفين فبددوا شملهم وجندلوا امراءهم فولوا الادبار وقتل منهم عدد عظيم وترك رودريك مركبته وكانت من العاج الناصع يجرها بغلان ابيضان وهرب ولم يعلم اين ذهب وقد وجدوا جواده وتاجه ورداءه ويظن انه مات غريقاً في نهر قريب من هناك

واتصلت الحرب بين الفريقين ثمانية ايام وكانت بفحص شريش { كسيريس } ويقال انه بعد هذا النصر المبين اشار يليان على قائد العرب بأن يتقدم على الفور ويكمل فتح البلاد قائلا ان الملك قد هلك والامراء تفرقوا والعساكر تبددوا والشعب في وجل عظيم فأرسل رجالك تستولي على ما قرب من المدائن واذهب انت الى طليطلة دار الملك ولا تفسح لهم في الوقت فيختاروا ملكا وكتب طارق الى موسى بن نصير يعلمه بالفتح والغنائم فحركته الغيرة وكتب الى طارق يتوعده ان توغل بغير اذنه ويامره ان لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به واستخلف على القيروان ولده عبد الله وخرج في عسكر ضخم (٩٣) من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر فوافي خليج الزقاق { مضيق جبل طارق } ما بين طنجه والجزيرة الخضراء فاجاز الى الاندلس

اما طارق فرأى من حسن تدبيره اتباع نصيحة يليان وتقدم بجيوشه نحو الشمال وافتتح احد قواده قرطبة { كوردو } بعد ان حاصرها ثلاثة اشهر وسار هو نحو طيطلة تخت الملك فوجدها مغلقة الابواب حصينة الاسوار والابراج فحاصرها زمناً وقطع القوت عن سكانها حتى اضطروا الى طلب الصلح فعقد معهم صلحاً أباح فيه حرية الخروج لمن اراده من السكان وترك للنصارى سبع كنائس وحرية الدين والشرائع وابقى لهم

قضاتهم وكذلك فعل مع اليهود ثم تقدم نحو الشمال وفتح مامر
به من المدن بجهات قسطيلة { كاستيل } وغيرها وغنم اموالا جزيلة
ثم عاد طارق الى طليطلة بطلب من موسى بن نصير لانه حسده وخاف
ان لا يترك له بلاداً يفتتحها ولا يشاطره الشهرة ورفعة الصيت
وتقدم موسى فافتتح جهات وادي يانه وغيرها ولما تلاقى مع
طارق بطليطلة وبخه على ما كان منه من عدم اطاعته ولم يسمع
منه قولا ويقال انه ضربه وسجنه ثم اطلقه بناء على ما ورد له
من الخليفة ولما خرج من السجن سار بجيش فافتتح بلاد طركونة
وسرقسطة وبرشلونة وغيرها واخذت بعد ذلك سفن الاسلام
تتردد بكثرة على هذه الثغور ولم يزل العرب يطاردون الغوط
الى ان اجازوهم جبال البرانس او البرنات وكان في تلك الاثناء
عبد العزيز بن موسى يحاصر مدنا بحرية في جهة الجنوب

ثم قفل موسى عن الاندلس بعد ان انزل الرابطة والحامية بثغورها
واستعمل ابنه عبد العزيز عليها وولاه جهاد عدوها وانزله بقرطبة
فاتخذها دار امارة وولى على طنجه ابنه عبد الملك ورجع الى
القيروان { ٩٥ } ثم ارتحل الى المشرق { ٩٦ } تاركا ابنه
عبد الملك على افريقيا وبذلك صارت الاندلس والمغرب بين
اولاده واندرجت ولاية الاندلس يومئذ في ولاية المغرب فكان
صاحب القيروان ناظراً في الجميع وقدم موسى على الوليد بن عبد

الملك قبل وفاته بثلاثة ايام بما كان معه من الغنائم والذخائر والاموال على العجل والظهر ودفعها اليه فغاظ ذلك سليمان واساء مكافأته حتى افضى الامر اليه فنكبه ونكب اهل بيته اجمع وعزل ابنه عبد الله عن المغرب وولى مكانه محمداً بن يزيد مولى قريش وامره باستئصال آل موسى بن نصير واصطلام نعمتهم فأتى على ذلك وكان سبب غضب سليمان علي موسى انه لما توجه الى المشرق وانتهى الى مصر وبلغه الخبر بمرض الوليد ووافاه كتابه يستحثه على القدوم ووافاه كتاب آخر من اخيه سليمان يثبطه اسرع موسى للحاق بالوليد فقدم عليه قبل وفاته كما قلنا فلما تولى سليمان الخلافة غضب عليه لما كان منه ونفاه الى المدينة المنورة وبها كانت وفاته { ٩٨ } ثم ثارت عساكر الاندلس بابنه عبد العزيز فقتلوه لسنتين من ولايته ويقال ان الجنود ثاروا به من تلقاء انفسهم لما تزوج اجيلونة زوجة الملك رودريك وانه كان يحدث نفسه بلبس تاج ملوك الغوط

وكان عبد العزيز خيرا فاضلا افتتح في ولايته مدائن كثيرة وارسل سليمان على الاندلس من قبله محمداً بن يزيد الحر وكان عادلا حسن السيرة اما طارق فانهم وان لم يهينوه لم يكافؤه على ما قام به من الفتوحات العظيمة واعلاء شأن الاسلام وهذه وصمة في تاريخ سليمان بن عبد الملك لا تنسى ابداً

﴿ فصل ﴾

في ولاة العرب بالاندلس (٩٢ ــ ١٣٨)

لما نكب موسى بن نصير ومولاه طارق صار خلفاء بني امية يولون عمالا على الاندلس الى أن انقرضت دولتهم بظهور بني العباس وكان الولاة الذين تولوا الاندلس من غير موارثة افراداً عددهم عشرون ولم يتعدوا في السمة لفظ الامير الى ان تغلب عبد الرحمن بن معاوية المرواني على سرير الملك بقرطبة وهو يوم عيد الاضحى سنة ١٣٨ ثم كانت دولة بني امية

﴿ فصل ﴾

في ذكر عبد الرحمن رأس الدولة الاموية الاندلسية (٩٢ ــ ١٧١)

وكان عبد الرحمن المشار اليه يلقب بالداخل وهو ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك هرب من وجه بني العباس الى مصر ومنها الى برقة ثم الى مكناسة ثم الى مليلة وارسل بدراً مولاه الى جماعة من موالي المروانيين بالاندلس واشياعهم فاجتمع بهم وبنوا له في الاندلس دعوة ونشروا له ذكراً ووافق ذلك قيام فتنة بين المضرية واليمانية فاجتمعت اليمانية الى امره ورجع اليه مولاه بدر بالخبر فسار الى الاندلس فبايعه قوم من اشبيلية وشذونة وقرطبة ثم حاربه يوسف بن عبد الرحمن الفهري امير الاندلس وعامل الخليفة ابي جعفر المنصور فهزمه عبد الرحمن

الاموي وبايعه اهل مالقه وشريش وسائر الجهات واستقام له الامر تماماً سنة ١٤١ فاستقر بقرطبة وقطع الخطبة عن العباسيين واقام المباني الفخيمة بقرطبة وغيرها ودون الدواوين واستلحم الثوار واخذ المسلمين بالآداب وجند منهم فاكسبهم المروءة وعزة النفس وهاب جانبه الملوك

هشام بن عبد الرحمن (١٧١ ـ ١٨٠)

كان سمحا باراً غازياً استفتح مدينة اربونه الشهيرة ووطئت جنوده ارض بريتانيا الصغرى ببلاد الغالة وحلت عرى مقاوميه من اهل بيته الذين خرجوا عليه وله ابنية ضخمة اهمها تجديد قنطرة قرطبة المعروفة

الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦)

هو اول من جند الجنود بالاندلس وعظم شأن الدولة وكان في بدء حكمه على شيء من الخلاعة فثار به قوم وبايعوا بعض اقاربه فتغلب عليهم ولحق بهم الى فاس ثم الى الاسكندرية . وكان الافرنج قد فتحوا لعهده برشلونه فطاردهم وكانت له نصرات باهرة عليهم . اما الثائرون الذين نجوا من الاسكندرية فهم الذين خرجوا منها بعد ذلك على سفن واحتلوا جزيرة اقريطيش وبنوا فيها كنديا وغيرها وبقوا فيها الى ان اخرجهم منها ارمانوس بن قسطنطين باسطول ضخم

عبد الرحمن الاوسط او الثاني بن الحكم (٢٠٦ ـ ٢٣٨)

بعث جنوده للفتوح فاوغلوا حتى انتهوا الى ارض بريتانيا الصغرى وفتحوا بنبلونه وكان صاحبها من اكبر ملوك تلك الجهات ثم اغار النورمنديون على الاندلس فهزمهم المسلمون بعد مقام صعب ثم تعقبوهم بالاسطول الى ان اخرجوهم واراحوا البلاد منهم وعلى اثر ذلك حاصروا مدينة ليون واستولوا عليها. وكان عبد الرحمن قد جهز لمحاربة بني العباس ثم ادرك انه يخدم بذلك ملك القسطنطينية فعدل عنه وصادق الخليفة وكان طروبا مولعاً بالبناء الجميل وترك الآثار الجليلة

محمد بن عبد الرحمن الاوسط (٢٣٨ـ٢٧٣) والمنذر بن محمد بن عبد الرحمن (٢٧٣ـ٢٧٥) وعبد الله بن محمد (٢٧٥ـ٣٠٠)

كان محمد اميراً باسلا لقي الثائرين من اهل طايطلة ومنجديهم من اهل جليقية وعصائب البسك في وادي سليطة فاوقع بهم ايقاعا وغزا الافرنج غزوات كثيرة وقاتل النورمنديين وقد عادوا الى شواطيء الاندلس فابعدهم عقيب ما قتلوا واسروا جمهوراً من المسلمين وغنموا غنائم جمة . وخلف محمدا هذا ابنه المنذر فلم يكن له شأن يذكر وحكم سنتين ثم خلفه ابنه عبد الله وقامت لعهده الثورات على قدم وساق في اكثر بلاد الاندلس ودام ملكه خمساً وعشرين سنة

عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠)

استمر عشرين سنة يسكن الثورات حتى اتى عليها واتخذ لقب امير المؤمنين واكثر من الغزو حتى اوطأ جنوده ما لم يطأوه من بلاد الافرنج الى ان هزمه رودمير ملك الجلالقة فلزم دائرة ملكه وكان يبعث الطوائف تقاتل النورمنديين في اطراف الاندلس الجنوبية وسالمه الملوك والامرآء وكاتبوه وهادوه واطاعه بنو ادريس امرآء العدوة وملوك بربر وزناتة

وكان الناصر حكيماً عادلاً محباً لرعيته خفض عنها الضرائب وقرب العلماء واجتمع بداره جمهور عظيم من اهل كل فن ومعرفة وصناعة وشيد الابنية العظيمة التي تفوق الوصف بحليتها وزخارفها واتقانها واستكثر من السفن وكانت ايامه على الجملة ايام رخاء وصفو وعدل وامان

الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦)

جرى على خطة ابيه وفتح مدينة سان سباستيان بشمالي اسبانيا ومدينة كويمبريا او قلمرية وكانت دار علوم البرتغال ونالت جنوده واساطيله من النورمنديين في كل جهة ظهروا فيها ثانية . وخلع بني ادريس عن ملكهم بالعدوة وضم الى ملكه الغرب الاقصى والاوسط ودان له ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة

وكان كأبيه مقربا للعلماء جمع من الكتب ما لم يجمعه ملك قبله ثم بيع اكثرها لنكد الطالع في حصار البربر ايام حكم المنصور بن ابي عامر ونهب البربر ما بقي منها عند ما أخذوا قرطبة

هشام بن الحكم (٣٦٦ - ٣٩٩)

تولى هشام وهو صغير السن وكان وزيره محمد بن ابي عامر فحجر على الخليفة مع التظاهر بالتكريم الاسمى له ومنع الوزراء عنه الا في اوقات يسلمون فيها وينصرفون وضرب كبار المملكة بعضهم ببعض الى ان انفرد فاتخذ الزاهرة مقراً ولقب نفسه بالملك وتسمى بالمنصور وسك النقود باسمه وجعل الخطبة له بعد الخليفة وجند البرابرة والمماليك ويقال ان جنوده لم تغلب في ست وخمسين غزوة غزتها واستوثق له ملك المغرب وخضعت ملوك زناته وتوفي سنة ٣٩٤ بمدينة سالم بالاندلس وهو عائد من بعض غزواته ودامت وزارته سبعاً وعشرين سنة ومن اعظم فتوحاته فتح مدينة سانتياغو بالبرتغال على منعتها

وقام بالوزارة بعده ابنه عبد الملك الظافر ابو مروان فاستمر حاجراً على الخليفة وحكم سبع سنين كانت سنين خير وهناء ثم خلفه اخوه عبد الرحمن الملقب بالناصر لدين الله فاخذ من المؤيد ولاية العهد ولما ذهب الى غزوة ببلاد الجلالقة ثار

زعماء القرشيين والامويين الذين ساءهم اغتصابه فخلعوا المؤيد ثم بلغ ذلك جيش الوزير فانصرف عنه وقبض على الناصر وقتل

محمد بن هشام المهدي (٣٩٩ — ٤٠٠)

وبويع محمد فنقم على رؤساء البربر وزناته لانهم كانوا اعوانا للناصر واستفز عليهم الناس فاضطهدوهم فتواطأوا على مبايعة هشام بن سليمان بن الناصر فعوجلوا عن امرهم واستدعى المهدي سليمان المذكور واخاه ابا بكر فضرب عنقهما فلحق ابن اخيهما الحكم بجنود البربر واجتمعوا بظاهر قرطبة وبايعوه ولقبوه بالمستعين بالله

ثم جرت بين المهدي والمستعين وقائع انجلت عن انخذال المهدي فدخل قرطبة وتنازل عن الخلافة لهشام المخلوع ثم قتل الاثنان واحداً بعد الآخر ودخل المستعين قرطبة عنوة وتواثب البرابرة والعبيد على الاعمال فاتخذوا ممالك وامارات مستقلة واستتب الامر لسليمان الا ان بعض الامراء لم يرضوا بخلافته فبايعوا عليا بن حمود صاحب سبتة على طاعة المؤيد اذ ظهر خبره وكانوا يظنونه مستخفياً لا ميتاً فتقدم ابن حمود في جيش جرار وفتح قرطبة وقتل سليمان ثم بويع ولقب بالمتوكل على الله . وكان في جملة الذين اخذوا بناصر ابن حمود امير يدعى خيران وكان يريد مبايعة واحد من بني امية فلما رأى المتوكل على الله

قد اختلس البيعة له خرج عن طاعته وظفر بعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الناصر بمدينة جيان فبايعهَ ولقب بالمرتضي واتفق على توليته اكثر اهل الاندلس وقتل المتوكل غلمان له وهو في حمامه . وكانت الحوادث المتقدم ذكرها اعظم تمهيد لاستيلاء الافرنج بعد ذلك

خلافة عبد الرحمن المرتضي (٤٠٨ -- ٤١٢) وعبد الرحمن لمستظهر بالله (٤١٤) ومحمد بن عبد الرحمن المستكفي (٤١٤-٤١٦) وهشام بن عبد الرحمن الناصر المعتمد على الله (٤١٨ — ٤٢٢) وأمية بن عبد الرحمن (٤٢٢)

كل هؤلاء تداولوا الملك وخلعوا عنه بعد حروب طويلة وقتل بعضهم واختفى البعض وكان احدهم المستكفي ابا ولادة الاديبة الشهيرة وكان أمية آخر الخلفآء الامويين بالاندلس وهو السادس عشر منهم

فصل

فيما كان للدولة الاموية من الشأن

كانت هذه الدولة من اعظم الدول مكانا واشرفها خدمة للحضارة والمدنية عامة وللامة العربية خاصة فقد ظهر فيها من الملوك الحكماء والقواد الابطال والعلماء والفلاسفة والحسبة والكتاب والشعراء والمصنفين والصناع المهرة المبرزين في فن

البناء والنقش جمهور لا تزال آثارهم تدل عليهم وتشهد بفضلهم الامم الغربية التي اخذت عنهم واقتدت بهم . وفضلا عن ذلك فقد كان الاندلسيون في نعمة ورخاء والعدل سائداً والزراعة متقنة والصناعة رائجة الا في المدة الاخيرة التي كثر فيها الانقسام واحتدمت الحروب وعم البلاء حتى آل الى انقراض الدولة الاموية الباهرة وبدأ انحطاط الامة العربية بالاندلس

الباب الواحد والثلاثون

في دولة العلويين (٤٠٧ ـ ٤٦٠) وقيام ملوك الطوائف وذكر دولة بني الاحمر الى انقراض الدولة العربية الاندلسية .

فصل

في الخلفاء العلويين

اولهم علي بن حمود الادريسي وقد تقدم الكلام عليه . تولى نحو سنة واختصم بعده على الخلافة يحيي المعتلي وعمه القاسم فخلع الاثنان واحداً بعد الآخر ثم بويع ادريس اخو يحيي المعتلي ولقب بالمتأيد وحكم الى ان مات (٤٣١) وبويع بعده الامير يحيي وخلع ثم حسن المستنصر العالي وخلع ثم محمد بن ادريس المهدي وخلع ثم محمد المستعلي وخلعه ادريس بن حبوس وملك الى وفاته فلما انحط شأن الخلافة الى هذه الدرجة قامت ملوك

الطوائف وكانوا كثيرين وكان جمهور منهم يلقبون بامراء المؤمنين في وقت معاً وعند ذلك استرد الافرنج طليطلة من يد صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيي مدة الفونس السادس بعد ان حاصروها سبع سنين ثم بلنسية صلحا (٦٣٢) ثم المرية عنوة من يد بن الاحمر (٦٢٦) ثم شرقي الاندلس (٦٤٥) ثم قرطبة (٦٢٥) ثم اشبيلية فتحها فرديند (٦٤٥) بعد حصار سنة وخمسة اشهر وانحاز بعد ذلك المسلمون الى غرناطة والمرية ومالقه

﴿ فصل ﴾

في دولة بني الاحمر (٦٢٩ ــ ٨٩٧)

كانت دولتهم من اكبر دول ملوك الطوائف وقامت بعدها وهي التي انتزع منها الاسبانيون ما بقي من الاندلس بيد المسلمين وملوكها منسوبون الى سعد بن عبادة سيد الخزرج

﴿ فصل ﴾

في ذكر الشيخ محمد بن يوسف بن نصر بن الاحمر (٦٢٩ ــ ٦٧١)

لما بويع بالخلافة الامير زكريا الحفصي صاحب افريقيا بويع الشيخ محمد بن يوسف بن نصر بن الاحمر على الدعاء له واطاعته جيان وشريش ووقعت بينه وبين ابن هود وقائع كان الربح فيها للاسبانيين فانهم انتهزوا فرصة تلك المعارك واستولوا على النواحي ثم على قرطبة ثم على اشبيلية ثم على طليطلة وشلب

وطليرة (٦٥٩) ثم على مرسيه الى ان حصروا المسلمين في سيف البحر بين رنده غربا والبيره شرقا ولما رأى ذلك ابن الاحمر استجار بيعقوب بن عبد الحق سلطان الغرب فامده بالرجال فاسترد بهم بعض القلاع والمراكز

﴿ فصل ﴾

في ذكر محمد الفقيه (٦٦١ — ٧٠١)

هو ابن الشيخ محمد بعد ان تولى الملك بسنة استصرخ السلطان يعقوب فاجاز اليه جيوشاً ثم جاء بنفسه ففتح الجزيرة الخضراء ومد سلطة بني الاحمر على ماكان باقياً بيد الثائرين والمستقلين من مسلمي الاندلس

﴿ فصل ﴾

في ذكر محمد الملقب بالمخلوع واخيه ابي الجيوش وابي الوليد ومحمد بن الاحمر (٧٠١ — ٧٣٣)

كان محمد ضعيف الجنان قليل الحزم فلم يلبث ان اعتقله اخوه ابو الجيوش وملك مكانه ثم ان ابا الوليد اعتقل ابا الجيوش واثل له ملكاً بغرناطة وانتصر على الاسبانيين . وقام بعده محمد ابن الاحمر وكانت بمملكة غرناطه فتنة فحاول قمعها ودفع الاسبان فقتله بعض الثوار

﴿ فصل ﴾

في ذكر ابي الحجاج يوسف (٧٣٣ ـ ٧٥٥)

لما تولى هذا الملك كان سلطان المغرب مشتغلا بفتح تلمسان فاعتز لذلك الاسبان وغزوا في بلاد المسلمين بالاندلس وضربوا الجزية على ابي الحجاج فقبلها ولما فرغ سلطان المغرب من فتح تلمسان ارسل ابنه ابا مالك وعقد له على كثير من زناتة والمتطوعة لحارب الاسبان وتوغل في بلادهم وعند عودته دهموه بجنود كثيرة فقتلوه وقتلوا كثيراً من قومه واحتووا على معسكره فشرع السلطان ابو الحسن في اجازة العساكر للجهاد وتجهيز الاساطيل حتى اذا اجتمعت في سبته اقلعت نحو اسطول الفرنج ببحر الزقاق فهزمته واستلحم المسلمون جنوده وقتلوا قائدهم واستاقوا اساطيلهم الى سبته ثم لما استكملت اجازة العساكر اجاز السلطان بنفسه مع حاشيته ونزل على مدينة طريف وكانت بيد الاسبانيول فاحاط بها عساكره وعساكر ابن الاحمر ولما انتشب القتال كان للعدو جيش كمين من وراء فعمد الى محلة السلطان فانتهبها بعد ان قتل من بها من الحراس والخدم والنساء ثم أضرم النار بالمحلة فظن المسلمون انهم احيط بهم فارتدوا على اعقابهم

ثم استأنف السلطان ابو الحسن الحرب وكانت بحرية فدارت الدائرة على اسطوله ونزلت الجزيرة الخضراء على حكم الاسبان

بعد ان امنوها

﴿ فصل ﴾

في محمد الغني بالله (٧٥٥ ــ ٧٩٣)

كان في اول امره ضعيفاً فخلع وقام مكانه اخوه اسمعيل ثم قتله وزيره ابو يحيي واستبد بالملك وغلب الاسبانيين ومنع تأدية الجزية لهم وكان محمد الذي خلع قد سار الى السلطان أبى سالم المريني ولحق به كذلك رئيس الغزاة يحيي بن عمر فاكرمهما ابو سالم ثم تمكن المخلوع من مدينة زبدة وزحف منها الى مالقة { ٧٦٥ } فافتتحها وفر الرئيس ابو يحيي من غرناطة فدخلها محمد على أثره وامتد نفوذه وسادت كلمته حتى دخل بنومرين في طاعته وصار هو الذي يوليهم واسترجع من يد الاسبانيول كثيراً من البلاد والمعاقل ودخل قرطبة فعاث في نواحيها وخربها ورجع ظافراً غانماً وفتح الجزيرة الخضراء ثم هدمها خشية استيلاء الاسبان عليها

﴿ فصل ﴾

في آخر ملوك بني الاحمر واستيلاء الاسبان على غرناطة (٨٩٧)

وبعد وفاة هذا الملك اخذت دولة بني الاحمر في الانحطاط السريع وقامت الثورات والفتن الى ان كانت سنة ٨٩٢ فاستولى الاسبان على وادي آش واعماله صلحاً ودخل في طاعتهم صاحبه

ابو عبد الله محمد بن سعد

قال صاحب حقائق الاخبار ثم ان ملك الاسبانيول وهو فرديناند الكاثوليكي راسل ابا عبد الله بن ابي الحسن صاحب غرناطة وعرض عليه الدخول في الخطة التي دخل فيها عمه من النزول له عن البلاد على اموال جزيلة يبذلها له ويكون تحت حكمه وله الخيار في اي بلاد الاندلس شاء ولما شاور رعيته اتفق الناس على الامتناع ومحاربة العدو بكل الممكنات ولما علم الاسبانيول بذلك ضاعفوا استعداداتهم وقووا جيوشهم وعزموا على منازلة غرناطة بعد ان استولوا أثناء هذه الفتن على حصون كثيرة بحيث لم يبق لبني الاحمر الا غرناطة واعمالها وفي {٨٩٦} اقبل العدو الى خارج غرناطة بالعدد والعدد وكان جيشه يتألف من جيوش قشتالة واراغون غير المدد الكثير الذي امدته به اوربا فافسد الزرع وقطع الاشجار وهدم القرى وكان الناس في أول الامر يظنون انه عازم على الانصراف فاذا به قد صرف عزمه الى الحصار والاقامة وصار يضيق على غرناطة كل يوم ودام القتال سبعة اشهر واشتد الحصار بالمسلمين ومع ذلك كان الاسبانيول على بعد من المدينة والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام ياتي من ناحية جبل شلير الى ان تمكن فصل الشتاء ونزل الثلج وانسد باب المرافق وانقطع الجالب وقل الطعام واشتد

الغـلاء وعظم البلاء واستولى العدو على اكثر الاماكن خارج البلد ومنع المسلمين من الحرث والسبب وضاق الحال { ٨٩٧ } ثم طمع العـدو في غرناطة بسـبب الجوع والغلاء دون الحرب والقتال وفرناس كثيرون من الجوع الى البشرات ثم اشتد الامر وقل الطعام وتفاقم الخطب فاجتمع الناس مع من يشار اليه من اهل العلم والوجاهة وتكلموا مع السلطان ابي عبد الله وان العدو يزداد كل يوم وهم لا مدد لهم ولا طعام يأتيهم وكانوا يظنون انه ينصرف عنهم فخاب ظنهم فاتفق الرأي بعد اخذ ورد على ارتكاب اخف الضررين وشاع ان الكلام في الصلح وقع بين رؤسـاء الجندين فاتفقوا على شروط عقدت بهـا بين الطرفـين الوثائق ثم قرئت على اهل غرناطة فانقادوا لهـا ووافقوا عليهـا وكتبوا البيعة لصاحب قشتاله فقبلها منهم ونزل سلطان غرناطة ابو عبد الله عن الحمراء وذهب بعد ذلك الى مراكش فاقام بمدينة فاس في سلطنة السلطان محمد الشيخ الوطاسى ولمـا دخل الاسبانيول المدينة عينوا لها حكاما ومقدمين ثم دخل اهل البشرات ايضاً في هذا الصلح وبقي الاسبانيول يراعون الشروط التي اشترطوها على انفسهم مدة قليلة الى ان تمكن قومهم وعلموا ان لا ناصر للمسلمين فعدلوا عن مراعاة تلك الشروط واذاقوا من بقي من المسلمين في تلك البـلاد انواع الاضطهـادات .

وسيمر بك الكلام في هذا الباب في تاريخ اسبانيا الذي تراه في المجلد الثاني ان شاء الله

الباب الثاني والثلاثون

في سائر الدول الاسلامية العربية الكبيرة

فصل

في دولة الادارسة بالمغرب الاقصى (١٦٩ ـ ٢١٣)

رأسهم ادريس واشهرهم يحيي بن يحيي خطب له بجميع المغرب ولم يجر في عهدهم من الحوادث الكبيرة ما يخلق بالتدوين في هذا المختصر

فصل

في دولة العبيديين او العلويين او الفاطميين بأفريقيا (٢٩٦ ـ ٤٢٧)

قامت هذه الدولة بتونس على اثر دولة الاغالبة الذين كانوا قد توارثوا الحكم فيها من سنة ١٨٤ الى ٢٩٦ ورأسها المهدي وقد دام حكمها في تونس الى سنة ٣٦١ فخلفتها فيها دولة بني زيري الصنهاجيين ودامت الى سنة ٥٤٢ وفي سنة ٣٠٥ بعث المهدي جيشا يفتح له المغرب الاقصى فتم له ذلك ودامت دولة العبيديين فيه الى سنة ٤٢٧ . ولما جلس المعز لدين الله على تخت العلويين (٣٤١ ـ ٣٦٥) حارب الناصر لدين الله الاموي

الاندلسي طويلا . ثم علم باضطراب الدولة الاخشيدية في مصر ولاسيما بعد وفاة كافور فارسل اليها جيشا جرارا عليه جوهر الشهير (٣٥٥) ففتح البلاد بلا حرب واختط القاهرة ثم جاءها المعز بحراً باهله وخزائنه وقامت فيها دولتهم الفاطمية واستعمل المعز على افريقيا يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي وهو رأس الدولة المعروفة بهذا الاسم وعلى بلاد صقلية ابا القاسم علي بن الحسن بن علي وعلى طرابلس الغرب عبد الله بن يخلف الكتامي

وقام بالامر بعد المعز ابنه العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦) فضم فلسطين والشأم الى مملكته وخلفه الحاكم (٣٨٦ ـ ٤١١) فادعى الربوبية واوجد طائفة الدروز وخلفه القاهر (٤١١ ـ ٤٢٦) ثم المستنصر { ٤٢٦ ـ ٤٨٤ } وفي عهده انضمت الخلافة العباسية موقتا الى الدولة الفاطمية ، ثم انحصرت هذه الدولة في القطر المصري بين دولة بني زيري من جهة افريقيا ودولة ملك شاه السلجوقي من جهة آسيا حيث فتح الشأم وفلسطين . وفي اثناء الحروب الصليبية استرد الفاطميون فلسطين غير انهم لم يلبثوا ان انقرضوا وخلفتهم الدولة الايوبية التي رأسها صلاح الدين الشهير (٥٤٩) ثم قامت دولة المماليك بعد الايوبيين (٦٢٨)

﴿ فصل ﴾

في دولة الملثمين او المرابطين بالمغرب الاقصى (٤٦٢ ـ ٥٤٢)

اشهرهم يوسف بن تاشفين الملقب بامير المسلمين دوخ بلاد المغرب واستنزل ثوارها ثم قصد الاندلس امدادا لامير اشبيلية المعتمد بن عباد فوقعت بينه وبين الفونس السادس واقعة الزلاقة التي هي اكبر وقائع المسلمين بالاندلس فتغلب عليه وقتل خلقا جما من جنوده وجمع بين حكم المغرب والاندلس . وخلفه ابنه علي فكان كابيه غازيا مقداما

﴿ فصل ﴾

في دولة الموحدين بالمغرب الاقصى وتونس (٥١٤ ـ ٦٦٨)

رأسهم المهدي ثم خلفه ابنه عبد المؤمن وتلقب بامير المؤمنين . ملك المغربين وافريقيا والاندلس ومنهم الناصر الذي دحر الفونس جيوشه الجرارة في موقعة لورقة فذهبت بها قوة المسلمين بالمغرب والاندلس ولم تنصر لهم بعدها راية مع الافرنج الى ان قام السلطان المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق المريني . واستولت دولة الموحدين على تونس من سنة ٥٥٥ الى سنة ٦٠٣ ثم خلفتها بتونس دولة بني حفص من سنة ٦٠٣ الى سنة ٩٨٢

﴿ فصل ﴾

في دولة بني مرين بالمغرب الاقصى (٦١٤ ـ ٨٩٠)

رأسهم الامير عبد الحق وقد قتل في منازعته للموحدين

ثم استتب الملك لاعقابه وكان اعظمهم يعقوب بن عبد الحق المتقدم ذكره فانه فتح امصار المغرب واخذ مدينة سلا من الاسبانيين واجهز على بقية الموحدين وانتزع الملك منهم واستولى على مراكش ثم على سلجماسه ودان له المغرب كله . ثم جاز البحر الى الاندلس اربع مرار اجابة لاستصراخ ابن الاحمر وانتصر على الافرنج نصرات باهرة وغنم اموالاً لا تحصى وكانت الاندلس تحت حكمه وكان قصره الذي توفي فيه بالجزيرة الخضراء ومن مآثره الجليلة البيمارستانات والمستشفيات التي شيدها واجرى عليها المرتبات الكثيرة للمجانين والمجذوبين والعمي والفقراء والمدارس التي اقامها ووقف لها الاوقاف

ومن اكابر ملوكهم السلطان المنصور بالله ابو الحسن علي استرد من الاسبانيين جبل الفتح وثغر طريف وجرت بينه وبينهم وقائع برية وبحرية عظيمة ثم دحروه واستولوا على الجزيرة الخضراء . وفي سنة ٧٤٨ استولى على تونس واعمالها ثم طرد منها . وفي اواخر عهد هذه الدولة استولى البرتغاليون على كثير من ثغور المغرب الاقصى واستولى الاسبانيون في سنة ٨١٨ على سبته ثم على قصر المجاز وقصر مصموده { ٨٦٢ } ثم على طنجة (٨٦٩) ثم على اصيلا (٨٧٦) ثم على بعض جهات السوس . وقامت بعد بني مرين دولة بني وطاس (٨٧٦-٩٦١)

ثم دولة الاشراف السعديين (٩١٥-١٠٦٩) ثم دولة الاشراف السلجماسيين وهي المستولية الى الآن

﴿ فصل ﴾

فيما كان للعلوم والصنائع من الشأن في الدولة العربية الاسلامية عامة

اشتغل العرب بجميع العلوم والصنائع التي عرفت في ايامهم ونبغوا فيها وزاحموا بها اهل المنزلة الاولى من كل قوم ولم يكونوا الواضعين لشيء مما تركوه ولكنهم باروا به واضعيه وفاقوهم احياناً وقد قام منهم الشعراء والكتاب الذين لا يشق لهم غبار والمؤرخون المشاهير والحكماء والاطباء والفلاسفة الذين ملأ ذكرهم الارض ونقلت مصنفاتهم الى جميع اللغات . وكذلك قام منهم النقاشون والبناؤون والنحاتون الذين صنعوا ما يبهر العيون ويسحر الالباب ومما يذكر لاهل الاندلس خاصة انهم اول من احتفروا الترع واحكموا ترتيبها للري وقطروا الازهار وبلغوا الشأو المستطاع لعهدهم في علم الطب . وللعرب المدارس والمستشفيات والمعالم التي تنطق آثارها ابداً بفضلهم واجمل ما امتازت بها ممالكهم على كثرتها وتشعبها ما كان بينها من الرابطة المعنوية التي جعلتها كلها تنتفع بالمعارف والفنون والمصنوعات التي كان يأتي بها بعض الافراد من البلاد الاجنبية بحيث كانت من هذا القبيل كأنها دولة واحدة وعلى هذه الصورة

ثم بين رعاياها شيوع المنقولات عن اليونان من كتب الفلسفة واصول البناء والمأخوذات عن الهند من فني الارثماطيقي والجبر والمكتشفات الصينية العظيمة الاهمية من مثل بيت الابرة وبارود المدافع والورق المستخرج من الخرق الى ما يضارع ذلك . ولسنا نسمي احداً من مشاهير العرب في الامور التي ذكرناها لان اسماءهم موعية في الصدور ولا نزيد قراء هذا الكتاب بها علماً . وعلى الجملة فان الدولة العربية في قيامها كان لها اعظم شأن في الدنيا وبعد سقوطها وزوالها بقي لها انفع أثر وأجل ذكر

الباب الثالث والثلاثون

في منشإ الدولة العلية العثمانية الى وفاة السلطان الفاتح محمد الثاني

(١٢٩٩ ـ ١٤٨٤)

تمهيد

في الدولة السلجوقية (١٠٣٧ـــ١٢٩٤)

السلاجقة فرع من امة تتارية عظيمة كانت في سنة ٦٠٦ م نازلة في جنوبي بحيرة بيقال وكان اسمها هوي هو ويقال ان الهون خرجوا منها . وكانت خاضعة للصينيين ثم خرجت عن حكمهم في القرن التاسع وضربت في البلاد حتى ادركت بحر

قزبين فاستقرت في البلاد الواقعة على الجانب الشمالي منه ٠ وكان رأسها سلجوق وكان قائدا لبيغو خان ملك الترك ثم فر منه راحلا بقومه الى دار الاسلام فنزلوا في نواحي جند وراء بخاري في القرن العاشر وهناك اسلم ومن معه وتوفي بعد ذلك ٠ وفي سنة ١٠٣٧ تمكن حفيده طغرل بك من الامارة وتلقب سلطانا وفتح خراسان ومحا دولة بني بويه ودخل بغداد في خلافة القائم بامر الله وتولى الامر فيها وجعل الخليفة اسماً بلا فعل (١٠٥٥) ولما توفي طغرل بك في سنة ١٠٦٣ كانت مملكته ممتدة من السند الى الفرات ٠ وفي سنة ١٠٤١ كان ابن اخيه قد فتح له بلوخستان ٠ وبعد ان قبض هذا الملك العظيم اضاف خلفاؤه بلاداً كثيراً الى ما ورثوه من ملكه وقسموا السلطنة بينهم الى خمسة أقسام اكبرها واولها سلطنة ايران أو الفرس وكان لها السيادة على سائر الاقسام وكان اميرها الب ارسلان بن طغرل بك (١٠٦٣ ـ ١٠٨٢) وخلفه فيها ملك شاه (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢) وكان مقداماً غازيا كبير الهمة فتح ارمينيا وكورجتان (١٠٧١) وديار بكر (١٠٨٥) وامتدت تخوم امارته من القوقاف الى بحر قزبين الى بحر آرال الى جبال بولور الى السند الاعلى

وثانيها امارة قرمان في جنوب المتقدم ذكرها على خليج العجم

وبحر عمان بطولهما

وثالثها امارة بلاد الروم اوقونية اسمها سليمان علي وضم اليها اسيا الصغرى من سنة ١٠٧٤ الى سنة ١٠٨٤

ورابعها امارة حلب اسمها توتوش بن ملك شاه

وخامسها امارة الشام اسمها بن تتوتوش المذكور

وعلى هذا الشكل كانت آسيا الغربية والممالك الاسلامية يوم حدوث الحرب الصليبية الاولى التي قام بها نصارى المغرب على مسلمي المشرق

وقد دامت الدولة السلجوقية الى سنة ١٢٩٤ وزالت وكان آخر ملوكها بقونية السلطان علآء الدين على ارجح الاقوال وهو الذي اتصل به ارطغرل والد عثمان الغازي رأس الدولة العثمانية وارطغرل هذا احد اربعة ابناء لسليمان شاه بن قيا الب من سبط قايي خان . وكان سليمان قد نزل زمانا بمن معه من قومه في جهات اذربيجان حتى اذا هاجم السلاجقة خراسان وخوارزم قفل راجعاً الى وطنه في اواسط آسيا بصحراء ماهان وكان قد هجره فراراً من وجه غارة جنكيزخان سلطان المغول . وبينما هم عائدون توفي سليمان فرأى ارطغرل ان يقصد بلاد الاناطول وانفصل بمن تبعه عن الذين اصروا على العودة الى وطنهم وسار في ٤٠٠ بيت فضربوا خيامهم في جهات سرمه لوو وپاسين ثم اقطعهم

السلطان علاء الدين قرهجه طاغ بقرب انقره فانتقلوا اليها . وكان لارطغرل زهاء ٤٤٠ فارساً انجد بهم جنود علاء الدين في بعض وقائعهم مع جيش لهولاكو خان من اعقاب جنكيزخان ملك المغول فسر ذلك السلطان وأقطع ارطغرل جهة سكود واراضي غيرها واسعة منها صيراجق من ولاية قونية وفوض اليه امر الدفاع عن جانب من جوانب سلطنته . وكانت هذه البقعة مهد الدولة العثمانية

﴿ فصل ﴾

في تأسيس الدولة العلية وذكر السلطان الغازي عثمان (٦٩٩—٧٢٦)

هو ابن ارطغرل المتقدم ذكره لما توفي ابوه جزع علاء الدين واستدعاه وعهد اليه حماية قلعة كوتاهية ونصبه مكان والده ومنحه الاستقلال واهدى اليه شارات السلاجقة وامر بالخطبة له من بعده . وكان الفساد قد استشرى في جسم المملكة السلجوقية واستبد كل عامل بولايته . واتفق ان اولئك الولاة تآمروا على قتل عثمان لما نالهم من الحسد له فحذره من مكيدتهم احدهم وكان يدعى كوسه ميخال فنجا منهم . ولما اغار غازان خان في سنة ١٢٩٩ على مدينة قونية ازال السلطنة السلجوقية فتم الاستقلال المطلق للولاة كل في اقليمه وكان من هذا العهد مبدأ التاريخ الحقيقي للدولة العثمانية . ولجأ جمهور من امراء

السلاجقة وعلمائهم واعيانهم الى كنف الامير عثمان لحمايتهم واستمر سبع سنين يغزو حتى فتح اكثر مملكة الروم السلجوقية ثم اغزى ابنه الغازي اورخان مدينة بروسه ففتحها واتخذها دارا للملك عوضا عن يكيشهر

﴿ فصل ﴾

في السلطان اورخان الغازي (٧٢٦ـ٧٦١)

ولما توفي عثمان خلفه ابنه اورخان وكانت شبه جزيرة الاناضول منقسمة بين جملة من ملوك الطوائف الذين قاموا على أثر انقراض الدولة السلجوقية كما اشرنا الى ذلك فاول ما صرف همه اليه وضع القوانين والنظامات وتقرير احوال المملكة فرتب العساكر النظامية واجرى لها الوظائف والبسها الاكسية التي تمتاز بها واسس فرقة الانكشارية واقام علاء الدين باشا وزيراً له وقسم الاراضي المفتوحة الى قسم خاص بالخزينة السلطانية والاسرة المالكة ونفقات الديوان وقسم خاص برجال الحرب . ثم شرع في الغزو ففتح قلعة قبون حصار ثم مدينة ازميد (نيقوميديا)

وفي سنة ٧٣١ فتح مدينة ازنيك واتخذها عاصمة ثم عقد هدنة صلح لعشرين سنة مع قيصر القسطنطينية واستزاد بمقتضاها سائر املاك القياصرة بالاناضول عدا مدينة الاشهر

وقلعة بيغا وضم مملكة قره سي الصغيرة الاناضولية . ثم نقض قيصر الروم عهد الصلح بعد تجديده فامر السلطان اورخان ولده الغازي سليمان باشا بالزحف على بلاد الروملي انتقاماً منه فعبر الدردنيل ليلا في جيشه الى ساحل تلك البلاد فاتفق الروم والمجر والصرب والبلغار والافلاق والبغدان على محاربته فانقض على جيوشهم من جبال البلقان وبددها وغزا في البلغار وسبا وسكن الثورات ثم انقلب الى القسطنطينية اغاثة لقيصرها الذي استجار به لخروج جماعة من قومه عليه فوصل الى اسوار العاصمة ثم عاد منها وفتح قلعة كاليبولي الحصينة وجملة مراكز بعدها ثم ادركته منيته ذات يوم وهو خارج للقنص فحزن عليه والده حتى لم يلبث ان مات على اثره

﴿ فصل ﴾

في السلطان مراد الاول الغازي (٧٦١ ــ ٧٩١)

هو ابن السلطان اورخان فتح قلعة انقرة في سنة ٧٦٢ ثم انتصر جنوده في الروملي على جيش مؤلف من البنادقة والاهالي حاول اخراجهم من تلك البلاد فاستزاد مراد عدد مراكبه وعبر في كتائب جرارة الى الروملي وفتح كثيراً من المراكز والقلاع واستولى على مدينة ادرنه العظيمة واغزى قواده كوملنجة وسائر البلاد الروملاية الجنوبية وفتح فلبه { ٧٦٥ }

وزغره ومناستر وبهشتنه . وكذلك صوفيه بعد حصار ٣ سنين
{١٣٨٣} ومناستر دخلها الصدر الاعظم خير الدين باشا {١٣٨٦}
واتخذ السلطان مراد مدينة ادرنه عاصمة له وبلغه قيام علآء
الدين ملك القرمان على العثمانيين فامه الى بلاده وغزاه واستولى
على ولاية كرميان وسواها من البلاد التي كانت لا تزال مستقلة.
وفي خلال ذلك تواطأ لازار ملك الصرب وملوك الافلاق
وامراء دلماسيا وملك المجر وملك البلغار على محاربة العثمانيين
فلقيهم جيشهم في سهل قوصوه فانتصر عليهم انتصاراً باهراً وايد
بذلك تابعية البلغار والروملي واسيا الصغرى للدولة العلية وادخل
الصرب في ولايتها . وعند انتهاء الحرب كان احد جنود الاعداء
قد تماوت فلما مر به السلطان وهو يقلب نظره في الجرحى
والقتلى والغنائم المتروكة طعنه بخنجر فقتله لساعته

﴿ فصل ﴾

في السلطان يلديرم بايزيد الاول (٧٩١ ــ ٨٠٥)

حذا حذو ابيه في الغزو والفتوح ومعنى يلديرم الصاعقة
لقب بذلك لما كان من شده بأسه وبسالته . ومن عظيم اعماله
ادخاله ملك الصرب في طاعته وفتحه قلعة الاشهر « فيلادلفيا »
واخضاعه جميع ممالك الاناضول المستقلة واستيلاؤه على سلانيك
ورده جيوش البنادقة والفرنسويين والجنويين والاسبانيين

مدحورين اذ حاولوا اخراجه منها ومحاصرته للقسطنطينية ثم رجوعه عنها لمحاربة المجر وردهم عن صوفيا وغزوه لاطراف البلغار ومقدونيا وشبه جزيرة المورة واثينا واستعداده ثانية لفتح القسطنطينية بعد ان عاهد قيصرها على الصلح والجزية ثم محاربته لتيمورلنك الذي جاء يريد تمزيق الدولة العثمانية وانكسار جيوشه بقرب انقرة لانحياز خمسين الفاً منهم الى قواد تيمورلنك . وحدث على اثر هذه الهزيمة ان اشتد الخطب على بايزيد لوقوعه في الاسر فمات عن سبعة اولاد . فاخذوا يختصمون ويتنازعون على ما بقي للدولة من البلاد وكان الطاغية يضرب بعضهم ببعض ويؤيد فريقاً منهم على الآخر لاضعافهم ثم بدا له غزو الصين فارتحل ومات في طريقه ولم يلبث محمد احد اولاد السلطان بايزيد ان اعاد وحدة السلطنة وجعل زمامها في يده وقتل منازعيه

﴿ فصل ﴾

في السلطان محمد الاول بن بايزيد (٨١٦ — ٨٢٤)

كان يلقب بجلبي . ولما استتب له الامر عقد الصلح مع الدول الاوربية وصرف عنايته الى اصلاح داخل السلطنة بعد الفساد الذي عم فيه ثم انتقض عليه ملك الافلاخ وسجسمند صاحب المجر فسار السلطان لمحاربتهما فاذلهما وصالحهما ثم اشتغل

بتسكين الفتن العظيمة التي قامت في الدولة واهمها فتنة بدر الدين الاشتراكي الذي كان يذهب الى وجوب المساواة بين الناس في الاحوال وسائر المقتنيات بلا فرق بين مسلم وغيره . ولما دنت منية محمد الاول اوصى بالملك لابنه مراد من بعده

﴿ فصل ﴾

في السلطان مراد الثاني الغازي (٨٢٤ ــ ٨٥٥)

كان هذا السلطان حكيماباسلا واول ما شرع فيه عقد الصلح مع امير القرمان ومهادنة ملك المجر ليتفرغ للاصلاح في داخلية السلطنة فلم يمهل فيذلك طويلا لان ملك القسطنطينية شرط عليه شروطاً لم يكن ليقبلها فاطلق الامير مصطفى اخا السلطان بايزيد وكان قد اختفى من وجه اخيه ولجأ الى سلانيك وبقي فيها الى ذلك العهد فجهز له ملك الروم اسطولا وجيشاً وبعثه يحارب ابن اخيه ليتولى الحكم مكانه غير انه لم يلبث ان قبض عليه وقتل مشنوقاً ثم حاصر السلطان مراد القسطنطينية ارادة ان يعاقب قيصرها على عمله فاضطر ان يرجع عنها لتسكين ثورة احدثها احد اخوته في بلاد الاناضول فدحره وقتله واخضع جميع الامارات المستقلة التي ساعدت اخاه عليه ثم جرد على ملك المجر فنكل بجيشه وعقد الصلح معه على الاقرار بان نهر الدانوب الفاصل الطبيعي للاملاك العثمانية عن الاملاك المجرية واضطر

ملك الصرب ان يحمل الجزية اليه ويمده بفرقة من جنوده في الحرب ويقطع الصلة بينه وبين ملك المجر ويتنازل عن مدينة آلاجه حصار في وسط بلاده لتكون مركزاً لحامية عثمانية وفي سنة ١٤٢٥ ركب يوحنا باليولوغوس تخت القسطنطينية فلم يقر به السلطان الا على جزية يؤديها والتنازل له عن جميع ما بقي للروم من القلاع والحصون على شواطىء البحر الاسود وسواحل الروملي ففعل . ثم جرد السلطان على سلانيك يريد حصارها وكان قد احتلها البنادقة واستبدوا باهلها فانتصر اسطوله بحرا بقرب كاليبولي على اسطولهم وشدد جيشه الحصار على المدينة الى ان فتحها عنوة {١٤٢٩} ثم استولى على اغنائية وابيره ويانيه وجميع البلاد والمدن التي بقرب برزخ قورنثيه وعاث في الموره

وفي سنة ١٤٣٦ فتح السلطان قونيه التي ثار صاحبها ابن قرمان بايعاز من المجر فانتزع الامارة منه ثم ردها اليه على ان يكون تابعاً للدولة . وبعد ذلك انقلب لمحاربة ملك المجر وامير الصرب وارسل جيشاً جراراً الى بلادهما فعاث فيها ثم عاد لهدنة عقدت ولكن الحرب لم تلبث ان انتشبت ثانية ودخل فيها يوحنا هونياد المجري الشهير امير الاردل يقود جيش لادسلاس ملك المجر وبولونيا وجمهورا معهم من الفرنسويين والالمانيين فدارت الدائرة على العثمانيين بقرب هرمانشتار اولا وبقرب بلغراد ثانياً .

ثم عقدت هدنة لعشر سنين قبل فيها السلطان باستقلال الافلاق
ورد قلعة سمندره للصرب واعتزل مراد الملك وولى ابنه محمدا
الثاني فلما احس بذلك لادسلاس استأنف الحرب غير مراع للهدنة
فعاد مراد الى تولي الامر وعبر بجيشه من مضيق البحر الاسود
والتقى بجيش الاعداء الجرار امام مدينة وارنه فاشتد العراك
وقتل لادسلاس وخاصة جنوده فتفرق الباقون منهزمين لا يلوون
على شيء (١٤٤٤) ثم اعتزل السلطان ثانية فغضب الانكشارية
فعاد الى الملك وارسلهم يفتحون بلاد اليونان فدخلوا قورنثيه
عنوة على شدة تحصن برزخها وضربوا الجزية عليها. ثم استرجعوا
من فورهم لقيام اسكندر بك الشهير . وكان هذا الرجل احد اولاد
اربعة لامير على البانيا يدعى جان كاسترو استرهنهم السلطان لديه
ليستمر والدهم في الطاعة له واداء الجزية . فلما شب اسكندر
المذكور تظاهر بالاسلام وتولى مناصب سامية ثم اصطنع كتاباً
سلطانياً بتوليته امارة ابيه وخرج في جيش عثماني بدعوى مقاتلة
يوحنا هونياد فاوقع الهزيمة على جنوده وذهب الى البانيا واستقل
فيها ونكل بالحامية العثمانية في جميع قلاعها وبقي يحارب الدولة
خمساً وعشرين سنة مظفراً على ما سيجيء وصفه في المجلد الثاني
ان شاء الله وفي سنة ١٤٤٨ استأنف يوحنا هونياد محاربة العثمانيين
على رأس جيش تحالفي جرار فقابلته جنود السلطان في وادي

قوصوه فدامت المواقع ثلاثة ايام بقي النصر بعدها للعثمانيين ٠ وبعد ذلك بسنةزوج مراد ابنة لاسكندر بك من ابنه محمد ثم توفاه الله وقد منح الوطن منتهى جهده وجميع ساعات عمره فايده ووسع جوانبه وجعله آمناً في الداخل مهيبا في الخارج

﴿ فصل ﴾

في السلطان الفاتح محمد الثاني (٨٥٥ ـ ٨٨٦)

كان هذا السلطان من اعظم ملوك الارض واكثرهم مزايا فانه كان من جهة بطلا صنديدا وقائدا فريدا ومن جهة اخرى صالحا عادلا عالما يحسن العربية والفارسية واللاتينية وغيرها من اللغات ويميل الى الصنائع الجميلة ويقرب اهلها واهل العلوم والآداب على اختلاف اجناسهم وهو أبو العظمة العثمانية ومنشىء بحرية الدولة العلية

عند ما تولى الملك ثار عليه كثير من امراء الاناضول بدعوى استرداد بلادهم فتمكن من الغلبة عليهم واخضاعهم جميعا

ثم اخذ يجهز الجنود والاساطيل لمحاصرة القسطنطينية ولما أعدت برح ادرنه في مئتى الف مقاتل و٣٠٠ بارجة عدا سفائن النقل وحاصر القسطنطينية براً وبحراً ودخلها عنوة كما وصفنا ذلك من قبل بالايجاز وكان هذا الفتح من اعظم ما ورد ذكره في التواريخ وابدى فيه السلطان من المهارة والقيادة والدهاء

في الفنون الحربية ما لم يسبقه الى بعضه الا أكابر الفاتحين ومن مآثره انه ابقى للنصارى عدة كنائس وحرية الدين وكان بذلك مفتتح اشرف خطة جرى عليها ملوك آل عثمان مع ذوي المذاهب المختلفة من رعاياهم. ولما استتب للسلطان الامن في القسطنطينية واحكم تحصينها غزا بوسنه ثم ضرب الجزية على الموره وكان قد ارسل قبل ذلك اسطولا تحت قيادة الرئيس يونس ففتح قلعة اينوز وجزيرتي سماديرك وطاشيوز وكانتا للبنادقة

ولما كان فتح القسطنطينية قد اثار عوامل الغضب والحقد عند ممالك اوربا سعى البابا في تأليف حملة صليبية فتم له ذلك واغار جيش جرار على حدود المملكة العثمانية باوربا سنة (٨٦٠هـ) (١٤٥٦م) فحاصر السلطان مدينة بلغراد براً وبحراً فقاومه هونياد فيها واضطره الى النكوص عنها وجرح هونياد في هذه الحرب جرحا بليغا مات به بعد عشرين يوما من رفع الحصار ولما علم السلطان بموته ارسل محمود باشا الصدر الاعظم فاتم فتح بلاد الصرب (٨٦٠ هـ) وبذلك فقدت هذه البلاد استقلالها تماما ثم ضرب الجزية ثانية على الموره ثم فتحها ثم جهز على بلاد الصرب ففتحها جميعها عدا بلغراد عاصمتها ثم فتح امارات اماصره وسينوب وطرابزون

وحدث بعد ذلك ان ولاد امير الافلاق استبد برعيته

استبداداً شديداً فاستجاروا منه بالسلطان محمد الثاني فحاربه وكسر جيوشه ونصب اخاه على تخته وبعد ذلك فتح جزيرة مدللي تأميناً لبوغاز الدردنيل (٨٦٦)

وكان ملك البوسنة قد امتنع عن دفع الجزية السنوية المضروبة عليه فاتاه الصدر الاعظم محمود باشا سنة ٨٦٧ ه وأخذ في مطاردته من نقطة الى أخرى الى ان حاصره ببلدة كلوجي فسلم وخضع ايضاً جميع من بالقلاع والمدن من الحكام وكانوا في اول الامر تمردوا شديداً ومع ذلك فان السلطان أمر بقتلهم جميعاً ولما تم للعثمانيين الاستيلاء على بلاد بوسنة وعاد السلطان اغار متياس كورفين بن هونياد بقوة عظيمة على بلاد بوسنة قصد استردادها فسارت اليها الجيوش العثمانية ثانية سنة ٨٧٠ ه تحت قيادة الوزير الاعظم محمود باشا وما زالوا ينازلون المجر حتى طردوهم من تلك البلاد بعد أن قتلوا منهم عدداً عظيماً واستردوها تماماً ومن هذا الوقت دخلت بلاد بوسنة في عداد الممالك العثمانية ونزع امتيازها تماماً

ثم ان اساطيل السلطان انتصرت على اساطيل البنادقة بعد حرب دامت ١٦ سنة وفتحت جزيرة اغريبوز او نغربنطس وكانت مركز مستعمرات الاعداء وبعد ذلك ضمت امارة قرمان الى السلطنة

ولم يكتف السلطان بكل ما تقدم ذكره من المغازي بل وجه نظره الى روسيا وكانت لا تزال في ايدي التتار من عهد تيمورلنك الا ثغور آزاق وكفه ومنكوب وغيرها منها فقد كان الجنويزيون استولوا عليها فامر محمد الثاني بفتحها وطردهم منها. ففتحت بلاد القريم برضى من اهلها لشدة ما كان واقعاً من الشقاق بين امرائها الاثني عشر ابناء الحاج كراي آخر ملوك القبجاق . ثم استولت على ثغر آق كرمان . واتجهت منه نحو الطونة قاصدة بلاد البغدان بينما كان السلطان قد سار اليها براً في جيش كثيف ولكن ملكها اسطفان الرابع تمكن من رد العثمانيين على اعقابهم ولقبه البابا من اجل ذلك بحامي النصرانية

اما السلطان محمد فانه استعاض عن هذا الفشل بفتح اكثر املاك البنادقة وفرض الجزية عليهم في عاصمتهم وعقد معهم صلحاً (٨٨٤) وكان من اهم ما استولى عليه مدينة اشقودره وقد حاول في آخر عهده فتح جزيرة قبرص فلم يتسن له ذلك وادركته منيته وهو يسير جيشاً بقيادته لغزو بلاد العجم

الباب الرابع والثلاثون

في اتساع دولة الافرنك والكلام على مشروع التأليف بين الكنيسة والحكومة

فصل

في المجتمع الكهنوتي

عند ما خرجت الكنيسة ظافرة من الاضطهادات وسودها قسطنطين على سلطنته الواسعة فقررت قانون ايمانها ووضعت تعاليمها ونظامها جعلت الدرجات العليا للكهنوت انتخابية والدرجات التي دونها منوطة بارادة الاسقف ومن فوقه . وكان الاسقف رئيس الكهنة في مركز يدعى بالابرشية والمتروبوليت رئيس الاساقفة في عدة مراكز تدعى جملتها بالولاية الكنسية والبطريق اسقف احدى العواصم الكبرى وفوقه اسقف رومة الذي خول الرئاسة على جميع طبقات الكهنوت في المجمع القسطنطيني سنة ٣٨١

وكان البابا ذا املاك واسعة وسطوة مادية فضلا عن السلطة الدينية . وقد زاد نفوذه على اثر سقوط سلطنة الغرب ومملكة تيودوريك الا انه بقي مع ذلك تابعاً لامبراطور الشرق ولنائبه الاكزرخوس المقيم في مدينة رافينا عاصمة المملكة الايطالية الجديدة . غير ان هذه التابعية كانت خفيفة الوطأة على البابا لبعد مقر الامبراطور عن رومة ولاشتغال اكزرخوس رافينا بما كان يخشاه من سطو اللامبرديين على تلك المدينة

ولما تولى البابا غريغوريوس الكبير { ٥٩٠ — ٦٠٤ } بذل جهده في سبيل زيادة قوة البابوية وكان اول ما فعله ان انقذ رومة من غارة اللمبرديين ثم اخذ يجتهد في تحويل الهراطقة والوثنيين الى الدين الكاثوليكي فادخل فيه الويزيقوط واهل

انكلترا وهلفيسيا وبافاريا وضاعف عدد الاديرة

ثم اقتدى به خلفاؤه فاكتسبوا هولندا وفريزا ثم جرمانيا على يد القديس بونيفاس الذي عين اسقفا لها في سنة ٧٢٣

على ان تابعية البابا لامبراطور الشرق بعد اتساع نفوذه وعلو كلمته الى هذا الحد كان لابد من انقطاعها ولذلك حدث ان يوستينيان الثاني اراد عزل البابا سرجيوس فلم يطعه الجنود . وحدث ايضاً ان عامل القسطنطينية على رومة امر بتكسير الصور في الكنائس فطرده الشعب واثاروا ايطاليا عليه (٧٢٦) فانتهز اللمبرديون هذه الفرصة واستولوا على اكزرخية رافينا وازمعوا وضع يدهم على رومة فاستجار البابا غريغوريوس الثالث بزعماء الافرنك الاسترازيين لانقاذ المدينة منهم

﴿ فصل ﴾

في ذكر كارلوس مارتل و ببين القصير (٧١٥ ـ ٧٦٨)

لما توفي ببين الهريستالي (٧١٥) تولى ابنه برضى من جماعة اللود منصب ابيه في بلاط استرازيا ودحر النوستريين الذين حاربوه متحدين مع السكسونيين والاكيتانيين وفي سنة ٧٣٢ صد غارة العرب وردهم الى ما وراء جبال البرانس ثم فتك بالسكسونيين والبافاريين معاً في شرق البلاد وسار في غربها لاخضاع اكيتانيا التي لم تطق تسلط استرازيا عليها . وفي سنة ٧٤١ اتاه رسولان

من قبل غريغوريوس الثالث بهدايا فاخرة منها مفاتيح مدفن القديس بطرس وبلقي قنصل وشريف ورسالة من البابا يشكو فيها اليه لويتبرند ملك اللمبرديين لانه كان عازما على ضم ايطاليا كلها الى مملكته ويسأله فيها ان يدفع ذلك الملك عن رومه ويكون حامي الكنيسة الرومانية

وكان ملك اللمبرديين كاثوليكياً الا ان سياسة البابا قضت عليه بان لا يحتمي به لقربه منه وان يمنح حمايته لملك بعيد عنه وعلى هذه الخطة جرى سائر البابوات بعده فكانت خطة مشؤومة لانها جرت اعظم المصائب على ايطاليا

على ان كارلوس توفاه الله في تلك السنة (٧٤١) وخلفه ابناه كارلومان وبين فكان احدهما مدير البلاط استرازيا والآخر لقصر نستريا واشتغلا بادئ بدء بتوطيد الامن على التخوم. ثم اعتزل كارلومان سنة ٧٤٧ في دير جبل كاسين وانفرد ببين بالسلطة فعزم على تتويج نفسه بالتاج الذي اصبح سخرية على رؤوس الملوك الخاملين من الميروفنجيين فاستشار البابا زخريا في ذلك فاجابه ان الحق بلقب الملك لمن في يده السلطة وفي سنة ٧٥٢ مسحه القديس بونيفاس بالزيت تثبيتاً له وحبس آخر الميروفنجيين في دير. وبعد هذه الحادثة بسنتين اتى البابا اتيان الثاني الى فرنسا وثبت الملك ثانية بالمسحة الدينية فكافأه ببين

على ذلك بان وهبه بانتابوليا واكزرخية رافينا اللتين انتزعهما من اللمبرديين. ثم ادار بين رحى الحرب على السكسونيين فدحرهم وعلى العربان الذي يسميهم الافرنج بالسراقين فاخذ منهم سبتيمانيا وعلى الاكيتانيين فتسنى له اخضاعهم بعد ان قاتلهم واستباحهم ثماني سنوات

فصل

في ذكر شرلمان او كارلوس الكبير وتوليه ملك اللمبرديين وتلقيبه بيطريق [1] رومه (٧٧٤)

ورث كارلوس الكبير ملك ابيه مع اخيه كارلومان {٧٦٨} ولكن كارلومان المذكور توفي بعد ثلاث سنين فضم كارلوس الكبير استرازيا الى مملكته وفر ابناء اخيه من وجهه واحتموا بديديه ملك لمبرديا

واول ما شرع فيه كارلوس تقرير الامن على التخوم وتسكين الثورات وبلغت جملة التجريدات التي جهزها لمحاربة السكسونيين والدنيمركيين والسلافيين والبافاريين والعرب النازلين في اسبانيا والعرب النازلين في ايطاليا واليونانيين والتورنجيين والاكيتانيين والبريتونيين ثلاثاً وخمسين تجريدة تولى القيادة في اكثرها بنفسه

(١) هذه اللفظة تعريب لفظة بتريس الرومانية ويعنى بها الشريف

وبعد ان أتم اول حملة له على السكسونيين استنجد به البابا على اللمبرديين لاخذهم اكزرخية رافينا عنوة فاجتاز جبال الالب ودحرهم واودع اولاد اخيه كارلومان في دير ودخل رومة ظافراً واخذ فيها لقب ملك اللمبرديين وبطريق رومة . واصبح بمقتضى سيادته على رومة صاحب السيادة على املاك الكرسي المقدس ايضاً (٧٧٤)

﴿ فصل ﴾

في فتح جرمانيا (٧٧١ ـ ٨٠٤) وحملة اسبانيا

بدأ شرلمان في سنة ٧٧١ بمحاربة السكسونيين ولم يفرغ منها الا في سنة ٨٠٤ اي بعد ٣٣ سنة . وكان هذا الشعب البربري يعبد الاوثان وخصوصاً تمثال ايرمنسول الممثل به هرمن غالب فاروس القائد الروماني . فلما حاول القديس ليبوين ان يهديهم ذبحوه ورفاقه فتقدم شرلمان لمعاقبتهم وفتح اهرسبرج وكسر تمثال ايرمنسول فثارت ثائرة التعصب في رأس زعيم ساكسوني يدعى ويتيكند وقاوم شرلمان وجيوشه الجرارة وتجريداته المتتابعة اشد مقاومة حتى اذا اندحر مواطنوه واكرهوا على حلف يمين الطاعة للظافر في بادربورن (٧٧٧) فر الى اقصى جرمانيا ورجع منه بجيش جديد فانتصر عليه شرلمان ثانية في موقعة بوكهولس ونقل عشرة آلاف اسرة سكسونية

الى بلجكا وهلفيسيا واخضع الذين بقوا في بلادهم لكونتية افرنك وقسم ارضهم على الكهنة ليرشدوهم الى النصرانية

ولم يلبث ويتيكند ان رجع بجيش آخر وانتصر على جملة قواد افرنك فذبح رجال كارلوس اربعة آلاف اسير سكسوني لشدة غيظهم فشبت في البلاد نار ثورة عامة هائلة لم تخمد الا بعد انتصار كارلوس في موقعتي دتمولد واسنابروك وامضائه شتاء كاملا فوق ثلوج مقاطعة ساكس للمراقبة والمعاقبة . وعند ذلك قبل ويتيكند بان يتنصر ولكن بعد ان غرقت مقاطعة ساكس في الدماء واضطرت الى التسليم بما قضى به عليها الغالب من الشروط المذلة (٨٠٤)

واما بافاريا فخضعت قبل ساكس وقسمت ولايتها الى كونتيات . وكذلك خضعت بانونيا القديمة التي كان يقطنها بقايا الهونيين على يد احد ابناء كارلوس. ولم توفق عساكر الافرنك في الغرب مثلما وفقت في المواقع الآنف ذكرها بل انكسرت في رونسفو وقاومها الغاسكونيون ومسلمو اسبانيا مقاومة شديدة لم تستطع ان تحتل معها الا بعض المراكز الامامية فيما وراء جبال البرانس وفي وادي نهر الابر . وفي سنة ٨١٢ استطاع ملك اكيتانيا وهو اكبر ابناء كارلوس ان يصل بجنوده الى غربي البرانس ووقف عند ذلك منتهى جهده

وعلى أثر هذه الحرب الجسيمة انضم الجيل الجرماني الى امة واحدة عدا الانكلوسكسونيين المقيمين في بريطانيا العظمى والنورثمان المقيمين في سكانديناڤيا

ووصلت تخوم مملكة شرلمان في الشمال والجنوب الى الاوقيانوس وفي الغرب الى جبال البرانس وقسم من مجرى الابر في اسبانيا وكاريكليانو وبسكارا في ايطاليا وستينا في ايليريا وفي الشرق الى البوسنة وملتقى نهر الساف بنهر الدانوب وجبال بوهيميا وانهر السال والالب والايدر . وكانت الشعوب فيما خرج عن هذه الدائرة الواسعة تحمل الجزية الى شرلمان ويراقبها كونتية الحدود من الافرنك . اما بريطانيا وبوهيميا فقد نهبهما جند كارلوس ولم يستطيعوا استفتاحهما

❊ فصل ❊

في تلقيب شرلمان امبراطورًا (٨٠٠)

وكان شرلمان قد ذهب الى رومة في سنة ٨٠٠ ودعاه فيها البابا ليون الثالث امبراطوراً ووضع على رأسه تاج القياصرة فتم بذلك تحالف رئيس الامة الجرمانية ورئيس الكنيسة ولكنه تحالف لم يكن ليدوم بل تلاه الشقاق والحروب وانحطاط ايطاليا بلا ذنب مدة عشرة قرون

﴿ فصل ﴾

في حكومة شرلمان

كان شرلمان يؤثر الاقامة في مدينة اكس لاشبيل ويتكلم لغة الاسترازيين ويلبس زيهم وكان ذا حكمة ودهاء يجمع المجلس الوطني في كل سنة فيأتيه الاساقفة واللود والرجال الاحرار وعمال السلطنة من جميع اطراف البلاد ليطلعوه على ما يجري في الولايات . وكان الكبراء يجتمعون منفردين عن عامة الاحرار ليضعوا القوانين المدنية والكهنوتية. وكان الامبراطور ينفذ مندوبين اربع مرار في كل سنة الى جميع المراكز لكشف الظلامات والنظر في حاجات الرعية ثم يرفعون التقارير اليه بما يرونه وكان كل وفد من المندوبين يؤلف من كونت واسقف يراقب احدهما الآخر . وكانت الولايات لا تزال تحت احكام دوقيتها وكونتيها وكل من يملك مقداراً معلوماً من الارض ملزماً بتأدية الخدمة العسكرية على نفقته الخاصة . وقد وضعت محاكم في الولايات تتألف احداها من سبعة رجال احرار على الاقل تحت رئاسة الكونت للفصل في الدعاوى . وكان الامبراطور يعيش من املاكه وهدايا الاغنياء ولا تجبى له ضرائب عامة

واشرف اعمال شرلمان تشييده المدارس الكثيرة وحمله

ضباطه وكبراء بلاطه على ارسال ابنائهم اليها ليقتدي بهم الناس وتأسيسه جمعية علميـة في قصره كان هو احد اعضـائها . ولما حضرته منيته علم ان ملكه الواسع لا يستقل به واحد الا اذا كان من افراد الرجال فقسمه بين بنيه

الباب الخامس والثلاثون

في آخر الملوك الكارلوفنجيين وامة النورثمان

فصل

في انحطاط السلطنة الكارلوفنجية وذكر لويس الملقب بالمستسلم

ان شرلمان جمع ازمة الممالك المختلفة في يده ولكـنه لم يوحدها فتحركت بعد وفاته واخذت تحاول ان تنفصل بعضها عن بعض وكذلك استعد النورثمان والسلافيون والبريتونيون لاعادة غاراتهم على بلاد السلطنة

وخلف شرلمان في تولي السلطنة ابنه لويس المنعوت بالحليم او المستسلم لضعف ارادته وقلة حزمه وفي سنة ٨١٧ قسم مملكته فعين احد اولاده ملكا على اكيتانيا والآخر على بافاريا واشرك ابنه الاكبر لوثير معه في الامبراطورية وكان ابناه بيبن ولويس لا يستطيعان ان يشهرا حربا او يعقدا معاهدة الا باذنه فثارملك ايطاليا ابن اخي الامبراطور بسبب هذه القسمة فحورب وكسر

وفقئت عيناه ومات وجلس لوثير على عرشه

وكان لويس قد تزوج ثانية بامرأة ذكية جميلة تدعى جوديت وهي ابنة احد زعماء البافاريين فسادت على عقله سيادة مطلقة وحملته في سنة ٨٢٩ على اعطاء قسم من ملكه لابنها فاعطاه الامانيا وريتيا وقسما من بورغونيا وبروفنسا وبلاد القوط . فغضب لوثير وبين ولويس ملك بافاريا وحاربوا اباهم واعتقلوه واعادوا حالة السلطنة الى ما كانت عليه سنة ٨١٧ . ولكن المنتصرين لم يتفقوا فيما بينهم فاعيد لويس الى عرشه وفي سنة ٨٣٣ ثار ابناؤه عليه مرة ثانية لمثل السبب المذكور آنفاً وجاء البابا الى فرنسا للاخذ بناصرهم فخذل الامبراطور عساكره ونفي الى دير واعلن الاساقفة سقوطه عن اريكته والبسوه ملابس التائبين غير انه اعيد له ملكه في السنة التالية وفي سنة ٨٣٨ منح قسماً كبيراً من مملكته لاصغر ابنائه كارلوس الاصلع فاستعد ابناؤه الآخرون لمقاتلته مرة ثالثة ولكنه ادركه اجله سنه ٨٤٠

﴿ فصل ﴾

في معاهدة فردون (٨٤٣)

ولما خلف لوثير اباه على اريكة الامبراطورية اراد ان يحلف له الرجال الاحرار في مملكتي اخويه يمين الطاعة فعارضه في ذلك كارلوس الاصلع ولويس الجرماني وغلباه بقرب اوكسير

(٨٤١) وقتلا اربعين الفاً من عساكره ومع ذلك لبث مصرا على ما اراده فلم يفز به فعقد مع اخويه معاهدة فردون (٨٤٣) وبمقتضاها اقتسم الثلاثة السلطنة الكارلوفنجية فكان نصيب لوثير ايطاليا مع لقب الامبراطور وبقعة من الالب الى بحر الشمال وبقعة اخرى مستطيلة فاصلة بين مملكتي اخويه وبقي كل ماكان جنوبي هذه البقعة نصيب كارلوس الاصلع وكل ماكان شرقيها نصيب لويس الجرماني

﴿ فصل ﴾

في كارلوس الاصلع (٨٤٠-٨٧٧)

وفي سنة ٨٥٥ توفي لوثير الاول قاسما مملكته بين اولاده الثلاثة ولم يلبثوا ان ادركتهم المنية بعده فورث كارلوس الاصلع تجانهم واقتسمها مع لويس الجرماني الا ان لويس توفي بعد قليل ايضاً فاجتمعت ازمة مملكة شرلمان كلها في يد الاصلع وشتان بين ذاك الهمام الذي ضبط الملك بساعد قوي وفكر ثاقب وبين هذا الخامل المتقاعد الذي لم يستطع مع فخامة ملكه ان يصد غارة للنورثمان او يحسن الدفاع عن سلطنته من مطامع الكبراء

﴿ فصل ﴾

في فوز الاشراف

واعظم الغلطات التي ارتكبها كارلوس هذا انه اصدر قانونا منح بموجبه حق توريث المناصب والاعمال للدوقية والكونتية وسائر الموظفين من قبل البلاط وذوي الاقطاعات الذين منحوا اراضي لاستغلالها مدة طويلة ولكن دون ان يمتلكوها . وزاد الطين بلة بان اعفى عدداً كبيراً منهم من تأدية الضرائب والخضوع لسلطة القضاء فانتمى اليهم للاحتماء بهم اكثر الرجال الاحرار وضعفت بذلك شوكة الملك عند اولئك السادة ومسوديهم

وفي هذه الاثناء انتهز النورثمان فرصة اضطرابات وفتن كانت قائمة على ساق وقدم فنزلوا على شواطئ فرنسا واستباحوا مدائنها ونهبوا كنائسها على الخصوص فاخذ كارلوس يبذل لهم المال ليرجعوا ولكن رجلا يدعى روبرت الباسل صاحب دوقية فرنسا الواقعة بين نهري السين واللوار قاومهم اشد المقاومة ودحرهم مراراً الى ان قتل وهو يحاربهم (٨٦٦) وكانت دوقيته هبة له من كارلوس الاصلع وهو رأس الاسرة الكابيتية

﴿ فصل ﴾

في عزل كارلوس السمين (٨٨٧) وقيام سبع ممالك

وقام بالملك بعد كارلوس الاصلع لويس الثاني فكان حاله كحال ابيه وخلفه ابناه لويس الثالث وكارلومان (٨٧٩) فتوفيا بلا عقب . وكان كارلوس الملقب بالسمين قد ضم اشتات المانيا

وتلقب بالامبراطور عليها فاضاف مملكتيها الى سلطنته (٨٨٤) ولكنه مع اتساع صولته لم يقدر على مقاومة النورمان حين حاصروا باريس فانقذها منهم اود الذي يظن انه ابن روبرت المعروف بالباسل . وحنق الجرمانيون على امبراطورهم الكارلوفنجي لما اظهره من الجبن فعزلوه في مجتمع تريبور (٨٨٧) وقامت سبع ممالك على اطلال سلطنته وهي ايطاليا وجرمانيا ولورينه وفرنسا ونافاريا وبروفنسا وبورغونيا واذا اضفت الى هذا العدد اكيتانيا وبريطانيا اللتين كانتا مستقلتين فعلا وتابعتين اسما كانت الممالك التي مسخت اليها سلطنة كارلوس الكبير تسعا . اما التاج الامبراطوري فبقي لصاحب ايطاليا وكان بعض صغار الملوك يختصمون عليه

فصل

في ذكر اود وكارلوس الساذج ولويس الرابع ولوثير ولويس الخامس (٨٨٧ـ٩٨٧)

ووقع تاج فرنسا لاود القائد الباسل غير ان اكثر الشرفاء لم يقروا له بالسلطة وكان له فضلا عن ذلك مناظر هو كارلوس الثالث الملقب بالساذج ابن لويس الثاني وكان قد ولد بعد وفاه ابيه فانتصر الشرفاء المعارضون واهل الكهنوت لهذا الوارث وتوج ملكا في ريمس ولكن اود فاز عليه وكاد يخلعه عن عرشه

لو لم يدركه اجله سنة ٨٩٨ فانفرد الساذج بالملك . وزوج الأكبر زعماء النورثمان من ابنته ومنحه لقب الدوق والارض الواقعة بين آنديل والاوقيانوس على شرط ان يتنصر ويعترف بسلطة الملك فاجابه الى ذلك { ٩١١ } . ودعيت نوستريا من ذلك العهد نورمنديا ونمت نمواً باهراً تحت حكم هذا الامير النشيط . اما كارلوس فعزله الشرفاء سنة ٩٢٢ واقاموا مقامه روبرت دوق فرنسا ثم صهره راول دوق بورغونيا (٩٢٣) وتوفي الساذج معتقلا في برج بيرونا . وفي سنة ٩٣٦ اجلس هوغوس الكبير دوق فرنسا لويس الرابع الكارلوفنجي على اريكة فرنسا ثم عزله ثم ارجعه ثم عزله وخلف لويس ابنه لوثير (٩٥٤) فلم يبق له الكبراء الا مدينة ليون ملكا . فخالف هوغوس كابت وكان قد تولى دوقية فرنسا ليحتمي به من المعتدين عليه . واذ حضرته منيته اوصاه بحماية ابنه لويس الخامس فتركه هوغوس يقوم بالامر سنة واحدة ثم خلعه وتتوج ملكا مكانه في محفل من كبار الاساقفة وشرفاء شمالي فرنسا وكان ذلك في سنة ٩٨٧

الباب السادس والثلاثون

في الغارة الثالثة في القرنين التاسع والعاشر

﴿ فصل ﴾

في الغارة الجديدة

ان من اكبر الاسباب التي نشأ عنها انحلال السلطنة الغربية الثانية بعد انحلال الاولى باربعة قرون غارة هائلة شنت عليها وكان مبدأها من الشمال والغرب والشرق ثم امتدت الى الجنوب فشملت الامبراطورية الكارلوفنجية كلها وقضت عليها. واول شعب قام بهذه الغارة كان شعب النورثمان

﴿ فصل ﴾

في غارة النورثمان على فرنسا

النورثمان أو الشماليون جيل من البرابرة انقضوا على الولايات الرومانية في اواخر عهد السلطنة وحاولوا افتتاح تورنجيا وألامانيا وبافاريا وساكس ولكن الافرنك بوصولهم الى تخوم غاليا الجنوبية طردوهم من الغرب الى الشرق فلجأ سواد عظيم منهم الى شبه جزيرة سمبريا وشبه جزيرة سكانديناڤيا واقاموا فيهما ولم يجدوا امامهم مجالا للامتداد الا البحر فالفوا اخطاره ولما ضعفت السلطنة الغربية الثانية احتلوا جزائر والشرن بقرب مصاب نهر الاسكو وجزائر بيتو بين الرين والواهل والليش

وجزائر اوسيل في السين وجزائر نوارموتيه امام اللوار . وفي سنة ٨٤٠ احرقوا مدينة روان وفي سنة ٨٤٣ نهبوا مدائن نانت وسانت وبوردو ودخلوا البحر المتوسط . وحاصروا باريس حصارا شهيرا { ٨٨٥ } ثم تور واورليان وتولوز . وفي سنة ٨٥١ صدر امر بترميم جميع القصور الحصينة القديمة فامتلات بها البلاد واصبح النورثمان يستوقفون عند كل خطوة يخطونها فعزموا على السكنى في ارض خصبة يستقرون فيها واستمنحوا استريا سنة ٩١١ ودامت غارتهم هذه ثلاثة ارباع القرن وكانت من اعظم الممهدات لاستقلال الشرفاء بالاحكام

﴿ فصل ﴾

في غارة النورثمان الدانمركيين على انكلترا

كانت الممالك السبع في انكلترا قد انضمت الى واحدة في عهد اجبرت الكبير سنة ٨٢٧ . وفي ذلك الوقت نزل الدانمركيون على شواطىء انكلترا فدحرهم الملك ولكنهم بعد وفاته احتلوا نورثمبرلند واستانجليا ومرسيه ولما تولى الفريد الكبير (٨٧١) الزمهم حدهم وانشأ لمملكته نظاماً لا تزال اركانه الكبرى باقية فقسم البلاد الى كونتيات وجعل فصل الدعاوى في يد جمعية تتألف من اثني عشر مندوباً وتقرير المسائل العامة من اختصاصات جمعية تتألف من الحكماء وتستعين على امضاء احكامها بالسلطة

الملكية. اما الملك فجعله بين وراثي وانتخابي. ثم حدث ان احد خلفاء هذا الملك واسمه اثلستان انتصر على الدانمركيين انتصاراً مبيناً في اليوم الشهير بيوم الموقعة الكبيرة فانقذ منهم انكلترا (٩٣٧) غير انهم لم يلبثوا ان عادوا اليها تحت قيادة اولف ملك نروج وسوينون ملك الدنمرك فدس اثلريد ملك انكلترا دسيسة بين رعيته حملتهم على ذبح جميع الدنمركيين المقيمين بانكلترا في عيد القديسة بريس (١٠٠٢) فانتقم منه سوينون لقومه وخلعه واخذ لقب ملك انكلترا (١٠١٣) وخلف سوينون كانوت (١٠١٧) الذي لقب بالكبير فحاربه ادموند الثاني الملقب بجنب الحديد محاربة الابطال فلم يستطع انقاذ بلاده من حكمه فاعترفت انكلترا له بالملك

وكان كانوت قاسياً فلان بعد استتباب الامن وتزوج بارملة اثلريد ليكون قدوة المصالحة بين الغالبين والمغلوبين وسن قوانين عادلة واعاد النظام الواضع له ألفريد الكبير ومنع استبداد الدنمركيين بالانكليز وفي سنة ١٠٢٧ حج الى رومه والغريب في امر النورثمان انهم كانوا ذوي قابلية عظيمة للتمدين وكانوا يتحولون سريعاً من وثنيين شرسين الى مسيحيين ذوي فضائل

﴿ فصل ﴾

في النورثمان في الجهات القطبية وفي روسيا

وكان الفريق الاكبر من هؤلاء الاقوام قد نزل الى جهات الجنوب ولكن قسما منهم ذهبوا الى ما وراء الراس الشمالي لا لشيء الا لمشاهدة ما لم يشاهده الرحالون قبلهم ووصلوا قبل كولومبوس باربعة أو خمسة قرون الى العالم الجديد فادركوا جزائر فيرويه في سنة ٨٦١ وايسلاندا في نحو سنة ٨٧٠ ثم بلاد اللابرادور وفينلاندا أو بلاد الكرم بعد ذلك بنصف قرن وكان جمهور من النورثمان قدنفاهم اخوانهم فدخلوا من البلطيك الى ما بين السلافيين فاستخدمهم حكام مدينة نوفوكورود بالاجرة ولكن زعيمهم روريك لم يلبث ان اخضعها (٨٦٢) ولقب بالامير الكبير عليها وبه كان ابتداء الامارة التي تحولت فيما بعد الى السلطنة الروسية

﴿ فصل ﴾

في السراقين والمجر

يدعو الافرنج بالسراقين فريقا من عرب افريقيا اتخذوا البحر ملكا لهم واخذوا ينهبون جميع شواطىء الجانب الغربي من البحر المتوسط ٠ وكان خروجهم من ولاية تونس التي كانت تعرف بولاية قرطاجنة قبلها. وفي سنة ٨٣١ اخذوا صقليا ودخلوا ايطاليا واستولوا على مدائن كثيرة فيها وتقدموا الى ضواحي رومه ثم امتلكوا مالطه وسردينيا وكورسكا وجزائر باليار ٠ واتخذوا

لهم مقرا في فراكسينه من عمل بروفنسا وداموا فيها الى القرن العاشر واقاموا مراكز لهم في مضايق جبال الالب ليتقاضوا عوائد مالية كانوا يضربونها على المارة من تجار وحجاج ومن هناك كانت تمتد سطواتهم وغزواتهم الى وادي الرون ووادي البو

أما الهنغاريون او المجر فكان مجيئهم من وادي الدانوب. وكانت الشعوب بعد الهونيين تمر في هذا الوادي تباعا كموج البحر وتوالي الغارة بعد الغارة على البلاد الغربية فمنها السلافيون ولا يزالون في وادي الدانوب والبلغاريون الذين لقبوا بالملاعين من الله والافاريون الذين محاهم شرلمان والخزر والبشانق الذين انقرضوا والقبائل الهونية الاوغرية التي دعاها اللاتين والاروام بالهنغارية وكانت تدعو نفسها بالمجرية

وهذه القبائل دعاها ارنولف ملك جرمانيا ليقاوم بها القوم السلاف بمورافيا فافتتحت صحارى التايس وبانونيا وفي سنة ٨٩٩ اخذت كارنتيه وفريول وفي السنة التي بعدها اطلقت خيالتها البسلة على جانبي الالب في واديي البو والدانوب الاعلى الى ما وراء الرين ففتحوا الزاس ولورين وبورغونيا وادركوا وسط فرنسا وتركوا فيه بين الاهالي من الرعب ما لم يتركه الشماليون والعرب . على ان المانيا لم تلبث ان جاهدت جهاداً جيلا للتخلص منهم فقاتلهم ملكها هنري الاول وانتصر عليهم

في مارسبرج (٩٣٤) وقتل منهم ابنه اوتون مئة الف على ما يقال بقرب اوجسبرج (٩٥٥) فارجعهم عن المانيا الى البلاد التي استوطنوها ولم يبرحوها بعد ذلك

وكان من نتيجة غارة المجر ان مدائن ايطاليا تحصنت بالاسوار وسهول فرنسا بالقصور المنيعة التي كان لكل منها حرس خاص به. وهذا ما كان المساعد الاكبر على استقلال المدائن وانحلال السلطة المركزية سلطة الملوك

ولم تكن النمسا في اول امرها الا ولاية مرغرافية نظمتها المانيا تنظيما حربيا حصينا كما نظمت مرغرافية برندبورج التي نشأت منها بروسيا بعد ذلك وكان غرضها رد غارات الامم الشرقية عن الغرب فانقطعت تلك الغارات التي توالت منذ نشأة العالم الى ذلك اليوم . ولما هجم المغول في القرن الثالث عشر والاتراك في القرن الخامس عشر على الغرب صدتهم الولايتان المشار اليهما على تخوم الجيل الجرماني ولم يقابلوا الا الجنس السلافي



فهرست

صفحة

الباب الثالث في الهند

الباب الرابع في تاريخ مصر

الباب الخامس في الاشوريين

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الباب الثامن والعشرون في دولة بني امية (٦٦٠ ـ ٧٥٠)

الباب التاسع والعشرون في الدولة العباسية (٧٥٠ـ١٢٥٨)

صفحة

صفحة

صفحة

انتهى الجزء الاول وفهرسته

والحمد لله

اصلاح خطإ

صحيفة	سطر	خطا	صوابه
٨٨	١ و٢	الباب العاشر في دين اليونانيين الخ	يحذف
١١٨	٥	المقدهني	المقدوني
١٩١	٧	الحووب	الحروب
٢٨٩	١٤	(٥٧١_٦١١)	(٥٧٠_٦٦٠)
٢٩٨	٥	(٦٦١_٨٤٣)	(٦٦٠_٧٥٠)
٣٠٨	٣	(٢٦٩_١٧٠)	(١٦٩_١٧٠)
٣٣٨	٦	(٦٦١_٧٠١)	(٦٧١_٧٠١)
٣٦٨	١١	بافايا	بافاريا

ووقعت اغلاط مطبعية غير هذه اكتفينا بالاشارة اليها معولين في تصحيحها على ذكاء المطالع اللبيب







